اللجنة التنفيذية المركزية
اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية
الكلية الشرقية باسم ن. ص. ينوكيدزه في لينينغراد

المنتخبات العصريّة
لدرس الآداب العربيّة

الجزء الاوّل وهو نصوص المنتخبات

اعتنت بجمعها وترتيبها
كلثوم نصر عوده ڤاسيليڤا
معلّمة اللغة العربيّة في الكلية المذكورة

اتبعها بالمقدّمة
مراقب نشرها
اغناطيوس كراتشقوفسكي
استاذ تاريخ الآداب العربيّة في الكلية

لينينغراد
١٩٢٨

اللجنة التنفيذية المركزية
اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية
الكلية الشرقية باسم ه. ص. ينوكيدزه في لينينغراد

المنتخبات العصريّة
لدرس الآداب العربيّة

الجزء الأوّل وهو نصوص المنتخبات

اعتنت بجمعها وترتيبها
كلثوم نصر عوده ڤاسيليڤا
معلّمة اللغة العربيّة في الكلية المذكورة

اتبعها بالمقدّمة
مراقب نشرها
اغناطيوس كراتشقوفسكي
استاذ تاريخ الآداب العربيّة في الكلية

لينينغراد
١٩٢٨

فهرست الكتاب

١ اللائحة الثانية فى اصلاح القطر السورى لمحمد عبده ١
٢ الاستبداد والعلم للكواكبي ١٣
٣ جمال الدين الافغاني لاديب اسحق ١٨
٤ الشرق لَه ٢١
٥ السعادة بعد الشهادة لَه ٢٧
٦ اوروبا والشرق لَه ٢٨
٧ كيف يكون الاستقلال لنجيب الحداد ٣٣
٨ انكم تخدمون الانكليز لَه ٣٦
٩ الدستور والمهاجرة لسليمان البستاني ٤٣
١٠ الرساله الثامنة من رواية حضارة الاسلام في دار السلام لجميل المدوّر ٥٩
١١ الفصل التاسع عشر من رواية ارمانوسة المصريّة لجرجى زيدان . ٧٥
١٢ الفصل الثاني والعشرون من رواية العباسة اخت الرشيد لَه . ٨٦
١٣ الفصل الرابع والاربعون من رواية اسير المتمهدى لَه ٩٠
١٤ الفصل الاول من رواية اوروشليم الجديدة لفرح انطون ٩٣
١٥ الفصل التاسع عشر منها لَه ٩٩
١٦ كيف يموت الأدباء فى الشرق لوليّ الدين يكن ١٠٦
١٧ ليلة القدر لَه ١١٠
١٨ خليج البسفور في احدى ليالي الشتاء لَه ١١٣
١٩ جرجي زيدان لمصطفى المنفلوطي ١١٧
٢٠ مقدمة ملوك العرب لامين الريحانى ١٢٥

٢١ الثورة لَه ١٣٩
٢٢ داويني ربّة الوادي لَه ١٤٢
٢٣ يد القضاء من رواية الاجنحة المتكسّرة لجبران جبران ١٤٦
٢٤ بين عشتورت والمسيح من الرواية ذاتها لَه ١٤٩
٢٥ احب من الناس المتطرفين لَه ١٥٤
٢٦ في بيت الميت لعبد المسيح حداد ١٥٨
٢٧ الرواية التمثيلية العربية لميخائيل نعيمه ١٦٣
٢٨ الراحة لعباس محمود العقاد ١٦٩
٢٩ قوة الارادة لَه ١٧١
٣٠ مذكرات حكمت هانم لعيسى عبيد ١٧٧
٣١ عزيز عيد لمحمد تيمور ١٩٤
٣٢ السائح لمحمود تيمور ٢٠١
٣٣ سن الزواج لملك حفني ناصف ٢١٠
٣٤ مساوئ الرجال لَها ٢١٤
٣٥ لوتي الراحل الباقي لميّ ٢١٩
٣٦ مقدمات ظلمات واشعة لَها ٢٢٤
٣٧ نشيد نهرِ الصفا لَها ٢٢٧
٣٨ عند قدمي ابى الهول لَها ٢٣٢
٣٩ حكاية هيفاء الديرانيّة لسلمى صائغ ٢٣٨
٤٠ بابل في سوريا لَها ٢٤٣
٤١ على ذكر اللغة العربية لَها ٢٤٥
٤٢ حياتنا الاقتصادية لَها ٢٤٨

محمد عبده

١٨٤٢ — ١٩٠٥

اللائحة الثانية

في اصلاح القطر السورى قدمها الى دولة والى بيروت بعد تقديم اللائحة السابقة الى شيخ الاسلام وهي.

ارفع الى مقام دولتكم السامى ان للدولة العلية أدام الله سلطانها وعزز مكانها حقوقا ثابتة على ذمم المسلمين تتقاضاها العقيدة بعد ان قضت بها طبعية الحياة الملية ولا هوادة بين الله وبين أحد من خلقه فى إغفال حق من تلك الحقوق وأدناها صرف الفكر إلى النظر فيما يعزز جانب تلك الدولة ويقوى أركانها وأقصدها بذل ما يستطاع من السعى لدفع ما لا يلتئم مع مصلحتها واعلاها الجود بالنفس واستقبال هول الموت في ذلك السبيل الاقوم.

وإنني على ضعفي — والحمد لله — مسلم العقيدة عثمانى المشرب وإن كنت عربى اللسان لا أجد فى فرائض الله بعد الايمان بشرعه والعمل على أصوله فرضا اعظم من احترام مقام الخلافة والاستمساك بعصمته والخضوع لجلالته وشحذ الهمة لنصرته بالفكر والقول والعمل ما استطعت الى ذلك سبيلا وعندي ان لم أقم على هذه الطريق فلا اعتداد عند الله بإيمانى فإنما الخلافة حفاظ الاسلام ودعامة الإيمان فخاذلها محادّ لله

ورسوله ومن حادّ الله ورسوله فأولئك هم الظالمون فهذا الذى أزعج همي للفكر فى أحوال هذه البلاد مدة إقامتى بها غريبًا عن أهلها مفكرا فى مجارى أعمالهم ومآخذ مشاربهم وضروب مذاهبهم من وجه ما يتعلق بالدولة رعاها الله وهو الذي بعثنى على أن أعرض ما ألمت به من ذلك على مقام دولتكم بعد الثقة بأنكم من أغزر رجال الدولة علما وأرجحهم حلما وأقومهم سيرة وأشدهم حرصا على تعزيز عرش الخلافة واصدقهم إخلاصا فى خدمة أمير المؤمنين أعز الله نصره وأرفع الى علىّ نظركم ما لو ألقى بين يدي سواكم لخشيت إغفاله وتوجست إهماله ولو نال الحظ من جليل رأيكم فيه لكساه قبولكم حلة الفخار وأكسبته لحظات التفاتكم العالى مسحة الحق والنصفة فان كان ما رجوت فذلك فضل الله وكمال سجاياكم الطاهرة وعلو رأيكم وإن كانت الأخرى فما هو الا الفرض أقضيه مع الاعتراف بالعجز وقصور الفكر وكلال النظر.

هذه البلاد من أجدر بلاد الدولة العلية بالرعاية وأولاها بالاهتمام وموقعها من سائر البلاد العثمانية لا يخفى على نظر دولتكم وقد توهم بعض من تولاها من خدمة الدولة ان فى نفوس أهاليها ميلا للاستقلال وطموحا للانفساخ عن دوحة الخلافة نعوذ بالله فهذا وهم لا أساس له ولا يمس جانب الحقيقة فنفوس السكان على اختلاف طبقاتهم لا ترى من أجل احوالها ما يؤهلها لأقل شأن يلم بهذه الغاية وهم أطوع للسلطة الحاكمة عليهم من ظلهم ولا همّ لهم الا فى استرضاء العاملين عليها بأية وسيلة كانت ولو فرض أن خيالا باليًا مثل هذا لاح بذهن أحد مما له صلة بالاجانب منهم فليس بخارج عن حد الامانى المستحيلة وليس فى البلاد ولا فيما يجاورها من تجتمع عليه الكلمة أو تعقد على التسليم له العزائم نعم نشأ هذا الوهم من ألفاظ صدرت من بعد الطغام السنّج الذين لا مقام لهم بين العامة ولا الخاصة على عهد بعض الولاة لتسامحه فيها وعدم مبالاته بها وهي

قذفات لا مكان للقصد منها وطائشات كلم لا شمة للرأي فيها وهي بما يصدر عن الاطفال أشبه منها بما يكون عن الرجال ولهذا لم يكن اثرها فى أنفس العامة فوق وصول ألفاظها الى أسماعهم ثم ترد على قائليها ويحثى بها التراب في وجوههم ولكن مما يوجب الاسف أن بعض الظانين بالرعية هذا الظن من عمال الدولة قد عولوا عليه وجاؤا بما عاد على المسلمين بالضرر في تربيتهم وأخذ أفكارهم وأفاد غيرهم فى الاستعلاء عليهم كما جرى من بعض أولئك العمال فى الغاء الجمعيات الخيرية الاسلامية على قيام أمثالها فى سائر الطوائف.

على انه يوجد أمر آخر ان لم يكن أعظم ضررا من هذا الوهم على فرض ثبوته فليس بأقل عائلة منه وذلك أن سكان هذه البلاد ينقسمون أولا الى قسمين الاول سكان جبل لبنان والثاني سكان ولايتى بيروت وسورية.

(حالة أهالى جبل لبنان)

أما سكان جبل لبنان فهم طوائف مختلفة أكثرها عددا وأقواها عدة طائفة الموارنة من النصارى ويليها طائفة الدروز ويوجد نزر يسير من أهل السنة وعدد قليل من الشيعة وعائلات من سائر الطوائف المسيحية. فالموارنة يعتقدون أنفسهم فرنساويين وهواهم للدولة الفرنساوية وصغاهم معها لاعتقادهم أنها الحامية لهم والواقية لحقوقهم وقوى الاعتقاد فيهم من نحو ثلاثين سنة بعد حوادث لبنان والشام المشهورة وامتياز الجبل والحكومة الفرنساوية لا تنبي في تمكين هذه العقيدة بتاييد الجمعيات الفرنساوية ومساعدتها على انشاء المدارس والمكاتب في جميع أنحاء الجبل وتلك الجمعيات انما وضعت مدارسها على أساس التربية الفرنساوية

واشراب المتعلمين فيها مذهب الميل الى فرنسا واخراجهم بما أمكن من الوسائل عن عوائد بلادهم وابعادهم عن معرفة حقوق أوطانهم حتى لقد يخرج التلميذ من المدرسة وكأنه أتى من بلاد فرنسا لا يعلم من أحوال وطنه ودولته الا ما يعلمه بعض السياحين وطرّاق البلاد من الاجانب ثم بعد استتمام دروسهم لا يرى النبيل منهم مطلبًا أشرف من نيل وظيفة دانية أو عالية فى احدى دوائر الاجانب إما ترجمانا لقنصل أو كاتبا في شركة أو ما شاكل ذلك ورؤساء هذه الطائفة لا مفزع لهم يلجئون اليه الا قنصل الدولة الفرنساوية وفي كل عام تبذل حكومة فرنسا مبالغ وافرة من الدنانير لابلاغ هذا الفساد حده.

والدروز كانوا قبل ١٨٦٠ من أقوى انصار الدولة واشد الطوائف تعلقًا بها ولهم صفات في الشجاعة والثبات تخولهم مقاما يزيد فى الرفعة على مقام الموارنة في الجبل ولكن بدأ فيهم الضعف بعد امتياز لبنان عند ما صار النظام قاضيا بان متصرفه يكون كاثوليكيا وأغلب رجال حكومته من المسيحيين وأصبحت قوة البأس لا توصلهم الى المناصب كما كانت فى سابق العهد واضطروا لموالاة اهل السلطة ليحفظوا بعض ما بقى لهم أو ينالوا شيئًا مما يخولهم النظام نيله فانحطت بذلك أحوالهم وقد كانوا ولا يزالون فئتين جنبلاطية ويزبكية فالجنبلاطيون استمالتهم حكومة انكلترا وأخص علائقهم مع قنصل الانكليز واليزبكيون وهم أقرب الفئتين الى الدولة مالوا الى المشرب الفرنساوي وكرعوا منه حتى عموا غير أن الحكومة الانكليزية لم تأل جهدا فى استمالتهم أيضا بواسطة المدارس والمكاتب التي ينشئها المرسلون من البروتستانت لتربية أبناء الدروز أولا وبالذات وتربية غيرهم ثانيا وبالتبع.

والدروز قوم خلو من العلوم بالمرّة سذّج كأنهم فى بدايات البداوة ولكنهم أذكياء بجودة الفطرة ولا يخشى على كبارهم أن يخلعوا مذهبهم

الى مذهب آخر وانما يخاف على أبنائهم من ذلك وعلى كبارهم من الانقياد السياسي الى دولة الانكليز.

أما المسلمون السنيون والشيعة وغيرهم فلا نظر اليهم وانما هواهم هوى جيرانهم فالمخالطون للموارنة طوع لهم والمخالطون للدروز تبع لهم وقلما يعرفون شيئًا من شؤون دينهم فلبنان يتنازع النفوذ فيه دولتا فرنسا وانكلترا وليس بخاف ما تأتي به هذه المسابقة السياسية بعد ما ظهرت اثار مثلها فى بلاد أخر والدولة أعزها الله مع ان البلاد بلادها ليس لها من يروج سياستها ويؤيد كلمتها وأمرها يتبع ميل المتصرف ان صدق فى خدمتها كان لها والا صار الى غيرها والمتصرف شخص يعزل ويولى وأهل البلاد هم القوة الراسخة وبهم تؤزر السلطة فيهم ولكن كل هذه المساعي الأجنبية على ما يحفها من عناية المتذرعين بها تخشى عواقبها وترعد بوائقها اذا جاء المستقبل على أثر الماضى لا يعارض فيه السعي بمثله ولا تقطع الطريق على السالكين فيها أما اذا توجهت من الدولة لمحة نظر الى استبقاء قلوب رعاياها اللبنانيين لها وتطهيرها من تلك الأعيان الطارئة عليها فما أيسر أن يتم لها قصدها وتذهب تلك المساعي هباء منثورا ولا سبيل الى ذلك الا بالتربية ومدافعة الأجانب بمثل سلاحهم فلا بد من النظر في وسيلة لتربية اللبنانيين على المشرب العثمانى ولئن دعيت الى تفصيلها بذلت ما فى الوسع للفكر فيها.

(حالة أهالي ولايتي بيروت وسوريه)

أما ولايتا بيروت وسورية ففيهما من سكان الأعراب المتبدون وفيهما القريون أهل الحضر أما القريون وسكان المدن فمنهم المسلمون أهل السنة وهم الجمهور الأغلب ومنهم الدروز فى حوران ومنهم الشيعة سكان

الشقيف وبلاد بشارة في نواحي صيدا وصور ومنهم النصيرية فى لواء اللاذقية ومنهم الطوائف المسيحية من موارنة وروم كاثوليك ملكيين وروم ارثوذكس وبروتستانت .

(الطوائف النصرانية) على اختلافها تذهب مذهبا واحدا في تربية أبنائها وتهيئتهم للأعمال وهو مذهب التقليد الأفرنجي غير أن منهم من يروقه المشرب الفرنساوي وهؤلاء هم الموارنة والروم الملكيون يدفعون بأولادهم في المدارس الأجنبية الفرنساوية مثل مكاتب الجزويت وغيرهم لينشؤا كما ينشأ الموارنة في جبل لبنان واذا اسسوا مكاتب لأنفسهم كما فعل الموارنة في تأسيس مدرسة الحكمة ببيروت والملكيون في المدرسة البطركية بها ومنشآت أخر في أطراف البلاد فلا يضعونها الا على قواعد فرنساوية واللسان الأول فيها الفرنساوي والهوى والميل فرنساوي ومنتهى أمرهم في التحصيل على ما بنا في الموارنة ودروس تلك المدارس التى يدعونها وطنية انما تقرر في كتب من التاريخ وغيره من مؤلفات الافرنج مما يمتنع دخوله في البلاد العثمانية لاحتوائه على الطعن في الدين والدولة وهكذا يعلمون أبناء البلاد الى ان يتنسبوا الى غير أبيهم الحقيقى وأجل شيء يفتخر به الناشئون في تلك المدارس ان يكون لاحدهم ذوق فرنساوي ومذهب من مذاهب الفرنساويين السياسية وما من مكتب من هذه المكاتب الا ولفرنسا مساعدة مادية وأدبية له .

ومنهم البروتستانت ومشربهم انكليزي ومنهم من لا مشرب له في التربية وهم الروم الارثوذكس ومدارسهم الخاصة بهم قلما تكون لها غاية سياسية ولكنهم تارة يبعثون بأبنائهم الى مدارس الجزويت وأمثالها فينشئون فرنساويين وتارة الى مدارس أخر منهم ينشئون على المشرب الذي نموا عليه وهذه الطائفة أقرب الطوائف المسيحية الى الدولة غير انها لم تشأ ان تكون محرومة من النسبة الى الاجانب حتى لا يكون ذلك

عارا عليها في أعين اخوانها من بقية الطوائف فاختارت ما يوافقها فى المذهب الدينى فانتسبت الى دولة الروس غير ان الروس لم يوجد لهم الى الآن أعوان للتربية على مشربهم السياسي[1]

ولو نظم بين هذه المدارس وهذه الطوائف مكتب عثمانى على قواعد توافق حال أهل البلاد وقام بادارته رجال متبصرون حذاق فى إصابة الأغراض والرمي اليها لبزت تربيته جميع تلك التدابير واجتثت أصول تلك المفاسد وانما يلزم لذلك سعي خارج المكتب لجلب التلامذة اليه كما يفعل أرباب تلك المكاتب. واذا دعيت لبيان طريقة ذلك السعى استعنت بالله على بيانه.

(النصيرية) قوم أجلاف اشداء يعتقدون بألوهية على بن أبي طالب فمذهبهم الديني غير مذهب الدولة وصغار المأمورين منهم ربما كانت منهم معاملات تخالف الواجب عليهم في صداقة الدولة ولهذا كثيرا ما انتقض أولئك القوم على الحكام وشقوا عصا الطاعة وكان ذلك منهم بسعي وكلاء الأجانب وبث الوسواس من المرسلين البروتستانت بما انشأوا بينهم من المكاتب حتى انه من نحو ثلاثين سنة اشتد امرهم في الشقاق وكان راشد باشا واليا على سورية فذهب بنفسه لإخضاعهم وبعد البحث رأى أن أسباب العصيان كانت إغراء أولئك الشياطين فالتمس من الباب العالي تقرير ستين ألف قرش لتصرف على إنشاء مكاتب عثمانية في قرى هذه الطائفة وصدر الأمر بذلك الا انه لم يحر العمل به حتى الآن ويوجد أسماء مكاتب يأخذ مأمورها معاشاتهم من خزينة الدولة وهم في اللاذقية ولا مكاتب ولا تعليم. وما أقرب هؤلاء من الدولة لو التفت الى تربيتهم فى مكاتب عثمانية منتظمة بل لو اعتنى بإخراجهم من مذهبهم الي

---

[1] بعد هذه الكتابة بسنين قليلة أنشأت روسيا تنشىء المدارس في سورية والقدس ولبنان.

الاسلام الصحيح لم يصعب ذلك اذا أحكم أساس التربية فيهم وبني على قواعد الحكمة والدربة وقام بالعمل عليه أرباب المكنة والقدرة العقلية والاستقامة النفسية.

(الشيعة) لا يقرون بالخلافة الا للقائم المنتظر ولهذا وجد الاجانب سبيلا للدخول على قلوبهم لكن بغير تلك الطرق التي دخلوا بها على غيرهم فان لهذه الطائفة حمية على مذهبها الديني تفوق حمية جميع المذاهب يعتقدون بنجاسة اليهود والنصارى وغيرهم من مخالفي الاسلام ولهذا لا يلقون أولادهم في المكاتب المسيحية ولكن وكلاء الاجانب وشياطينهم يصورون لهم عمال الدولة في صورة مشوهة وربما كان عن بعض المأمورين ما يصدق مزاعم اولئك المفسدين وكثيرا ما يخيلون لهم الاحتماء بدولة أخرى وليس من البعيد أن تميل أفكارهم الى خلاف ما يرغبه الصادقون في محبة الدولة ولا تؤمن غائلة ذلك واستعمال الشدة في مراقبتهم لا يزيدهم الا نفورًا ولكن ما أسهل سدّ تلك المنافذ على أولئك الاجانب بإنشاء معهد للتربية العثمانية بل ما أسهل تذليل شدتهم المذهبية واستصفائهم للدولة بإقامة مهذبين من أهل الافكار الصائبة الذين يسطون على النفوس بجمال أفكارهم وصلاح أخلاقهم لا بشكاسة طباعهم وصعوبة شكائمهم لا ريب انهم بعد ذلك يفضلون جانب الدولة على جانب غيرها فان أهملوا كانت العاقبة ضد المأمول.

(الدروز في حوران) لم يخف حالهم على رجال الدولة غير انه زاد في سوئها عناية الانكليز بارسال رجال من رؤساء البروتستانت لتعليمهم وبث الدسائس فيهم حتى انهم عينوا أسقفا في القدس بمعاش ألف وخمسمائة ليرا في كل شهر لتدبير التربية في حوران خاصة ولا طريق لاصلاحهم وراحة الدولة من ناحيتهم الا ما يسلكه غيرنا لمثل هذه الغاية وهو التربية والتعليم مع اختيار الصالحين للقيام بها.

(المسلمون من أهل السنة) هم عماد الدولة وركنها الشديد وهم قومها الحقيقيون وفيهم عصبتها الثابتة ومن البين ان قوائم الدولة العلية ثبتها اللَّه مستقرة على أديم الدين لأنها دولة خلافة فعاملها فى القلوب سلطان الدين فكلما قوي الدين في الأفئدة ظهرت آثاره فى الاعمال فاستمات أهله لحماية مسند الخلافة وكلما ضعف الدين ضعف أثره بحكم الضرورة ولكل وسيلة خلف منها أما الدين فلا عوض عنه للدولة العلية ايدها اللَّه.

المسلمون السنيون يتفقون مع الدولة في المذهب الديني تمام الاتفاق وهي علاقة من أمتن العلائق في طبيعتها ولكن عرض عليها ما يوجب الالتفات ويستدعي دقة النظر وهو غشيان الجهل بحقائق الدين بعد ما أهمل التعليم الاسلامي الصحيح وبيان ذلك مفصل بعض التفصيل فى اللائحة المعروضة لدولة شيخ الاسلام وقد كان للمسلمين من نحو ثلاثين سنة حال يحمد فى نظر المسلم فقد تسابقوا ركبانا ورجالا متطوعين الى الجهاد المقدس فى حرب سباستبول المشهورة ثم كانت حالهم أيام الحرب الاخيرة من التقاعد ما لا يسر وفي هذه الأيام الأخيرة يبذل الرجل منهم كل ما لديه للفرار من الخدمة العسكرية وان جاءت لا قدر اللَّه حرب ذهبوا اليها كارهين بعد ان كانوا يذهبون راغبين كل هذا والجهاد من فرائض دينهم يفيض به كتاب اللَّه في أغلب سوره وما كان خمود الحمية في نفوسهم الا لضعف العقيدة بمخالطة الاوربيين وإهمال التعليم المذهبي وقد قال المستر (جى دبليولتيز) مفتش المكاتب الهندية فيما كتبه الى جريدة الدالي تلغراف الصادرة في فبراير سنة ١٨٨٨ أثناء كلامه على لزوم تقوية العقائد الدينية في قلوب الرعايا الهنديين «لا بد أن نؤمن بما آمن به أكبر شاه الهندي من أن الدين والملك توأمان فكما أن كل دولة تخمد الافكار الدينية من نفوس رعاياها يسرع اليها العدم ويقضى عليها الزوال بحكمه ويستحيل عليها أن تدوم كذلك كل دولة لا تسند عقائد رعاياها ولا

تعينهم على التمسك بها لا يتسنى لها الى النجاح سبيل» اه فهذا انكلزي يطلب من دولته أن تعين المسلمين على التمسك بعقائدهم لتتثبت محبتهم فما أجدرنا بالعناية بذلك والملة ملتنا والقوم قومنا.

انتبه المسلمون في هذه لسوء حالهم من نيف وعشر سنين وضارعوا سائر الطوائف فشكلت منهم جمعيات خيرية كجمعية المقاصد الخيرية لتربية أبناء المسلمين واحياء العقائد الدينية في قلوبهم ووقايتهم من سطوة الاجانب على أفكارهم وجدَّ أعضاء تلك الجمعيات فى رعاية المكاتب الابتدائية ألتى انشئت على نفقة أهل الخير فساء ذلك الطوائف المسيحية فاخذ المفسدون منهم في الوسوسة لبعض العمال حتى أقنعوهم بأن لهذه الجمعية مقاصد سياسية وساعد أولئك السعاة جماعة ممن يدعون الاسلام ولا يعرفونه فكانت العاقبة إلغاء هذه الجمعيات وتحويلها الى مجالس رسمية ثم محي أثرها بالمرة والله يشهد ورسوله أن الساعين كاذبون ولم أر شيئًا كان أشد على نفوس المسلمين من إلغاء تلك الجمعيات فخمدت أفكارهم وتقطعت آمالهم ورجعوا الى جاهلية اما لا رغبة لهم فى العلم أصلا أو لهم رغبة فيما يتعلمه المسيحيون من اللغات الاجنبية وبعض مبادئ علوم لا تفيد في اصلاح الانفس شيئًا ولكن تؤثر في افسادها.

فالزاعمون انهم من رغبة العلوم يبعثون بأبنائهم الى تلك المكاتب المسيحية فرنساويه أو ألمانيه أو انكليزية أو وطنية بالاسم أجنبية بالحقيقة ولا فرق بين صالحيهم وطالحيهم في ذلك وكل هذه المكاتب دينية أنشئت لغرضين: تحويل العقائد الى المسيحية وإمالة المشارب الى الدول المنسوبة اليها فكان من آثار ذلك أن المتعلمين فيها اما أن يخرجوا مسيحيين في الاعتقاد مسلمين بالاسم أو دهريين لا عقيدة لهم. ولو دعيت إلى توضيح ما في تلك المدارس من الطرق لافساد قلوب المسلمين لاوضحتها كما هي عندهم.

فالمسلمون السنيون هم أحوج رعايا الدولة الى عنايتها حتى لا يذهب أعوان التربية الشيطانية بقلوبهم ولا يحط بهم الفساد النفسي الى أسفل مما وصلوا اليه.

وأول ما يلزم لذلك تنظيم مكتب داخلي يؤكل ويشرب فيه في مدينة بيروت من صنف المكاتب العالية يوضع له قانون وبروجرام دروس يوافق حالة البلاد وأول شرط فيه أن يكون مديره عارفًا باللغة العربية يخاطب أهل البلاد بمثل كلامهم وثاني شروطه أن يكون التعليم باللغة العربية في جميع العلوم حتى يقوى التلامذة في التركية ثم يكون التعليم بالتركية بعد ذلك ولا بد أن يجعل اللسان الفرنساوى مما يقصد تعليمه في بادىء الامر حتى يقبل الناس عليه وأن يكون في درجة لا تنقص عن مكاتب الأجانب في شيء. وثالث شروطه أن يكون أساسه على احياء الدين وحب الدولة ولا بد أن يكون بروجرام فنونه على وضع خاص ورابع شروطه أن يكون مديره من عشاق الدين والدولة وليس يحصر همه في اخذ راتبه الشهري وأن يكون حكيما في تصرفه وفي حال يجلب ثقة الناس به والله بعد ذلك كفيل بان يدفع اليه جميع الطوائف المسيحية وضامن لنجاح الدولة في مقصدها منه.

ثم تنشأ مكاتب ابتدائية في أطراف الولايتين على هذا الاساس لا فرق الا بالدنو والعلو والتربية في جميع الاحوال لا بد أن يكون على بذل المال والنفس في سبيل الله ووقاية السلطنة كما هو جار فى ممالك أوربا وكما كان عليه أسلافنا وان تكون الغاية منها طبع هذا الخلق فى النفس حتى لا يحوله محول من فقر أو غنى أو ايثار أو حرمان أو ظلم أو عدالة وليس هذا بالعمل الصعب اذا وجهت اليه النية الصالحة واصطفي له رجال من أهله وما هم بالمعدومين ولكنهم ربما يكونون غير معروفين والبحث يظهرهم.

وأما أهل البداوة من الاعراب المتنقلة في أطراف البلاد فهم مادة غزيرة من مواد المنافع للدولة ولكن مما يؤسف عليه أنهم كلّ عليها ضررهم أكثر من نفعهم ولبعض رجال الأجانب علاقات خبيثة معهم حتى انني رأيت عند بعض رجال الانكليز أيام كنت في لندرا رسائل من بعض مشايخهم تودداً وما ذلك الا من اهمالهم وعدم العناية بتربيتهم واذا دعيت الى وضع لائحة في تهذيبهم وجعلهم في حالة لا تنقص عن التركمان بالنسبة الى روسيا بل تزيد عليها أضعافاً مضاعفة لاستمددت من الله التوفيق في ذلك.

وربما يقال ان هذا الامر وما قبله يحتاج الى نفقات لا فضل لها في خزينة الدولة فاجيب أن أهل العمل وذوى البصيرة فيه يمكنهم أن يفيضوا من الاغنياء على الفقراء بالسعي والجد خصوصا اذا أعيدت جمعية مثل جمعية المقاصد ولا تحتاج خزينة الدولة بعد سنين الى أن تصرف شيئًا في هذا السبيل وطريق الصواب واضح لاهله متى ثبتت العزيمة ولا أطيل القول في هذه العجالة فانما الغرض سوق ما تنبه اليه الفكر اجمالاً الى ساحة الفضل والكرم والمرجو شمولي بالعفو عن تقصيري والله يطيل عمر مولانا الخليفة الاعظم ويرفع الاسلام في خلافته الى أوج المجد والشرف.

آمين

الكواكبي

١٨٤٩ — ١٩٠٣

الاستبداد والعلم

ما أشبه المستبد في نسبته الى رعيته بالوصي الخائن القوي على أيتام أغنياء يتصرف في أموالهم وانفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين فكما انه ليس من صالح الوصي ان يبلغ الايتام رشدهم كذلك ليس من غرض المستبد ان تتنور الرعية بالعلم.

لا يخفى على المستبد ان لا استعباد ولا اعتساف ما لم تكن الرعية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتيه عماء. فلو كان المستبد طيرًا لكان خفاشًا يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل ولو كان وحشًا لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل.

العلم قبسة من نار الله وقد خلق الله النور كشافًا مبصرًا ولّادًا للحرارة والقوة وجعل العلم مثله وضاحًا للخير فضاحًا للشر يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة

المستبد لا يخشى علوم اللغة المقومة للسان اذ لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الالوية أو سحر بيان يحل الجيوش. لانه يعرف ان الزمان ضنين بان تلد الامهات كثيرًا من أمثال الكميت وحسان او مونتسكيو وشيللار.

وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعتقاده انها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة وانما يتلهى بها المتهوسون للعلم. فاذا نبغ فيهم البعض ونالوا شهرة بين العوام لا يعدم وسيلة لاستخدامهم في تأييد أمره بنحو سد أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد.

نعم ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الامم وسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الادبية وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم المبسقة الشموس المحرقة الرؤوس.

ويقال بالاجمال ان المستبد لا يخاف من العلوم كلها بل من التي توسع العقول وتعرف الانسان ما هو الانسان وما هي حقوقه وهل هو مغبون وكيف الطلب وكيف النوال وكيف الحفظ. المستبد عاشق للخيانة والعلماء عواذله. المستبد سارق ومخادع والعلماء منبهون محذرون وللمستبد أعمال وصوالح لا يفسدها عليه الا العلماء.

المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضه لذاته لان للعلم سلطانًا أقوى من كل سلطان فلا بد للمستبد من ان يستحقر نفسه كلما وقعت عينه على من هو أرقى منه علمًا. ولذلك لا يحب المستبد أن يرى وجه عالم ذكي فاذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار المتصاغر المتملق. وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله (فاز المتملقون) بل هذه طبيعة في كل المتكبرين وعليها مبنى ثنائهم على كل من يكون مسكينًا خاملًا لا يرجى لخير ولا لشر.

وينتج مما تقدم ان بين الاستبداد والعلم حربًا دائمة وطرادًا مستمرا. يسعى العلماء في نشر العلم ويجتهد المستبد في اطفاء نوره. والطرفان يتجاذبان العوام. ومن هم العوام؟ هم أولئك الذين اذا جهلوا خافوا واذا خافوا استسلموا. وهم الذين متى علموا قالوا ومتى قالوا فعلوا.

العوام هم قوت المستبد وقوته بهم وعليهم يصول وبهم على غيرهم يطول.

يأسرهم فيتهللون لشوكته ويغصب اموالهم فيحمدونه على ابقاء الحياة. ويهينهم فيثنون على رفعته ويغري بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته واذا أسرف بأموالهم يقولون عنه انه كريم واذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيمًا ويسوقهم الى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب وان نقم عليه منهم بعض الاباة قاتلوهم كانهم بغاة.

والحاصل ان العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل فاذا ارتفع الجهل زال الخوف وانقلب الوضع أى انقلب المستبد رغم طبعه الى وكيل أمين يهاب الحساب ورئيس عادل يخشى الانتقام واب حليم يتلذذ بالتحابب.

وحينئذ تنال الامة حياة رضية هنية. حياة رخاء ونماء. حياة عزّ وسعادة ويكون حظ الرئيس من ذلك رأس الحظوظ بعد ان كان في دور الاستبداد أشقى العباد لانه كان على الدوام محاطًا بالاعداء ملحوظًا بالبغضاء غير أمين على حياته طرفة عين.

ولا شك ان خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم بأسه لان خوفه ينشأ عن علم وخوفهم ناشيء عن جهل وخوفه من انتقام بحق وخوفهم عن توهم التخاذل وخوفه على فقد حياته وسلطانه وخوفهم على لقيمات من النبات وعلى وطن يألفون غيره فى أيام.

وكلما زاد المستبد ظلمًا واعتسافًا زاد خوفه من رعيته ومن حاشيته وحتى من هواجسه وخيالاته. وكثيرًا ما تختم حياة المستبدين الضعيفي القلوب منهم بالجنون

ومن قواعد المؤرخين المدققين ان أحدهم اذا أراد الموازنة بين مستبدين كنيرون وتيمور مثلاً يكتفي أن يوازن درجة ما كانا عليه من التحذر والتحفظ. واذا أراد المفاضلة بين عادلين كأنوشروان وصلاح الدين يوازن مرتبتي أمنهما في قوميهما

لما كانت اكثر الديانات القديمة مؤسسة على مبدأى الخير والشر كالنور والظلام والشمس وزحل والعقل والشيطان رأت بعض الامم الغابرة ان أضر شيء على الانسان هو الجهل وأضر آثار الجهل هو الخوف فعملت هيكلاً مخصصا للخوف يعبد اتقاءً لشره.

قال أحد المحررين السياسيين اني أرى قصر المستبد في كل زمان هو هيكل الخوف عينه. فالملك الجبار هو المعبود وأعوانه هم الكهنة ومكتبته هي المذبح المقدس والاقلام هي السكاكين وعبارات التعظيم هي الصلوات والناس هم الاسرى الذين يقدمون قرابين.

ويقول أهل النظر في أحوال البشر ان خير ما يستدل به على صفة السياسة في الامم شنان الملوك وفخامة القصور وعظمة الحفلات ومراسم التشريفات.

يقولون انه كذلك يستدل على عراقة الامة في الاستبداد أو الحرية باستنطاق لغتها هل هى كثيرة الفاظ التعظيم غنية في عبارات الخضوع كالفارسية مثلاً أم فقيرة في هذا الباب كالعربية.

والخلاصة ان الاستبداد والعلم ضدان متغالبان فكل ادارة مستبدة تسعى جهدها في اطفاء نور العلم وحصر الرعية في حالك الجهل. وكذلك بعض العلماء الذين ينبتون في مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير أفكار الناس. والغالب ان رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم وينكلون بهم فالسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره. وهذا سبب ان كل الانبياء العظام عليهم الصلاة والسلام واكثر العلماء الاعلام والادباء النبلاء تقلبوا فى البلاد وماتوا غرباء.

قال المدققون ان أخوف ما يخافه المستبدون الغربيون من العلم أن يعرف الناس حقيقة ان الحرية افضل من الحياة وان يعرفوا النفس وعزها والشرف وعظمته والحقوق وكيف تحفظ والظلم وكيف يرفع والانسانية وما هي وظائفها والرحمة وما هى لذاتها

أما المستبدون الشرقيون وخوفهم من العلم فأفئدتهم هواء يرتجف من صولة العلم وكان أجسامهم من بارود والعلم نار. نعم يخافون من العلم حتى من علم الناس معنى كلمة (لا اله الا الله) ولماذا كانت أفضل الذكر ولماذا بني عليها الاسلام. بني الاسلام بل وكافة الاديان على لا اله الا الله ومعنى ذلك انه لا يعبد حقًا سواه أي سوى الصانع الاعظم ومعنى العبادة التذلل والخضوع فيكون معنى لا اله الا الله (لا يستحق التذلل والخضوع شيئ غير الله) فهل والحالة هذه يناسب المستبدين ان يعلم عبيدهم ذلك ويعملوا بمقتضاه كلّا ثم كلّا.

حتى ان هذا العلم لا يناسب صغار المستبدين كخدمة الاديان الاقوياء أو الاغبياء والآباء الجهلاء والازواج الحمقاء ورؤسا كل الجمعيات الضعيفة. ولهذا ما انتشر نور التوحيد في أمة قط الا وتكسرت فيها قيود الاسر ولكن قتل الانسان ما اكفره بنعم مولاه وما أظلمه لنفسه و جنسه.

اديب اسحق

١٨٥٦ — ١٨٨٥

جمال الدين الافغاني

هوَ الحكيمُ، الخطيبُ، البالغ الحجّة النبيهُ المتوقّدُ الذكاءِ، الجريءُ الذي لا يعرفُ الخوفَ النسيب السيّد جمال الدين الحسينيّ الافغانيّ. وُلدَ بكابُل في بيت شرف وعلم وعمرهُ الانَ نحو ٥٠ عامًا وطلب العلم بالفارسيّة والعربيّة على ما جرت به عادة الامراءِ والعلماء في بلاده، فتبحّر في المنقول والمعقول، وغلبت عليه مذاهب قدماء الحكماء، فدخله في ذلك بداءة بدء شيءٌ من التصوّف فانقطع حينًا بمنزله يطلب الخلوة لكشف الطريقة وادراك الحقيقة، حتى صار لهُ في القوم كثير من الاتباع والمريدين. كلّ ذلك وهو دون العشرين سنًّا. ثمّ خرج من خلوته مستقرّ الرأي على حكم العقل، واصول الفلسفة القياسيّة. ومات عامئذٍ امير الافغان عن ولدين وهما شير علي خان ومحمد اعظم خان فاقتتلا على الولاية، فانتصر جمال الدين للثاني فقرّبه وجعله من رؤساء جنده، فشهد الحروب وحضر الوقائع فازداد جراءة واستخفافًا بالموت واقام على ذلك تسعة اعوام لا يرى الراحة ولا يستقرّ بمكان حتى دارت الدائرة على محمد اعظم خان فانصرف الاولياءُ عنه الّا جمال الدين ونفرٌ غيره من الامناء. فسار بهم الى الهند فلم يلبثوا ان اوجست حكومة الانكليز خيفةً من صاحب الترجمة فعاد الى افغنستان، ثم هاجر الى الحجاز على قصد المجاورة، فلم يلائمه ثمّ الهواء

فقصد الاستانة واقام بها مجهول المكان حتّى اهتدى اليه بعض اكابر الوزراء، فعرف قدرهُ وفضله فجعله من اعضاء مجلس المعارف العالي. ثمّ اقترح احد الامراء عليه ان يخطب في دار الفنون فاجاب وكانت خطبته في الصناعات. فانكر مشايخ العلم اشياء منها واتصل الامر بشيخ الاسلام وكان متغيّرًا على صاحب الترجمة لواقعة حالٍ جرت له في مجلسه فالتمس من الدولة ابعاده فارسلته الى الحجاز فاقام فيه مضطرًّا وكان قد عرف بالاستانة رياض باشا احد وزراء مصر واتّصل منه باسباب مودّة فقصد وادي النيل عام ١٨٧١ فاجرت له الحكومة الخديويّة رزقا كافيا على ان يكون من المدرّسين. فجرت بينه وبين بعض علماء الازهر مناظرة، افضت الى المنافرة، فانقطع الى منزله وصار له فيه حلقة تدريس يحضرها كثير من الطلبة بل من المدرّسين ثمّ صارت حلقته ملتقى للنبهاء من رجال الحكومة والوجهاء. فكان يكاشف بعضهم بارآئه الحرّة ويسلك بسائرهم طريق النجاة من الخرافة والجهل، على انه بقي مجهول الشأن عند العامّة حتى ظهرت آثاره وآثار مريديه في جريدة مصر، فاظهرت شأنه وصارت تنشر له بعض المقالات تارةً باسمه، ومرّةً تحت حجاب اسمٍ مصنوع مثل مظهر ابن وضّاح، فطار صيتهُ، وعظم نفوذه

وكان السيّد جمال الدين كثير التطلّع الى السياسة، شديد الميل الى الحريّة، قويّ الرغبة في انقاذ المصريين من الذلّ. فلمّا عظم التداخل الاجنبيّ في مصر واختلّت امورها الماليّة علم ان لا بدّ من تغيّر احوالها فرام انتهاز تلك الفرصة لجمع الكلمة على مبدأ الحريّة، فدخل الماسونيّة وتقدّم فيها حتى صار من الرؤساء ثمّ انشأ محفلاً وطنيًّا تابعًا للشرق الفرنسويّ ودعا مريديه من العلماء والوجهاء اليه، فصار اعضاؤه نحوًا من ثلاثمائة عدًّا وعظم اقبال الناس عليه حتّى ان توفيق باشا ولي العهد حينئذٍ طلب الدخول فيه وكان صاحب الترجمة شديد الكراهة لدولة الانكليز

*

جهر بذلك غير مرة، ونشر في جريدة مصر فصولاً ناطقةً به خصوصًا بعد اعتداء الانكليز على ابناء ابيه، فهاجوا عليها وترجمتها جرائد لوندرة، واهتموا بها كثيرًا حتّى ان المستر غلادستون تولّى بنفسه امر الجدال في موضوعها فلمّا عظم شأن محفله داخل الخوف منه قنصل انكلترة فوشى به الى الحكومة وبثّ الرقباء في المحفل، فسعوا فيه فسادًا. وفي خلال ذلك بلغت احوال مصر نهاية الارتباك، والاختلال، فظهر للسيد جمال الدين ان الخديوى اسمعيل مخلوع لا محال، فكشف الغطاء عن مقاصده السياسيّة واخذ يسعى فى انفاذ اغراضه فلقى الموسيو تريكو قنصل جنرال فرنسا ومكاتب التيمس وكلّمهما بلسان حزبٍ كبيرٍ، فهال امره بعض امراء المصريّين فقويت بذلك حجّة وشاته، ونفذت سعاية اعدائه، فامر الخديوي الجديد بنفيه اواسط شهر رمضان سنة ١٢٩٦ الموافق لشهر ستمبر سنة ١٨٧٩ فأُخذ غلسًا وقبض على ما كان في حلقته وأُرسل هو وخادمه الامين «ابو تراب» مخفورين الى السويس، ومنها الى ابو شهر «فرضة في العجم» وهو الان بحيدراباد مرفوع المكان، عالي المقام، وبقيت كتبه واوراقه في مصر، وقيل ان روجرس بك اخذها ثم أُعيدت لصاحبها.

عرفت صاحب الترجمة بمصر وكنت من مريديه وخاصّة محبّيه طول مدّة الاقامة بالمحروسة والاسكندرية، فكلامي في ترجمة حاله عن علم واختبار على انّني ملتزم فيه جانب الصدق بريءٌ من الهوى يعرف هذا كل من عرف السيّد جمال الدين والله على ما اقول وكيل.

والعهد بهذا الحكيم انه اسمر اللون، ربعة، ممتلئٌ قويّ البنية، جذّاب النظر، نافذ اللحظ، خفيف العارضين، مسترسل الشعر، بجبّة وسراويلات سوداء تنطبق على الكاحلين، وعمامة صغيرة بيضاء على زيّ علماء الاستانة. وانه عزيب عفيف النفس، قانت كثير القيام، لا ينام الاّ الغُلس الى الضحى، ولا يأكل غير مرّة واحدة في اليوم. على انه يكثر من

شرب الشاي والتدخين، وهو قويّ العارضة ميّال الى المعارضة، طويل الحجة، واسع المحفوظ نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر، ويهتك استار السرائر. ولكنه على فضله لا يسلم من حدّة المزاج. ومن عجائب ذكائه أنه تعلّم اللغة الفرنسوية او بعضها حتّى صار يقدر على الترجمة منها، ويحفظ من مفرداتها شيئًا كثيرًا في اقلّ من ثلاثة شهورٍ بلا استاذ الّا من علّمه حروف هجائها يومين. ومن غرائب فضله انه كان يتبع حركة المعارف الاوربيّة والمكتشفات العصريّة، ويلمّ بما وضع اهل العلم وما اخترعوه جديدًا حتّى كانه قرأ العلوم في بعض مدارس اوربّا العالية. ومن مدهشات احواله الدالّة على ثبات جأشه، وعفّة نفسه انّه قبض عليه لما لا نعلم من الشرّ فكان سائرًا الى الخطر سير الشجاع الى الظفر. وانه أُنزل الى البحر في السويس منفيًّا خالي الجيب فاتاه فيما يقال السيّد النقادي قنصل ايران بذلك الثغر ومعه نفرٌ من تجار العجم وقدّموا له مقدارًا من المال على سبيل الهدية او القرض الحسن فردّهُ وقال لهم: احفظوا المال فانتم اليه احوج ان الليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب.

الشرق

تمهيد

قد التزمت لهذا المطلب اسلوب التقرير، وعدلت فيه عن منهج الخطابة الشعريّة لاعتقادي بان الاسلوب الخطابيّ وان كان اسرع تأثيرًا في القلوب واحسن وقعًا في الاذان، الّا انه قد يميل بالكاتب الى جانب التخيّل الوهميّ في مكان التقرير العلمي، فيرتفع بيانه عن المدارك التي سبقت اليها الملكات الصناعيّة الحسيّة فلم تبق بها من محلّ لملكة الخيال المسماة شعرًا فيفوت الغرض من المقصود من البيان

والبلاغة وهو تقرير المعاني في الافهام، من اقرب وجوه الكلام. وجعلته اقساما متناسبة وفصولا متوالية، ارسل فيها الكلام ارسال مقرّر مبيّن، ولا اتكلفه تكلف منمّق مزيّن. فان احكام التقرير منافية لهذا التمويه الذي يسمونه بديعًا وانّما يؤخذ به عند رسم التخيّلات عسى ان يكون مغنيًا عن محاسن الحقيقة بل ربما جاء التخيّل في غنىً عنه بما يزينه من المعاني فكان وقوعه فيه كالصبغة في الوجنة الحمراء، والخضاب في اللمّة السوداء، يبعثان على الظنون، ولا يزيدان الوجه حسنًا

القسم الاول

فصل

ما هو الشرق

ليس من شأني البحث اللغويّ لاعرّف الشرق بكونه المشرق، ولا البحث الفلكي لاقول هو الجهة التي نخالها مطلعًا للشمس، وانما انظر في هذا المطلب الى التاريخ السياسيّ في البلاد المسماة شرقًا. فشأني في تعريفه ان ابيّن حدّها الطبيعي والجغرافيّ وكيف عمّها اسم الشرق مع اختلاف مواقعها، وتباين جهاتها، وتباعد اقاليمها، فاقول

لم ارَ في شيءٍ ممّا قرأت من كتب السلف الكرام، ما يشعر بورود هذا اللفظ في كلام العرب بمعناه المعروف في هذه الايّام، وانما اطلقوه بعد الاسلام — بصيغة ظرف المكان — على جانب من فتوحهم تمييزًا له عن بلاد البربر والاندلس التي دعيت مغربًا. الّا ان سكان الجانب الغربيّ من اوربا قد اطلقوه على البلاد الواقعة في جهة الشرق بالنظر اليهم فعمّ الصين، واليابان، والمغول، والهند، والعربية، وايران، وفينقية، وغيرها من اقطار اسيا. بل اتصل ببعض البلاد الاوربيّة

كالروم، والبلغار، والصرب، ثمّ توسع فيه من تَعلَّم منهم باللغات الشرقيّة، ومن بحث في الآثار القديمة، فعمّ جزائر المحيط، وافريقية، ولكنهم لم يتفقوا فيه على حدّ معيّن او تعريف معلوم. قال لاروس اللغويّ الفرنساويّ في مطلب الشرق من قاموسه الكبير ما معناه: لم ارَ من كلمةٍ اضيق سبيلاً، واوسع غايةً، واضعف تحديدًا من هذا الذي يسمونه شرقًا. وقال اصحاب الانسكلوبيذيا اي جامعة العلوم في هذا المطلب ما مفادهُ: قد اختلفت مذاهب الكتّاب في تعريف الشرق، وتنوّعت فيه اقوالهم بين التخصيص والتعميم، حتى تعذّر تعيين حدّه وتعسّر تحديد معناه. فمن موارد هذا اللفظ في اقوالهم على وجه التخصيص انهم يسمّون دولة الرومان بالقسطنطينية دولة الشرق — كما كانوا يسمّون دولة الالمان بدولة الغرب — ويكنون عن مذهب الروم في تلك العاصمة بكنيسة الشرق — كما يسمّون بيعة رومية كنيسة الغرب — ويعبّرون عن اميركا بالهند الغربية كما يصفون الهند بالشرقية — ومن موارده على وجه التعميم انهم يطلقونه على افريقية، وبلاد الاوقيانوس، وغيرهما ممّا ليس بشرقٍ بالنسبة اليهم.

وجملة الامر ان تعريف هذا اللفظ عرفيٌّ لا ينطبق على حكم علميّ، او حدٍّ جغرافيّ. والمشهور فيه انه يطلق على بلاد اسيا من دون القسم الروسيّ وعلى بلاد الروم من اوربا والقطر المصري من افريقية. وربّما اناط به الغربيون معنى الخشونة جريًا على سنن القدماء من الرومانيين في حسبان كلّ مَن خرج مسكنه عن حدود مقاطعتهم بربريًّا. بل هم في ذلك اشدّ كبرًا و ازدراءً بالناس من ابطال رومية فانّ هولاء لم يزيدوا على ان وصفوا الاجنبيّ بالبربريّة امّا اولئك فيحسبون لفظ الشرق متضمنا معناها مع اعتقاد كثير من علمائهم بان اصولهم، ولغاتهم، ومذاهبهم، وعلومهم، انّما هي مستمدّة من الشرق

على ان الاوربيّين وان اختلفت آراوهم في تعريف الشرق وتحديده، فقد اتفقوا على الاعتقاد بانحطاط الشرقيين عنهم في رتبة الوجود وتألّفوا على السعي في اذلال شأنهم، وخفض مكانهم، كما يدلّ على ذلك ما نسمع من اقوال خطبائهم، وما نقرأ من تصانيف علمائهم، وما نشهد عن اعمال زعمائهم، فهم والحالة هذه عصبةٌ على الشرقيّ من ايّ محتد وعلى ايّ مشرب كان يصرفون عنايتهم الى استخدامه واستعباده، ومحو استقلاله، وفتح بلاده، فاذا اختلفوا فعلى تقسيم الغنيمة بين الفاتحين، لا على وجوب الغارة (التمدنيّة) على القوم (المتوحشين) فان كره الشرقيّ ان يكون مصدّقًا لما يزعمون، ومقرّبًا لما يلتمسون تعيّنت عليه المدافعة عن استقلاله تحت لواءِ الاتحاد ولا يكون الاستقلال جديرًا بالصيانة الّا ان يكون مقترنًا بالحريّة ولا حريّة الا بالحقّ المعيّن، والواجب المبيّن، ولا حدّ للحقوق والواجبات، الّا بالعلم، ولا علم، الّا بالحقائق، ولا حقيقة، الّا في البحث المطلق، ولا اطلاق للمقيّدين بسلاسل الاوهام. فان تعذّر الاتحاد العموميّ بين الشرقيين، فلا اقلّ من حصوله بين الشاعرين بقرب الخطر من بقايا دولة الشرق العظيمة المعروفة بدولة العرب وما ادراك ما دولة العرب

دولة العرب

شُعلَةٌ سرت من الحجاز فأنارت الشام، والعراقين، ومصر، والمغرب، والهند، واتّصلت باطراف الفرنجة فملأتها نورًا ونارًا، فهي بنورها تستضيءُ ومن نارها تقتبس. ثمّ هبّت عليها عاصفة الفتنة، ونكباء المحنة، فلم يبق من ذلك النور غير شفق التصوّر، في أفق التذكّر: — بل آيةٌ رسمتها يد القدرة في كتاب الايّام، فتلتها السنُ العزيمة على

محفل الإقدام، فدفعت جاهليّة العرب الى الغارة على من اترفتهم النعمة من متمدّنة الارض، فسارت اسود رجالها، على طيور خيولها، تطوي الصحارى، وتقطع الفدافد، حتى نطحت بروقي عزمها شرفات الايوان ونسرت من الشرق نسر الرومان ونشرت على مصر اعلامها، وضربت في الاندلس خيامها، فلما عظمت دولتها واتّسعت ثروتها، تناوحت فيها رياح الخرافات فطفأت نور علمها فصار ضياؤها ظلامًا، وانغمست بماءِ النعيم فخمدت نار عرفها ولكن لم تكن بردًا وسلامًا: — فمن رأى العرب ممّات من الرجال يفتحون مِصر الفراعنة، وملك القياصرة، وبلاد القساطلة، وسلطنة الاكاسرة، ينكرهم اذ يراهم الوف الوف يقادون بخيط ممّا نسجت العنكبوت. ومن سمعهم يقولون لاميرهم ان رأينا فيك عوجًا قوّمناه بحدّ السيوف. يعجب من رضاهم بفساد الاحكام، وصبرهم على التواء الحكام. ومَن وقف على شروح ابن رشد، ومطالعات ابن سينا، وخواطر ابن جبر، وتقارير الغزّالي، وسمع المعرّي ينشد

رويدك قد غررت وانت غرٌّ * بصاحب حيلةٍ يعظ النساءَ
يحرّم فيكم الصهبا صباحًا * ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساءٍ * وفي حاناتها رهن الكساء
وان فعل الفتى ما عنه ينهى * فمن جهتين لا جهةٍ اساءَ

يندهش اذ يلقاهم مقتصرين من العلم على ما يجلب خيرًا، ولا يدفع ضيرًا، يعقدون مذاهبهم فيه بالاوهام، او باضغاث الاحلام، او يغيطون اسبابها بالسماء فيخطّون من حيث يريدون الاصابة، ويصيبون من حيث لا يعلمون. وينذهل اذ يجدهم راضين عن الكسلة المتراهبين، والجَهَلة المتجاذبين، يقبّلون منهم اكفًّا لا تعرف الطهارة، ويستحلبون

منهم ابدانًا انفت منها الستارة، حتى صار الكسل عندهم من المعايش، والخمول من المفاخر، والجهل من الملاجئ، والذهول من الكرامات، كأن لم يبق فيهم من عالم عامل يبدّد الاوهام، ويبدي الحقيقة للافهام، وكأن لم يكن بينهم من عابد فاضل يدفع البدع الشنيعة، ويجلو حقيقة الشريعة، وكأن لم يقم فيهم من شجاع نبيهٍ يسعى في ضمّ العصبة ولم الشمل، وجمع الكلمة، على اقامة امر العدل: — . . .

كلّا واللّه ثمّ كلّا: انّهم لا يعدمون عالماً ناصحًا، و لا نزيهًا صادقًا، و لا نبيهًا همامًا، وانّما اولئك نفرٌ يمنعهم الخوف من الإقدام، ويردعهم اليأس من الاهتمام: —

ولكن لا خوف يا قوم ولا بأس: — وكيف تخافون ومنكم القائل لا يبعد من رزقٍ ولا يقرّب من أجلٍ ان يقول المرءُ حقًا وكيف تيأسون وتاريخ ابائكم يقرّب الآمال... الستم في الارض التي أقلتهم، وتحت السماء التي أظلّتهم، او ليس ماؤكم هو الذي وَرِدوه، وهواؤكم هو الذي انتشقوه، فما بالكم تعجزون عما استطاعوه أشاخت الارض فصار ما تنبت ضئيلًا، لا يستطيع الى النموّ سبيلاً... والّا فما للحجاز محجوز الانوار، وما للشام مشؤوم الاحوال، وما لمصر مقرونة الطالع بالعسر، وما للعراق مؤذن العز بالفراق، وما لحلب متوالية النوب، وما لليمن فاقد اليُمن، و ما لتونس عديمة الأُنس، ما الغرب منهمل الغرب: — الم يكن في كل هذه الاقطار نفرٌ من اولى العزم تبعثهم الغيرة والحميّة، على جمع الكلمة العربيّة، فيتلافون احوالها قبل التلاف متظاهرين، متوازرين، كالبناء المرصوص او كصخورٍ تلاحمت فصار ركامها جبلًا حصينًا لا تؤثر فيه العواصف ولا تضعضعه الزلازل

بل ما ضرّ زعماء هذه الامّة لو سارت بينهم الرسائل بتعيين الوسائل ثم حشدوا الى مكان يتذاكرون فيه ويتحاورون، ثم ينادون باصواتٍ

متّفقة المقاصد كأنها من فم واحد: قد جاءَت الراجفة تتبعها الرادفة، وهبّت الحاصبة، تليها العاصفة فذرت حقوقنا فصارت هباءً منثورًا، والمّت بنا القارعة، ووقعت الواقعة، فصرنا كأن لم نغن بالامس ولم نكن شيئًا مذكورًا، فهلمّ ننشد الضالّة، ونطلب المنهوب، لا تقوم في ذلك بامر فئةٍ دون فئةٍ، ولا نتعصّب لمذهبٍ دون مذهب فنحن في الوطن اخوانٌ تجمعنا جامعة اللسان، فكلّنا وان تعدّدت الافراد انسان . . .

ايحسبون انّ ذلك الصوت لا يكون له من صدى، ام يخافون ان يذهب ذلك الاجتهاد سدى، ام لا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع منزّها عن المقاصد الدينية، منحصرًا في العصبة الجنسيّة، والوطنيّة، مؤلّفًا من اكثر النحل العربيّة يزلزل الدنيا اضطرابًا، ويستميل الدول جذبًا وارهابًا، فتعود للعرب الضالّة التي ينشدون، والحقوق التي يطلبون، ولا خوف على زعمائهم ولا هم يحزنون .

مختارات مصر القاهرة التي انشأها
في باريس عام ١٨٨٠

السعادة بعد الشهادة

الحمد للّٰه وحده: هذه صحيفة مصر. طواها الاستبداد فماتت شهيدة، ثم احيتها الحرّية فعاشت سعيدة، ترسل الى المريدين والاولياء، ونبهاء القراء، منهيةً اليهم: ان قد اتاني اللّٰه نعمة الحريّة، ومن أوفى هذه النعمة فقد أوفى شيئًا كثيرًا، ولسوف ترون مني رواية الصادق، في رأى الامل، في عزم الآيس

حاول احدهم في مصر اطفاء نوري وأبى اللّه الّا ان يتمّ نوره وان كره الظالمون. اماتني بدعوى الحرص على الخواطر ان أثيرها الى الفتنة، بل خاف ان اكشف الحجاب عن حقيقة احواله فزعم اني ناصبته الشرّ نفرة منه، وتشيّعا لسواه، وما انا في شيءٍ من ذلك فانيّ اعز نفسا، وانبل قصدًا، من ان تستميلني الاشخاص وانما اميل مع المقاصد، فما كان منها ملائمًا للمشرب الذي احسبه حقًّا

فذلك من دون المشارب مشربي * وذلك ما بين المذاهب مذهبي
وما كان مغائرًا للمبدأ الذي اراه عدلا
رميتُ به من حالق رمي حانقٍ * متى يرْمِ لم يخطئ وان يبغ يدأب

اوروبا والشرق

قضى على الشرق جهل عامّته، واستبداد خاصّته، وخيانة زعمائه، وتعصّب رؤسائه، ان يهبط بعد الارتفاع، ويذلّ بعد الامتناع، ويكون هدفًا لسهام المطامع والمطالب، تعبث به ايدي الاجانب من كل جانب، فمنهم من يغير عليه بحجّة الغيرة على الانسانية ومنهم من يتطرّق اليه بدعوى اقامة امر المدنيّة، ولم نرَ منهم من صدق في دعواه، بل كلهم تابعٌ في ذلك قصده وهواه.

فقد استولت انكلترة على الهند، والافغان، وجنوبي افريقية، وقبرص، وتدخلت في شؤون تركية اوروبا، ومصر، وسوريّة، ومراكش، وزنجبار، والبرمان، بحجة الانسانية، ودعوى المدنية، ولم تؤيد في جميع تلك البلاد غير الخشونة والاستبداد، استبقاءً لاهلها على حال

يسهل معها اخذ اوطانهم واستخدام ابدانهم، بما فطرت عليه من الاثرة تحملها على كراهية الفضل الا لبنيها، وبغض السعادة الا لذويها، بل بما تقرَّر في اذهان اهلها من ان الخارج عن جزائرها الثلاث، منحطٌّ عن درجة الانسانيّة، لم يوجد الا لخدمة الذين القتهم الطبيعة لخشونة طباعهم على صخور منقطعة عن اليابسة، محرومة من الطيّبات محجوبة الشمس والنجوم، مستمرّة الضباب والغيوم

وفتحت الروسية القريم، ودغستان، وارمينية، وسجستان، وخيوى، وخوقند، وتركستان، وسمرقند، واغارت على الدولة العثمانية فانتزعت منها معظم بلادها الاسيويّة، وفصلت عنها الصرب، والمملكتين، والجبل الاسود، والبلغار، وجعلت الرومل شركا لفتنة تثيرها، وأربٍ تناله ثمَّ القت على جميع ذلك حجاب حسن النيّة، وموهته بالغيرة الدينيَّة والقيام بامر الضعيف، ورفع منار المدنيّة. ولو صدقت في شيءٍ مما تدعيه، لرأينا بوادر هذه المآثر في بلادها، ولما رأينا ولىّ عهد دولتها يطلب من ابيه الاصلاح، واهل ندوتها يسألونه فتح ابواب النجاح، وقادة الجند، يدعون لحكومته الشوريّة، وعامة الرعيَّة، يرومون رفع لواء الحريّة، واهل الثورة يخرجون عن الطاعة، ويشقّون عصا الجماعة، والقيصر غير مبالٍ بجميع ذلك، ينفر من الشورى حرصًا على الاستبداد، وينبذ الحريّة صيانة للاستعباد، حتّى قيل انه الى التنازل عن الملك اقرب منه الى الرأى برأي ولىّ العهد. بل جاءَ بالتلغراف انه قد استشاط غيظًا من تجرّؤ ابنه على التماس الشورى فامر به ان يسجن ولو لا ان شفعت فيه والدته لكان في جملة اهل الحبوس.

على ان الروسيّة وان كانت مستبدّة الدولة، مطلقة الاحكام، منحرفةً عن سبيل المساواة، الا انها ادنى الى الرحمة والعدل، والرفق والفضل، من دولة الانكليز التي لا تبقي على حياة الخاضعين لها الا

للانتفاع بخدمتهم فهي كالجزّار لا يطعم الضأن الا ليذبحه سمينًا، ثم يجعل من جلده سوطًا يسوق به الانعام. على مثل ذلك طبعت حكومة الانكليز وعلى مثله نراها في الهند فقد جعلت امراءَها غلمانًا، واتخذت نبهاءَها عبدانًا واستخدمت عامتها فيلةً وبعرانًا. وعلى مثل هذا سيراها المصريون ان رضوا بالمستبد... وزيرًا يقول ليس في هذا القطر مَن يفقه الخطاب، ويحسن الجواب، او يميّز بين الخطاء والصواب، ويستقدم الاجانب، لاعظم المناصب، وينظم الاوامر، ناطقة بانقضاء الصولة، وامحاءَ الدولة، ويشعوذُ على الامير، ويشدّ على الوطنيين النكير، ويلغي الجرائد الناطقة بالصدق، الذائدة عن الحق، ويقرب اهل الرياء والمراء، ويقصي ذوي الاستقامة، والشهامة

اما سائر الدول فانها اقلُّ من تلك الدولة شرًّا، واكثر منها رفقًا وبرًّا، تعامل الخاضعين لها بالتي هي احسن حتى يكادون يحمدون وفادتها، ويشكرون ولايتها، لو لا العلم بان الاستقلال حياة الامم، فاذا فقدته فقد صار وجودها المعنويّ في جانب العدم.

فاذا لم ينتبه الشرقيّون من غفلتهم، ولم ينبذوا عنهم التقاليد الموجبة لتفريق كلمتهم، ولم يغذوا البابَ صغارهم بغذاء الحريّة ولم يرسموا على الواح صدورهم رسم الوطنيّة، ولم يعرضوا عن وعيد الخائنين، ولم يقوموا بامر السراة الصادقين، ولم يغضبوا لوطنهم ان يُغصب، ولمالهم ان ينهب، ولحقّهم ان يُسلب، ولمجدهم ان يذهب، فما يلبثون ان يصيروا عبيد اعدائهم، واسراء نزلائهم، لا نرى فيهم بعد حين غير البوّاب يرفع الستارة، ويسدل الحجاب، والفرّاش يضع الوسادة، ويمهد الفراش، والكنّاس يزيل الغبار والارجاس، والسائل، يطلب الصدقة بالدمع السائل، امّا الامراء فيحقرون وامّا الاغنياء فيفتقرون، وامّا النبهاء فيهجرون

افليس الموت، خيرًا من هذا الفوت؟ ايليق بذي الدم الشرقي ان يصبر على هذا العسف؟ ام يحسن بذي النفس الذكيَّة ان يرضى بهذا الخسف؟ ام لا يعلم قومنا انه

لا يسلم الشرفُ الرفيعُ من الاذى ✻ حتى يراق على جوانبه الدم.

نجيب الحداد

١٨٦٧ — ١٨٩٩

كيف يكون الاستقلال

لا يكون استقلال البلاد بان يحكمها ابناؤها ولا بان يخرج المحتلون منها ولا بان يتنعم اهلها بالتمدن الحاضر ولا ان يلبسوا الزي الحديث ولا ان يتناولوا اطراف اللغات الاوربية في اثناء الحديث فان ذلك هو التقليد بعينه والاستعباد بحرفه والخضوع الادبي الذى هو حقيقة الخضوع ومقدمة لسائر انواع الرق والاستعباد وانما الاستقلال الحقيقي الذي تطمع فيه كل امة شرقية وينبغي ان تقتدي فيه بكل امة غربية هو ان تستغني ببلادها عن بلاد سواها وبصنوعات سكانها عن مصنوعات الاجانب عنها وبضروريات معاشها على الاقل عن جلب هذه الضروريات من غيرها حتى لا يكون الرجل منا اجنبي الظاهر في جميع حالاته بين ثيابه واثاثه وادواته. ولا يظن القوم ان احتلال بعض العساكر للبلاد وتولي بعض الموظفين الاجانب لمناصب الوطن ورئاسة بعض كبار الغرباء على بعض كبار المصالح هو الذل والاستعباد وان خروج العساكر وعزل الموظفين وخلع العمال هو الاستقلال الذي نريده والغاية التي نسعى اليها بل ان ذل البلاد وسكانها هو ان ترى لباسها ومساكنها وطرقاتها وانوارها وادواتها واثاثها وبلاط شوارعها وانية طعامها وشرابها كلها من بلاد الاجانب وصنع الغرباء. هذا هو الاستعباد والذل وذهاب الحرية

وتقييد الشعب بالقيد الثقيل الذي لا يضاهيه احتلال ولا يزيله اجلاء. ما الفائدة من خروج الانكليز عنا وعزل الغرباء من مناصبنا وابعاد الاوربيين عن قطرنا ونحن لا نقدر ان نسير خطوة ولا ننير شمعة ولا نلبس ثوبًا ولا نمشي في طريق الا على اعمالهم ومن فضلات بضائعهم وسلعهم التي ياخذون بها اموالنا قناطير مقنطرة ويشترون بها محصولاتنا بالثمن البخس ليردوها الينا بالثمن الغالي جزاء اشتغالهم واجتهادهم واجرة فوزهم علينا وسبقهم لنا في كل فن ومطلب. ألم يكن الاولى بالطامعين في الاستقلال من غير بابه وهم من انصار الوهم واشياع التصور الباطل ان يقصروا خطبهم الرنانة ومقالاتهم الطويلة العريضة واقلامهم السيالة الماضية الى استقلال البلاد الادبى اولًا وجعلها في غنى عن سواها من بلاد الاجانب الغرباء بدلًا من سعيهم الذاهب هدرًا في اخراج الانكليز من مصر والذي ينبغي ان يكون بعد الاستقلال الاول وتمام الغنى الاستغناء. فاذا اخرج الانكليز من بلادنا واخلوا ديارنا لنا وجعلنا العمال والجنود والقواد منا فهل نقدر ان نخرج مصنوعات اوربا من بيننا وهل نقدر ان نستغنى عن زر صغير نصنعه في معاملنا وهل نقدر ان نعود على انفسنا ببعض المال الذاهب من ايدينا الى ايدي سوانا وهل نجد في قطرنا معملًا صغيرًا يسد حاجة صغيرة من صغار حاجاتنا الضرورية فضلًا عن الكمالية. أليس كل هذا الاحتياج منا لاوربا يعد احتلالًا عامًا من اوربا علينا لا نجد الاحتلال الانكليزى الحقيقي في جنبه الا قطرة من بحر ونقطة من قطر. اذن فما الفائدة من جلاء القوم عنا واوربا كلها تحتلنا وماذا يهم الشعب الاعظم من امر الاحتلال الذي لا يهم الا افرادًا سياسيين وهو يرى بلاده خالية خاوية لا صناعة فيها ولا معمل لها ولا شركة صناعية من ابنائها ولا شيء مفيد من معدات الاجانب الذين نقتدي بهم وناخذ عنهم يشتغل به عاملنا الصغير وياخذ منه حاجته تاجرنا الغني الكبير

هيهات ليس الاستقلال في حكم البلاد فقد كانت مستقلة من قبل لم يغنها الاستقلال فتيلا ولا باحتلال الانكليز فقد كانت خالية منهم من بضع عشرة سنة ثم لم يزدها الاحتلال انحطاطًا ولا تدميرًا ولا يجعل المناصب في ايدي الوطنيين ولا بقولنا كل يوم او قول البعض منا ان مصر قد بلغت حد الكفاءة ووصلت الى نهاية القدرة والعلم واصبح ابناؤها قادرين بانفسهم على الاحكام فان الامر الآن ليس بتولي الاحكام ولا حرية البلاد ولا ذهاب الاوربيين ولا خلاء الديار عن العساكر المحتلين بل الامر المهم والاستقلال الخطير الذي يسمى استقلالًا ويعد حرية وانطلاقًا هو ان تستغني بلادنا عن بلاد سوانا وتكتفي باعمال رجالها عن رجال غيرها وتصون اموال ابنائها فى ايدي ابنائها ولا تضطر اذا منعت اوربا مواردها عنها ان تبيت منازلها بلا قشة ثقاب لايقاد انوارها وسكانها بلا ثوب ولا قميص لستر اجسادها وكتابها بلا مداد ولا ورق لتسطير افكارها وطباعة جرائدها المنادية بالحرية وطلب الاستقلال.

أيحسب بعض القوم اذا قال ان مصر اصبحت كفوءًا لنفسها وابنائها اهل لاحكامها ان اوربا تصدقهم في ذلك الحديث وهى ترى بضائع بلادها جميعًا من الدقيق الى الجليل ترد الى مصر تباعًا تكذب كل سلعة منها كل مقالة من تلك المقالات وتبهت كل قطعة من قطعها كل من قال ان مصر قد اصبحت فى ذروة المدنية وقمة الكمال. بل لو ناقشتنا اوربا الحساب وقالت تعالوا الى موقف سواءً بيني وبينكم انتم يا من تريدون التشبه بي وتطلبون الاستقلال نظيري اين جمعيات العلم عندكم واين مجالس التجارة والصناعة واين المعامل واين المشروعات واين الاختراعات واين الشيء الصغير الذي تقدرون ان تستغنوا به عني ليكون لكم الحق بان تكونوا مثلي الا اذا اكتفيتم ببضائع بلادكم الحاضرة وعدتم الى مثل ما كنتم عليه من مئات سنين او الى مثل ما نرى عليه زارعكم الان

في غيطه بين قميصه و. . . ابمثل هذه الحالة تطلبون الاستقلال وعلى مثل هذا الذل تطيب لكم حرية وانفراد بعيشك؟ ما ذا يحيب رجالنا وما ذا يقول افاضلنا وكيف ينطق اغنياؤنا وكبارنا لدى هذه المسائل الصغيرة الكبيرة الا ان تطرق وجوههم خجلًا وتنكس ابصارهم حياءً ومذلة ويقولون من ليست كل ملابسه من صنعك يا اوربا فليجبك اولاً بحرف.

اذن فليست هذه مقدمات الاستقلال ولا من هذا السبيل نصل الى الكفاءة وحرية الاحكام ولا نحن في حاجة اليوم الى اقوال الوادن في الدولة العثمانية والامة الاسلامية ولا الى خطب الآخر في الحالة الافريقية والمسألة المصرية الاستعمارية فان ذلك شأن نهتم به متى قدرنا ان نستغني عن سواه مما هو اهم منه والزم بل نحن في حاجة الى ايدٍ عاملة واموال مباحة وانفس سخية وهم عالية تصرف كلها في اقامة المعامل وتجديد المعالم وفتح المدارس وانشاء المصانع وتشييد المناسج وترويج الاختراعات والبضائع الوطنية واغناءِ البلاد بصنع ابنائها عن مصنوعات سواها حتى اذا انقطع عنا وارد اوربا ولو يومًا واحدًا لا نبيت بلا سراج ولا نمشي بلا حذاء ولا ثياب. ومتى اجتمعت تلك الايدي وفتحت تلك الموارد والارزاق وجرت الاعمال والمعامل وقام الغني بالواجب على مالهِ من اقامة تلك المشروعات وقام الفقير بواجب حاجته من الشغل والاختراع فقل قد اصبحنا شعبًا مستقلا وامة منفردة غنية واقبل الاستقلال المدني يطلبنا من نفسه كما يطلب الماء انحداره والا فانا اذا بقينا على حالنا نطالب الخلاص من الاحتلال الانكليزي وحده ونترك الاحتلال الادبي الصناعي نازلاً علينا وعلى اموالنا فما ابعد ما نطمع بالاستقلال وما اضيع ما نسعى الى الحرية والانطلاق وما اطول حبس الاسير اذا فك قيدًا واحدًا وبقيت عليه اغلال وقيود وما اتعب سعي الساعين في جلب الهداية بغير نور ولا دليل والله يهدي من شاء الى سواءِ السبيل.

*

انكم تخدمون الانكليز

ا

هذه عبارة نسوقها اليكم يا ارباب الصحائف و يا حملة الاقلام ويا دعاة الكتابة والانشاء فقد بدأَ امركم بالمناظرة الادبية في جرائدكم ثم تدرجتم الى المناظرة الشخصية ثم صرتم الى الهجو والسباب وها انتم الآن في الطعن الديني والتعريض المذهبي وقد اغتنمتم ما لديكم من اسباب الحرية وارخاءِ العنان وسكوت اولي الاحكام (وما هم الا رجال الاحتلال) فقمتم تعرضون بالمذاهب وتطعنون في الدين وتلعنون الملة وتثيرون الجنس على الجنس وتوغرون صدر المذهب على المذهب بعبارات سافلة واقوال بذيئة وكلام تعصب وجهل لا يصدر عن حامل معول فضلاً عن حامل قلم حتى صرنا نخشى ان يكون لكلامكم تاثير في النفوس ووقع شديد في القلوب وان تثور الثورة بين الاديان من عقلاءِ القوم وقرائهم وجماعة المطالعين بينهم لا من الرعاع او الجهلة الذين يخشى ذلك منهم وقد انعكست الاية وساء المصير. وما ندري ما القصد من هذا التعصب وما الفائدة التي ترجونها من زرع الشقاق والنفور بين الاحزاب والاجناس واي دخل للدين بين جريدتين تتناظران او كاتبين يتناقشان ويتحاوران. الا تدرون انكم بذلك تخدمون الانكليز وانتم لا تشعرون. الا تعلمون ان المحتلين لم يفسحوا لكم هذه الحرية في جرائدكم الا لكي تصلوا الى هذا الحد المهيج وتجعلوا لهم به سببًا للبقاء بينكم او اطالة الاحتلال عليكم. أتامنون من ثورة دينية تثور غدا بين الاجانب والوطنيين تنسفك فيها الدماءُ هدرًا وترجع على البلاد بالذل والهوان وشدة التضييق وضغط الاحتلال ونصبح نادمين على ما كان في ايدينا وقد اضعناه بعوامل الجهالة والغرور ام تأمنون ان تتخذ انكلترا هذه الاقوال

منكم غدًا بمثابة روح تعصب وشقاق في البلاد وتزيد جندها علينا اضعافًا نقوم بنفقاتهم ونحمل احتلالهم ثم تدعى علينا لدى اوربا اننا قوم لا نزال في جهل وانحطاط وانها تخشى ان تترك البلاد بين ايدينا بل تخشى ان لا تزيد عساكرها علينا ويكون لها من ذلك حجة طويلة الاذيال يطول معها اجل الاحتلال الى ما شاء الله. الا تدرون ان الدولة التي اقامت محكمة مخصوصة في البلاد لاجل ضابط من رجالها ضربه رعاع او جندي بسيط من جندها اعتدى عليه بعض الجهال لا تلبث غدًا ان تقيم محكمة عسكرية لاجل قوم هم ارباب اليراع ودعاة الاصلاح والمنادون بالمساواة والاخاء والعدالة والنظام ويكون داؤنا من حيث نرجو الدواء والجاني علينا من نرجو منه دفع الجناية ونشر الانصاف.

ثم نعود فنقول اي دخل للدين بينكم يا ارباب الادب و يا كتاب الجرائد واية شريعة ادبية او دينية او سياسية او هجية تبيح لكم ان يشتم بعضكم دين بعض جهرًا صراحًا في جرائد سيارة بكلام لو قاله ادنى السفلة في ادنى الحارات لعاقبه عليه القانون بما هو اهله من العقاب فكيف اذا كان منكم وانتم تدعون النزاهة والادب وعلم الصحافة والبيان تحسبون ان تفريق الاجناس في بلادكم يعد خدمة لها وانتم ترونها تحت نير الاجناس وحكم الاجانب الغرباء. اتظنون ان ذلك يقرب حريتكم ويظهر اهليتكم وعلى المحتلين عنكم فيقولوا امنت البلاد وتمدن سكانها واستراح قاطنها ونازلها وسادت النزاهة والاخاء بين سكانها فحان لنا ان نرحل عنها ونتركها لابنائها يحكمون كما يشاؤون . . .

يا قوم ليست هذه خدمة لنا ولبلادنا ولا بامثالها نرجو حريتنا واستقلالنا بل هي خدمة لمن تريدون جلاءهم يشكرونكم عليها كل يوم يطول فيه اجل احتلالهم بسببها وليس شكرانهم لكم الا السكوت عنكم وفتح ابواب القول امامكم وتركككم في طغيانكم تعمهون. اذن فانتم تخدمون المحتلين ولا

تعلمون وتجنون الضرر من حيث ترجون النفع وتضيقون القيد على اعناقكم من حيث تؤَملون الفرج والانطلاق و هي خطة لا يريدها عاقل لنفسه ولا يسعى اليها لبيب على قدمه بل لقد كنا نظن انكم لو دفعتم اليها بيد من حديد لرجعتم عنها باقدام من مثلها ولو كان فيها خولكم وانحطاطكم والخمول عن عقل خير من النباهة عن غرور وجهل فاتقوا اللّٰه في عباده انكم تفسدون اخلاقهم وتوغرون صدورهم بالجهالة واتقوا اللّٰه في بلادكم انكم تشدون وثاقها وتطيلون اجل رقها واستعبادها وهي ترجو منكم الغوث والمدد واتقوا اللّٰه في انفسكم انكم تجنون عليها وهي منكم ولا تكونوا اعداء لها باعمالكم وغروركم فان الجاهل عدوّ نفسه.

وغاية رجائنا من عقلاءِ القراءِ — اذا خاب رجاؤنا من عقلاء الكتاب — ان لا تؤثر فيهم هذه الاقوال الصبيانية والكلمات الفاسدة التعصبية وان يقابلوها بالعقل وان كانت صادرة عن غير عقل ويطرحوها وراءَ الظهور وان كانت خارجة عن خبايا الصدور فانما هي تخرج من صدور فاسدة لتطفئها اكف صالحة وقد يهدم العقل ما شيد الجهل.

انكم تخدمون الانكليز

٣

تقدم لنا من مدة تحت هذا العنوان مقالة طويلة اظهرنا فيها ما يبديه بعض الرجال من خدمة الانكليز جهلًا واغترارًا وهم يحسبون انهم يقصدون العكس من ذلك ايام الفتنة التي قام بها بعض الرعاع على العساكر الانكليزية فرجموها بالحجارة واستوجبوا من اجلها عقابًا كان من فوق الذنب وقانونًا جديدًا كانت البلاد في غنى عنهُ مما لا يزال في علم الكثيرين من القراء ويسوءُنا ان تدعونا ظروف الاحوال اليوم الى معاودة هذا

العنوان لحادثة اخرى مثل التي سبقت لم يقم بها رعاع القوم ولا بدأً بها سفلة الناس ورعاع العامة بل كان صدورها لسوء الحظ عن معدن العلم ومصدر الادب ومجتمع العرفان ومنتدى الطلبه والمدرسين الا وهو الجامع الازهر الذي تفتخر به مصر بل الامة العربية باسرها وتعده من اقدم مآثرها واجل اثارها في انديه المعارف والاداب.

وليس من غرضنا في هذه المقالة ان نبين وجه الحق واللوم في هذه الحادثة المكدرة ولا الى من يرجع فيها القصاص وتبعة العقاب ولكنا نوجه انظار القراء من اخواننا الوطنيين الا ان الانكليز نزلوا البلاد المصريه محتلين بغية في الاصلاح وادعاءً بتسوية الامور وتثقيف الجمهور وجعل القطر قادرًا بابنائه على حكم نفسه والاستغناء بهم عن سواهم من نزلائه ومحتليه. وسواءً صدق الانكليز في دعواهم هذه ام لم يصدقوا فانما هو قول قالوه ووعد تقدم لهم وقد وجب علينا ان نتبعهم فيه وننتظر وفاءَهم عليه ونساعد انفسنا بانفسنا على اقناعهم باعمامه واستكماله.

ولقد وجدنا اكثر رجالنا واصحاب جرائدنا ينزعون الى هذا القول كل يوم ويذكرون به الانكليز في كل مقالة وجريدة ويحاولون ان يقنعوا اوربا بان هذا الوعد قديم وان الاصلاح والسكينة والهدو قد اصبحت كلها اليوم احسن واوثق مما كانت عليه من قبل الاحتلال.

ولقد آنس الانكليز من ابنائنا هذه النية وعرفوا منهم خفايا تلك الضمائر والاقوال ورأوا انفسهم قد احتلوا مصر بقعة مخصبة وغنيمة باردة لا يروق لهم تركها ولا يرضون بوفاء وعودهم فيها ولو كانت تلك الوعود على راس البنان وطرف الثمام فاحبوا ان يفتحوا للرعية المصرية ابواب شقاق ونفور ويمهدوا لهم آثار عصيان واضطراب يكون لهم حجة على البقاءِ وعذرًا دائمًا في طول الاحتلال فاطلقوا للاهالي عنان الحرية بما لم تتعوده مصر من قبل في زمن من الازمان ونظموا لهم المحاكم ونادوا بينهم

بالمساواة واوقفوا الامير في موقف الصعلوك والحاكم في رتبة المحكوم لدى عدل القضاء والقانون وهم لا يريدون بذلك نفع مصر ولا يبغون تسكين البلاد تمامًا كما هو الظاهر من نتائج اعمالهم الى الان لانهم عرفوا ان مصر اذا أُعطيت لها الحرية ونشرت بين ابنائها المساواة والعدالة وهب لم تتهيأ لهذه الدرجة بعد بما قبلها من مقدمات العرفان وانتشار العلوم والاداب افضى ذلك ولا شك الى استعمال الحرية في غير مكانها واستخدام تلك المساواة في سوى زمانها ومكانها وكانت كل هذه الاصلاحات في يد مصر وهي لم تتدرج اليها بعد اشبه بالسيف القاطع في يد الغلام الصغير لا بد ان يلوح به احيانًا فيجرح بعض من حوله ويحسب له ذلك ذنبًا وليس الذنب فيه لهُ بل للذى وضع في يده ذلك الحسام.

وعلى هذا المبدإ من اطلاق الحرية والاستقلال قامت بعض جرائدنا تذم الانكليز وتطعن فيهم ما شاءت وشاءَ التعصب او الغايات و تزرع كرههم وبغضاءهم في نفوس العامة البسطاء حتى توهم القوم ان كره المحتلين اصبح دينًا ومعاكستهم عين الوطنية وضربهم اذا امكن هو عين الجهاد والاجر وعصيانهم هو الطاعة والهدى والبر واصبحنا نرى في هذه الايام التي زعم الانكليز انها ايام العدالة والاصلاح والحرية ما هو شر من الظلم والدمار والتقييد بل لقد فضلنا العصر القديم بظلمه واستبداده على هذا العصر بحريته وعدالته التي هي في غير مكانها وقد اصبحت كلها ضررًا وشؤمًا على البلاد

وليس البرهان على ذلك بصعب ولا الشاهد له ببعيد وهذه مصر حديثة العهد بالاحتلال والاستقلال فليقل لنا واحد متى كان يثور الاهالى على الحكومة في عهد اسماعيل واوائل عهد توفيق ومتى رأينا السكان يعارضون الحكام في شؤون الصحة وامور الوقاية ولاسيما في ايام الوباء وانتشار الامراض ومتى كان محافظ العاصمة المسلم الوطني

يذهب الى جامع مثل الجامع الازهر العظيم فيلاقي فيه ما لقيه هذه المرة من الاهانة والرجم الشديد ومتى كان المصري يخرج اطباء الحكومة من منزله بالقوة بعد ان يوسعهم ضربًا وشتمًا ويدفن ميته في النعش الذي يريده كما يشاء ومتى كانت العاصمة والاسكندرية ملعب مضاربات وميدان عصيان ومشاجرات الا في هذه الايام ايام الحرية والانطلاق والعدالة والمساواة بل ايام الجرائد الوطنية والتحزبات والتشيعات والميل لفلان والكره لفلان وبث سموم المفاسد والغايات في قلوب سليمة لم تتعود هذا البذار من قبل ولم يكن لها به عهد قبل الآن.

ولقد زعم البعض ان الانكليز في جريهم على هذه السياسة المستقيمة في ذاتها والعوجاء في مكانها وزمانها يحسنون صنعًا في اعمالهم وانهم يستميلون اليهم المصريين ويجعلونهم راضين عنهم تابعين لاحكامهم مادحين لاحتلالهم وانهم بذلك يطيلون اجل الاحتلال الى ما شاء الله وقد فاتهم ان المحتلين لم يتبعوا هذه السياسة الحليمة الساكنة المتغاضية الا توريطًا للسكان وتغريرًا بالرعية في مهاوي العصيان والنفار الذي يكون منه طول ذلك الاحتلال ودوام تأييده لا من رضى المصريين ولا من استمالتهم اليهم لانهم لم يحتلوا البلاد برضاهم ولن يكون خروجهم منها كذلك. وقد وصل الانكليز اليوم الى الغاية التي سعوا اليها واخذوا يجنون من اعمالنا وتهورنا في معاداتهم ومعاكستهم ما كانوا يرجون من نمار الاعذار لدى اوربا في طول نزولهم علينا ومكثهم بين اظهرنا واصبحوا يقولون للدول تعالي فانظري يا من تريدين اخراجنا من مصر واعلمي كيف يقابلنا سكان مصر في شؤون صحتهم ووقاية انفسهم وكيف يعارضون حكومتنا في حياطتهم وتطهير منازلهم من ادران الوباء القتال بل كيف يستقبلنا رجال الازهر انفسهم وهم ابناءُ العلم وطلبة الآداب والمعارف من رجم الحجارة والشتم الوبيل وكيف يضطروننا الى اطلاق

الرصاص عليهم ودفع الشر بالشر معهم واحكمي بعد ذلك يا اوربا هل نقدر ان نخرج من مصر وهل نأمن على ارواح الناس فيها من طائلة الوباء فقط ان لم نقل من سواه.

لعمرك اليس ذلك حجة دامغة تقوم بها انكلترا لدى الدول او ليس العمل الذي يقوم به بعض اخواننا الوطنيين في الاسكندرية ومصر هو عين الخدمة للانكليز في مآربهم وعين المضرة والوبال على البلاد التي يحبونها ويريدون انقاذها من القيد والاحتلال. افلم يكن الاولى بالجرائد التي تثير هذه النار وتزرع هذا الشقاق والعصيان من كف خفي وهي تزعم انها تحب الاوطان وتغار عليها ان تعدل عن هذه الخطة العوجاء التي لم نجن منها غير العوج والضلال ولم تكن نتيجتها على السكان الا شقاقا وعصياناً تزيد به مسافة الاحتلال ويثقل به نير الاجانب على الامة والبلاد. واذا قضت بذلك غايات الجرائد ولم يكن من نفاذ مآربها او اخذ اجرتها من محيص افلا يكون من باب العقل والحكمة لمواطنينا المتمدنين الادباء ان يقفوا من اقوالها على حد القراءة فقط وان يرجعوا بعد ذلك الى انفسهم ويعلموا انهم لم يتبعوا تلك الاقوال الى اليوم الا عادت عليهم بالفشل والخذلان. تلك نصيحة خالصة نعرضها من قلوب مخلصة الى من يخدمون بافعالهم الانكليز ونريهم بالبرهان ان خدمتهم كانت عليهم لا لهم لم يستفيدوا منها شيئًا ولا افادوا بها الوطن العزيز.

سليمان البستاني

١٨٥٦ — ١٩٢٥

الدستور والمهاجرة

المهاجرة مهاجرتان: الجلاء أو هجرة السكان للبلاد وعليه مدار كلامنا الآن. والاستيطان أو وفود الاجانب اليها للاقامة بها وسنبسط البحث فيه بفصل آخر

ليس في بقاع الارض بقعة أخصب تربةً وأصفى جوًّا وأجود ماءً وأنقى هواءً من معظم اجزاء السلطنة العثمانية ولهذا كانت منذ القدم مطمع الرواد ومحط الرحال. فما بالها انقلبت حالها وقلت رجالها وعافها الغريب وفرّ أبناؤها مغتربين الى اقصى الديار

لا شك ان الحروب واختلال الامن وتخاذل أبناء البلاد وظلم الحكام وجشع جباة الاموال وانتشار الاوبئة كل ذلك مما هو متقدم عهدًا على زمن الاستبداد الاخير وكله من أسباب الانحطاط وتناقص السكان. غير ان الجهل من جهة ووعورة المسلك وتعذر سبل الانتقال من جهة أخرى كانا يحولان دون المهاجرة فيكل الناس امرهم الى اللّٰه والوطن عزيز فيؤثرون الاقامة فيه مع تحمل الحيف على تجشم مشاق الاغتراب وهم لا يجدون اليه سبيلا.

اذا ابتلاهم اللّٰه بحاكم طالم يومًا شكوا أمرهم الى اللّٰه وأملوا ان يخلفه ذو رأفة فينصفهم وهكذا لبثوا راضين مقيمين مختارين او مضطرين

ولكن استبداد الحكومة الغابرة خلق من أنواع المظالم ما لم يكن في الحسبان

كان ظلم الحكام في سابق العهد لطمع بمال أو لكسر شوكة وأما في العهد الاخير فزاد على ذينك السببين انتفاء كل سبب. كان خائف الظلم في الزمن السابق اذا كان ذا مال تدبر بحيلة لاخفائه او استرضاء الظالم بجزء منه واذا كان ذا نفوذ واقتدار عمد الى التذلل او المجاهرة بالعدوان وهو بارضه واما في عهد الحكومة الغابرة فالغني والفقير والامير والاجير والآمر والمأمور كانوا على شفير الهلاك في كل لحظةٍ لا ينفعهم حذر ولا تغنيهم حيطة وهم لا يدرون متى تقرع الابواب فتهجم اللصوص

واذا علمنا مع هذا ان جميع الافكار تنبهت والعلم قد بسط جناحيه ووسائل الاسفار قد تعددت ادركنا لاول وهلة سبب الاندفاع الهائل لمهاجرة الاوطان الى حيث لا واشٍ ولا رقيب والصبر على مضض العيش تملصًا من مخالب الموت او مناسر الذل والهوان

اما المهاجرون من البلاد العثمانية ففئتان فئة فرت من البطش والاغتيال وفئة جلت في طلب الرزق. ومرجع هجرة كلا الفريقين الى الاستبداد. والمسلمون والمسيحيون في ذلك سواء بل ربما كانت الوطأة اشد على المسلمين منها على المسيحيين

لما قلت الارزاق وتقلصت الاعمال باختلال الأمن في البلاد العثمانية وتفتحت ابواب الكسب في امركا واوستراليا ومستعمرات اوروبا الافريقية تنبه اليها الارمن واليونان والسوريون منذ زهاء اربعين عامًا ولكن المهاجرين في السنين العشر الاولى كانوا نزرًا قليلا من صناع الارمن وخدمة اليونان وفعلة السوريين اللبنانيين وافراد من التجار لا يتجاوزون العشرات ثم اخذوا يزدادون شيئًا فشيئًا الى ان باتت كل باخرة من بواخر المساجري

مريتيم تحمل كل اسبوع من ثغر واحد كثغر بيروت مئات منهم . وقل مثل ذلك في الارمن واقل من الغريقين اليونان

ثم اذا نظرت الى كل فئة من ابناء هذه الملل الثلاث رأيت لها اسبابًا خاصة تدفعها الى الجلاء مما يخرج عن الاسباب العامة

فاليونان اهل ملاحة واغتراب منذ القدم يدفعهم الجد الى انتجاع الكسب حيث وجدوه ولهم منذ مئات سنين تجار من ابناء جلدتهم اثروا في بلاد الغربة يعاونوهم اذا وفدوا عليهم وهي خطة ألفوها قبل الجميع فظلوا سائرين عليها حتى اذا قضوا وترهم من الاسفار انقلب اكثرهم راجعين الى بلاد اليونان مما خرج عن سلطة الدولة العثمانية

والارمن اهل زراعة وتجارة في ارضهم وقل من يغادر ارضه منهم من سكان الارياف ولكن قليلين من ابناء المدن كانوا يهاجرون في سبيل التجارة

والسوريون وان كانت بلادهم منذ القدم بلاد الاستعمار وسلك البحار فانهم انقطعوا قرونًا طوالا الى زراعتهم وتجارتهم في بلادهم وكانت الاسفار لفئة قليلة من التجار اكثرهم من الحلبيين

فلما ضاقت أبواب المعيشة في البلاد العثمانية واتسعت في الديار النائية كان اللبنانيون وفيهم بقية دم من الفينيقيين أول من أثار عاطفة الجلاء كأن روح اجدادهم بعد ان استكنت تلك القرون تحركت في صدورهم فهزتهم هزةً واحدةً

كان لبنان قبل سنة ١٨٤٠ أحزابًا سياسية غير دينية تتضاغن وتتصافى تتحارب وتتسالم فتفني الفتن منهم من تفني ويعيش من يعيش وهم جميعا مشتغلون بزراعتهم قانعون بما قسم لهم من الرزق الضيق . والقناعة رفيق الجهل

ثم تحولت تلك الاحزاب السياسية الى أحزاب دينية لبواعث

نبسطها في محل آخر وبقيت الحال على ما هي عليه الى سنة ١٨٦٠ فلما نال لبنان ذلك النظام (النافع في حينه المضر الآن) وزالت الفتن واستتب الأمن وكثرت المدارس فانتشر العلم وخاف اللبنانيون شظف العيش القديم باتت أراضيهم غير وافية بحاجياتهم ولا تجارة تذكر عندهم ولا صناعة ما خلا منسوجات وان كانت من أحسن طراز فلا رواج لها فأخذوا يتطلعون الى موارد أخرى للمعيشة فلم تلح لهم الا من وراء البحار

نظروا الى ما حولهم من الممالك العثمانية وهي بطبيعتها من أغنى أقاليم الكرة فاذا بها فقيرة على غناها ضيقة على اتساعها وهم أهل إقدام وذكاء ونزق وإباء فما راعهم تجشم المشاق وضربوا في مناكب الارض كل مضرب شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا.

وان في لبنان علاوة على ما تقدم دافعًا طبيعيًا لجلاء جزء من سكانه بين فترة وفترة. ذلك انهم جميعًا كثيرو الضنو تتكاثر ذراريهم بسرعة فيضيق القطر عنها. وهو في حالته الحاضرة مع وفرة عدد الجالين عنه للعهد الاخير لا يزال من اكثر جبال الارض سكانًا فالقرى ولاسيما في شماليه مزدحمة ازدحام قرى النمل ولا عبرة باقفار بعضها في هذا الزمن فلا تلبث ان ترجع فتكتظ باهاليها

ومن اعظم اسباب المهاجرة ايضًا انتشار العلم بكثرة المدارس. وان من سيئات العلم اذا عدت له سيئة انه يثني حديث العهد به عن زراعته فقلما تجد ابن فلاح تعلم فعكف على زراعة أبيه بل تسوقه المطامع في المال الى طلب الرزق من باب آخر وابواب الرزق في لبنان تكاد تكون منحصرة في الزراعة ومصالح الحكومة فاما مصالح الحكومة فانها لا تتسع لاكثر من زهاء ثلثمئة فيضطر سائر المتعلمين ويعدون بالالوف الى هجر الاوطان

وهكذا كانت الجالية اللبنانية مؤلفة من فئتين : فئة الفقراء المتجعين العيش بقوة سواعدهم وكثيرون من هؤلاء يستلفون نفقات السفر استلافًا . وفئة المتعلمين الطالبين الرزق من شق اقلامهم او من رأس مال صغير يكون في الغالب ايضا دينًا بذمتهم

وكان اول من نفخ في ذلك البوق اهل شمالي لبنان حيث الاهالي مزدحمة ازدحام القطا في افاحيصها ثم تابعهم اهالي اواسط الجبل فسكان الجنوب وما لبثت ان امتدت العدوى الى مدن سوريا كدمشق وحلب وبيروت وسائر الثغور والارياف

ولنقل الآن كلمتنا الاخيرة وان طالت عن مهاجري لبنان قبل ان ننتقل الى سائر الجالية العثمانية وخصوصًا ان بين هجرة اللبنانيين وهجرة سائر ابناء السلطنة فرقًا عظيمًا في الاسباب والنتائج

ليس لدينا احصاء رسمي لمعرفة عدد المهاجرين اللبنانيين (والاحصاء في زمن الحكومة الغابرة من الكماليات المضرة) ولكنه يؤخذ من الاستقراآت الطويلة التي تتبعناها انهم بين الولايات المتحدة وسائر جمهوريات امركا واوستراليا ومصر وجميع الاقطار الافريقية لا يقلون عن الثلاثمئة الف اي انهم يكادون يساوون عددًا السكان الباقين في البلاد وكل هذه الجالية هجرت البلاد بعد سنة ١٨٧٠ الا افرادا قليلين منها

وكلها أيضا هاجرت في طلب الرزق فلم يكن الظلم السبب الدافع للمهاجرين ولكنه كان السبب في انصرافهم عن بقاع سوريا والعراق الفسيحة ومدنها الغنّاء في بلادٍ هواوها هواؤهم ولغتها لغتهم الى حيث تنهكهم الامراض والمشاق في بلاد يجهلون لغتها وطبائع أهلها . ولقد عرفنا من بعض الاحصاآت الاستقرائية ان ثلثهم يموت فناء بالمرض ومشقة السفر. ويكفيهم من ضروب العذاب الاليم ما يلقاه كل فردٍ منهم يوم مغادرته ثغر بيروت او يوم عودته اليه . وانا لعلى يقين ان

لو حوكم بعض ولاة بيروت على ماكانوا يوّلون به أولئك البوّساء وما يبتزونه منهم من الاموال بواسطة حفّاظ الأمن يوم سفرهم او يوم عودتهم لحكم عليهم بالسجن المؤبد

ومع كل ما نتج عن المهاجرة اللبنانية من تناقص الايدي العاملة في الارض وتناقص النسل بموت بعض المهاجرين وابتعاد الرجال عن نسائهم وانتشار بعض الامراض التي لم تكن معروفة او كانت نادرة جدًّا كالسل الرئوي والزهري فان النفع كان عظيما باثراء زمرة من هؤلاء المهاجرين وتكاثر النقود بما كانوا يرسلونه اليها وتوسيع أبواب الراحة بالمعيشة وتلاشي الجرائم بابتعاد أربابها لقلة أرزاقهم في ديارهم

واللبناني من طبعه شديد التعلق بوطنه يحن اليه وان شاخ في أقاصي الارض ولهذا كانت الجالية في أول الأمر تعقد النية يوم قطع تذكرة السفر على ان لا تلبث في اغترابها الا ريثما يجتمع لديها شيءٌ من الوفر تستعين به على معيشتها فتنقلب راجعةً الى بلادها وهي تقول ما طالما رددناه لبعض أفرادها

لا يستقر الظبي في فلواته * حتى يعاود ورده المعهودا
والطير مهما فارقت وكناتها * تطوي لروّيتها الفلا والبيدا

شهدت كثيرين من المهاجرين اللبنانيين القافلين الى الاوطان منذ خمس وعشرين سنة وشهدتهم في دار اغترابهم منذ خمس عشرة سنة وشهدتهم في هذه الايام وشتان بين الحنين الى الاوطان في افئدة هؤلاء واولئك. — كنت اذا رايتهم مقبلين رأيتهم متهللين بشرًا ومعهم كل ما ادخروا في دار هجرتهم يحملونه الى مسقط رأسهم وهم يقولون حمدًا لك اللهمّ فقد اذنت ان تضمّ رفاتنا الى رفاة آبائنا.

وكنت اذا سألتهم رأيهم في التجنس بجنسية البلاد التي ارتادوها قالوا معاذ الله ان نكون فكرنا يومًا بارتداء حلة غير حلة قومنا وعشيرتنا.

ولكن الاقامة في ديار الحرية زادت نفوسهم إباء وازدياد المظالم في الثغور زادهم نفورًا واشمئزازًا وسريان العدوى في اختلال الاحكام من الولايات الى لبنان اورثهم خيبةً في تلك الآمال التي رحلوا بها فضعفت فيهم عاطفة التفاني بحب الوطن وباتوا يطلبون الحرية حيث كانت ومالوا الى الاندماج في سلك الامم التي أنالتهم من حريتها ومالها ذخرًا ثمينًا. وكأني بحقي بك ناظر المعارف الحالي يذكر يوم كنا معًا بامركا منذ خمسة عشر عامًا والجالية السورية فيها تعد بالالوف ومعظمهم من اللبنانيين والمتجنسون منهم بالجنسية الامركية قليلون جدًا ولكن الميل الى التجنس آخذ في الانتشار بينهم واطنه يذكر ايضًا ما لقيتُ من العناء بصرف كثيرين منهم عن ذلك الميل معظّمًا ما كان لديَّ من الامل الضعيف بالاصلاح الذي تيسر والحمد لله فوق ما كنت ارجو وبرجو الجميع

ومع هذا فان بقايا تلك العاطفة لبثت تختلج في صدورهم الى ما قبل هذه السنين الخمس الاخيرة اذا استولى السأم على جميع نفوس المهاجرين فقنطوا من الاصلاح وباتوا يوم هجر بلادهم يفكرون في هجر جنسيتهم فعاد الشر شرين والخسارة خسارتين ولو تأخر اعلان الدستور عشر سنين لاصبح معظم اللبنانيين من نصارى ومسلمين اوروبيين وامركيين نزعةً وتبعةً. وانظر حينئذ فوق خسارة البلاد الى المشاكل السياسية التي رأينا منها شيئًا كثيرًا بالقسر عن المعاهدات التي تقضي باعتبار جميع العثمانيين المولودين في البلاد العثمانية بحال عودتهم اليها عثمانيين كسائر المقيمين فيها مهما طالت مدة اغترابهم ومهما اكتسبوا من الحمايات والتابعيات الاجنبية

هذا جل ما يقال عن الجالية اللبنانية وهي كما رأيت مع بعض مضارها الماضية وكثرة شرورها على البلاد والدولة في مستقبل الزمن لم تخلُ من الفوائد التي انتجت الرخاء في جزءٍ من السلطنة فهي فريدة في بابها بهذا المعنى. وهي الجالية الوحيدة التي لم يسقها الى الاغتراب مجرد الاستبداد.

فاجل الآن نظرك في المهاجرة من سائر اجزاء السلطنة فلا ترى حيث توجهت الاّ نكبة صماء منيت بها البلاد ومحنة لا يقل بلاؤها عن مجازر الحروب ومجارف الاوبئة الفتالة

سرت العدوى في سوريا من الجبال الى العواصم والثغور كما اسلفنا ولكن بجرثومة غير تلك الجرثومة وشكل غير ذلك الشكل

ولسنا بباحثين في المهاجرين السوريين من نفس الطبقة المتعلمة المهاجرة من لبنان ولكن بحثنا الآن في طبقتين اخريين لا قوام لملك اذا ضعفا فيه ونعني ارباب المال والعمل

كان ارباب التجارة من السوريين اذا اثروا فيها اقاموا فيها حتى الموت واذا جمعوا ثروتهم بالاسفار عادوا في الغالب بتلك الثروة فتمتعوا بها في اخريات حياتهم في تلك الربوع الفيحاء. فلما تفاقم الاستبداد والتعنت في الاحكام في العقدين الاخيرين من السنين الفوائت بات السكن في المدن السورية ولا سيما في الثغور وعلى التخصيص في بيروت مما يحرج النفوس في الصدور ومداراة الحكام مما يذهب الصبر والمال وكانت مصر وهي شقيقة سوريا في اللغة والعادات والاخلاق وجارتها القربى رائعة في بحبوحة من الامن وصفاء العيش. توجهت انظار أرباب المال اليها كما توجهت اليها انظار الطبقة الوسطى وأرباب الاقلام فكانت لهم جميعًا ملجأً أمينًا يقصده طالب الرزق للاقامة ويرتاده التاجر الغني للنزهة شتاءً ويغتنم فرصة من تلك النزهة لانماء ثروته بالمضاربات بالمال والعقار. فلما كادت تزهق أرواح السوريين في بلادهم تهافت رهط من أعلى طبقات هؤلاء التجار على تصفية اشغالهم وبيع عقارهم بأبخس الاثمان وطلّقوا سوريا بتاتًا وأتوا فاقاموا في القطر المصري ورحل بعضهم الى أوروبا

وقد اجهدتُ النفس مرةً باحصاء ما نقص من ثروة مدن سوريا

وأخصها بيروت وحلب بجلاء هؤلاء التجار عنها في هذه المدة القصيرة فبلغ زهاء سبعة ملايين من الليرات العثمانية

ولا ريب ان هذه الثروة بقيت للسوريين بل زادت كثيرًا بما أضيف اليها من الكسب ولكنها خرجت من البلاد ولم تكن لترجع اليها قط لا كلًّا ولا بعضًا لو لم يمن الله بنعمة الدستور

ولكن البلاء الاعظم الذي ابتُليت به البلاد جلاء الفلاح عن ارضه

كانت الحكومة الغابرة في أول أمرها تنفذ الاوامر حينًا بعد حين بمنع المهاجرة من سوريا ولكن تلك الاوامر انما كانت وسيلة لرجال المأمورين وعمالهم من الولاة لاجل ابتزاز الاموال من المهاجرين حتى ضرب بعض الولاة لنفسه ضريبة معلومة على كل مهاجر وأطلق العنان لحفّاظ الامن يبتزون ما شاؤا لانفسهم ولمن والاهم من حمّال وبحّار وواسطة وعميل

واشد تلك الاوامر كان بحجر الفلاح المسلم القاطن في الولايات السوريه مما خرج عن لبنان ومع هذا فلم يكن يُعدم المسلمون وسيلة للانسلال مع النصارى سرًّا في اول الامر ثم جهرًا مع مواطنيهم. واليك بيان وسيلة من تلك الوسائل التي كان يتفكه بها اولئك الظلام من رجال الضبط وعملائهم لتسهيل سبل السفر للمسلمين

قصد ثغر بيروت من فلاحي البقاع نحو عشرين رجلا بين سني وشيعي وبينهم رجل شيعي طويل اللحية فاخذه دلّال المهاجرة بيده الى عزلة وقال له لا بدّ لك يا صاح من حلق لحيتك. وان من عرف عادات القوم في تلك الاصقاع يعلم ان القضاء على الرجل منهم بقطع يده اسهل عليه من القضاء بحلق لحيتهِ فابى واشتد اللجاج بينهما ورجع الرجل عن عزمه على السفر فاتى رفاقه وخافوا ان يصابوا باذى شديد اذا انثنى عنهم فما زالوا به حتى اقنعوه بقصّها فصّا

وهكذا بعد ان كان المهاجرون المسلمون نزرًا يسيرًا من فلاحي

لبنان احذت الغيرة فلاحي سواحل سوريا ثم امتدت الى فلاحي البقاع فاعالي سهول حمص وحماة حتى شوهد بين مهاجري المسلمين افراد من البدو ولو لا لطف الله بهذا الدستور لسرت الغيرة في داخل البلاد حتى بغداد. وخصوصًا بعد ما كان يبلغ ذلك الفلاح البائس في ارضه ان اخوانه في سعة من العيش والحرية في ديار الغربة ومنهم الآن العامل والزارع والتاجر وان لهم هناك يدًا بمعاونة بعضهم بعضًا مما لا يتاح لهم في نفس بلادهم.

وهذه الجمعية الخيرية الاسلامية في البرازيل لا تغادر بائسًا منهم على بؤسه فتعول المقعد وتداوي المريض وتنفق على المعوز الراغب في معاودة وطنه وحكومة الاستبداد في نفس بيروت بددت شمل جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية كما مرَّ بك.

قصدت بلودان في صيف سنة ١٩٠٦ مع رفقة من صفوة ادباء دمشق الشام من آل العظم والبخاري والعسلي وشهبندر. وبلودان هذه قرية غناء فوق روض اريض من رياض البقاع تعلو عن سطح البحر ١٥٠٠ متر. جنات تجري من تحتها الانهار لو كانت في ديار الامن والعدل لكانت منتجع الروَّاد. يتمنى ابن باريس لو يُقطع منها بضعة امتار يرتاض فيها بعد العناء ويرتاح بعد العياء. وهي مع ذلك كسائر القرى حقيرة البيوت ذات طرق معوجة ضيقة كمعابر الماعز في غاب الجبال. يصعد اليها النازل من قطار سكة الحديد عند محطة الزبداني في مسلكٍ اشبه بلولب منه بطريق يمتد متعرجًا على ثلاثة اميال قد اعتادت حُمُر تلك البلاد تسلقه بلا عناء. فركبنا الحمير وخلفنا اصحابها من أهل تلك القرية وكان رفيقي القروي كهلًا نظيري فاخذت اباحثه بشؤون قريته وزراعتها وزوَّارها الى ان بلغ بنا الحديث الى عمال الحكومة وجباة الاموال وكنت في كل كلامي اتودد اليه متلطفًا تسكينًا لخاطره ودفعًا لريبته فلما اطمأن انطلق

لسانه وكانت زفراته اطول من عباراته ولم نزل على ذلك الحديث الى ان بلغ بي سفح القمة امام الفندق الذي كنت اقصده ولا فندق سواه بل كان في الأصل بيتًا لرجل عليل من وجهاء الشام بناه لنفسه مصيفًا يقيم فيه مستشفيًا من مرضه ثمّ جعله فندقًا للمصطافين. فقال لي صاحبي والزفرة تكاد تخنقه هذا هو النزل المقصود متّعك اللّه فيه بالهناء والسرور انت ورفاقك واما انا ورفاقي فلقد عقدنا النية على ان نغادر لكم في الصيف المقبل هذه البلاد بما فيها غير آسفين على ارضنا وعقارنا في هذه الجنة الحمراء. سائرين على بركات اللّه الى حيث نرجوا ان نكون بمأمن من ظلم هؤلاء العتاة الفجار الذين حببوا الينا الموت وتناول اجرته شاكرًا وانصرف

فقلت في نفسي غوثك اللهمّ اذا كان هذا مبلغ اليأس والسأم من نفس هذا الفلاح وهو مالك أرضًا وبيتًا وله مورد رزق دائم مما يبذله روّاد جنته هذه فما الظن بالفلاح المأجور الذي لا يملك كوخًا يأوي اليه ولا شجرة يتفيأ بظلها في تلك السهول المحرقة والدرهم بعيد عن كفه بُعد الرحمة عن قلوب اولئك الظلام

وهنالك صنف آخر من أصناف المهاجرين من البلاد العثمانية لا أجد تعبيرًا وافيًا لوصف بؤسهم وشقائهم واعني بهم جماعة الارمن. مزيج من التجار والصناع والزراع مقيمون في بلادهم من ولايات وان وارضروم وطرابزون وما والاها وقد مرت عليهم القرون وهم عائشون بأمن مع جيرانهم الاكراد والترك وغيرهم. اذا حصل بينهم خلاف فانما هو سحابة صيف لا تلبث ان تنقشع. ومنهم زرافات عديدة من ذوي المناصب من كل الدرجات ومن أرباب التجارة والعقار والصرافة وسائر الحرف متوزعون في كل أطراف السلطنة لا يقل عددهم في نفس الاستانة عن المئة والخمسين الفًا

بدأ ثائر الشقاق يثور بين الارمن والاكراد منذ استفحل أمر حكومة الاستبداد أي منذ خمس وعشرين سنة وكانت البواعث شديدة من الداخل والخارج وليس هنا محل بسط تاريخ المسألة وانما نستخرج من مذكراتنا عنها ما يقتضيه سياق الحديث

لا يكاد الانسان يفقه سرًّا لمغازي سياسة الحكومة الغابرة اذا كانت تعمل على إضعاف بل اتلاف جميع العناصر المؤلفة منها هذه الامة فما شعرت بهذا التنافر بين سكان ارمينيا حتى قامت توسع في الخرق فبدلاً من ان تتلافى الامر أرسل اليهم عمال المابين رجالاً على شاكلتهم وكلما تعالت الشكوى زادت المغارم الى ان كانت الفتنة الاولى في وان وموش وخربوط وارضروم سنة ١٨٧٧ فهاجر من الارمن من هاجر ثم خبت النار تحت الرماد ولم تزل بين شبوب وسكون الى سنة ١٨٩٥ حيث كانت المذبحة الهائلة فتجاوزت ارمينيا الى الاستانة حيث قتل في يومي ٢٥ و ٢٦ آب (اغسطس) زهاء خمسة عشر الف نفس وامتدت منها الى أطراف البلاد.

وما كان اعتراض الوزراء والعلماء وبعض المشيرين ولا مروءة ذوي المروآت كفؤاد باشا على ما تقدم في باب التعصب لتؤثر مقدار ذرة في أفكار عمال المابين فان قوتهم انما كانت باضعاف جميع الخلق فما انثنوا حتى ارتووا بما سال من دماء تلك الالوف

والذي يدلك على ان عمال المابين لم يصدقوا بزعمهم لدى عقلاء الامة انه تيار اندفع بالقسر عنهم فلم يستطيعوا ان يقفوا بوجهه انه لم تكد تصدر الاوامر من يلدز بايقافه حتى أصبحت جميع انحاء الاستانة في نصف ساعة دار أمن وسلام بعد ان كانت بحرًا مضطرب اليم بامواج الدماء

ولم تنحصر البلوى بقتل تلك النفوس فانك تستنتج بلا ريب ان

سيل المهاجرة اندفع يجرف كل ما لقي في سبيله وانه عقب ذلك مجاعة عمت تلك الاصاقع فباد فيها زهاء ما باد بالسيف والرصاص (والنبّوت) وتعطلت المزارع ودمرت البيوت وأقفرت بلاد عامرة فكانت خسارة البلاد في سنة واحدة بالقتل والموت بالمرض والجوع والمهاجرة نحو أربعمئة الف نفس

ولا ريب ان اختلاج عواطف الحنان والاخاء في أفئدة الاحرار في الآونة الاخيرة واندفاعهم مئات والوفًا باحتفالٍ باهر الى مقابر الارمن حيث كانت تنقل الجثث مكدسة على عربات المزابل الى خلجان ترص فيها ركامًا بعض فوق بعض. وذهابهم بالزهور والاكاليل لتلقى فيها فوق تلك الاضرحة الفسيحة لاعظم دليل على ان عقلاء الامة كانوا ناقمين ساخطين. وان في ذلك لبلسمًا لجراح من بقي من أنسباء أولئك التعساء ولكنه لا يعوض البلاد شيئًا من خسارتها الفادحة

وان غوائل المسألة الارمنية امتدت خسائرها الى جميع اجزاء البلاد. خذ الاستانة مثلاً ترَ انه على أثر تلك الحادثة انقطعت عنها الثقة المالية من اوروبا فتعطلت المتاجر والصناع من أبناءِ جميع الملل يهجرونها الى مصر وأوروبا وقد شهدنا مئات منهم في مصر القاهرة وحدها من الاورمنيين واليونان والترك والعرب. ولو احصي عدد سكان الاستانة سنة ١٨٩٧ لاسفر الاحصاء بلا ريب عن نقص مئة الف نفس باقل تعديل

بقيت علينا لفتة مؤلمة الى آخر صنف من المهاجرين وهو تلك الفئة التي كان يجب ان تكون عماد الدولة وروح البلاد ونعني بها فئة الاحرار ودعاة الاصلاح بعرفنا والخونة المجرمين السياسيين وأعداء الدولة باصطلاح عمال المابين

لم يكد مستشارو السوء يشيرون بفض مجلس المبعوثان سنة ١٨٧٧ حتى أخذوا يتطلعون الى جميع الذرائع المؤدية الى اماتة تلك الروح

روح الحرية المنبثقة من مساعي مدحت وكمال وانصارهما ودفن المذهب الدستوري بمهده. واذ كان ذلك مطلبًا بعيد الشقة عسير المنال لم يروا بدًّا من الشروع في ابعاد طلاب الحرية عن مواقف النفوذ فمن قوي منهم على كتمان هوى نفسه وتدبر الامر بطول الاناة بقي في منصبه اذا كان ذا منصب أو غودر آمنًا في منزله وكلا الرجلين تحت اكناف الخفية. ومن بدرت منه بادرة تشف عما في ضميره او خيف ان يحول دون مآرب من مآرب رجال المابين ضربت عليه الذلة والمسكنة. ومن هؤلاء نزر يسير يسوءنا جدًّا ان نعترف انهم انقلبوا الى زمرة الجواسيس فزادوا في بلاء رفاقهم القدماء. ولسنا هنا لنكرر ما تقدم بهذا الصدد في باب رجال الدولة وغيره ولكن محصول القول ان معيشة هؤلاء الاحرار في بلاد السلطنة باتت من المستحيلات فلا اولو الامر يطيقون اقامتهم بينهم ولا هم بقيت لهم طاقة على تحمل الضيم وخصوصاً انهم باتوا على شفا المهالك والمخاطر محدقة بهم من كل صوب فاخذوا ينسلون الواحد بعد الآخر ويفرون شرقًا وغربًا. وانسلال كل واحد منهم يلقي الشبهات على عشرات من انسبائه واصدقائه فيضطر كثيرون منهم الى اللحاق به ولطالما قُبض على الواحد منهم وهو على اهبة السفر فزُج في سجن فمات فيه او فرَّ منه مرة اخرى. او سيق فاميت خفيةً او أقصي الى منفاه

واذ كان الغدر بذوي العقل والصلاح والحرية والذكاء اسهل الامور على عمال المابين اخذت الناس الرعدة ومال الجم الغفير الى مغادرة البلاد لغير سبب سابق ولكن خشيةً من سعاية مقبلة ولو لا شدة رقابة الخفية وقيام الحرَّاس على الثغور ليلاً ونهارًا وشدة التنكيل بمن قُبض عليه فارًّا لخلت البلاد من أرباب العقول كما كادت تخلو من زرَّاع الحقول

وليس احد من أبنا هذا الصنف ممن غادر بلاده وراء باب رزق اوسع في دار الاغتراب بل كانوا جميعًا بالعكس من ذلك ينزلون عن منصة

الرخاء الى بيت الذل والضيق. ولقد شهدنا الكثيرين منهم من أبناء الكبرآء والوزرآء وسعة العيش يحتالون على خدمة في محل تاجر او ادارة شركة او مصرف براتب كان يتناوله بعض الحشم في دور آبائهم

هؤلاء هم الاحرار الذين انبثّوا في جميع الاقطار وتألّفوا فى البلاد النائية وهؤلاء هم المهاجرون الذين لبثت بلادهم ودولتهم نصب اعينهم في سرهم وعلانيتهم ومن كان هذا شأنه فلا بدع ان يصرف كل قواه الى استئصال جرثومة الفساد ودرء شبهات الحساد ومواصلة السعي لبلوغ المراد

قصدوا البلاد الاجنبية شُذَّاذًا شرَّدًا فتالفوا فيها وتألّفوا عصابات وجمعيات سرية وغير سرية في باريس وجنوه ولوندرا ومصر ولم تخلُ منهم عاصمة من العواصم الاوروبية حتى بلغوا أمركا

هذه هي الجالية التي كانت أشد شقاء من سائر الجاليات فأصبحت الآن اسعدها وأي سعادة أعظم من بلوغ منتهى الآمال. وهذه هي الجالية التي تتهافت الآن قافلة الى بلادها تهافت الظباء على موارد الماء في قيظ المهاجرة

ولئن نالت البلاد خسارة بجلائها فستنقلب كل الخسارة ربحًا بعودها الى أوطانها وقد ضمت الى نزعتها الحرة ما أكسبها الاغتراب من زيادة المعرفة والاختبار

واذا علمت انها لا تقل عن السبعين ألفًا منهم خمسة وستون ألفًا من المسلمين وخمسة آلاف من المسيحيين وانهم جميعًا من ذوي الدراية والنشاط ومن جميع عناصر الامة العثمانية اتضح لك قيمة الذخر الثمين الذي يعودون به الى أوطانهم ولا عبرة بمن خرط نفسه بينهم من زمرة الجواسيس مدَّعيًا انه من دعاة الحرية فذلك عَرَض زالت الآن كل آثاره

ذلك ما يقال اجمالاً عن اصناف المهاجرين العثمانيين ولا شك ان

تبدّل الحال باعلان الدستور سيحدث انقلاباً ليس في الحسبان. فيرجع بعض الاصناف كالصنف الاخير برمّته وسائر الاصناف يعود معظمه الى حظائره ويقف هذا السيل الجارف فينثني من نوى الهجرة عن عزمه. وليس ببعيد عنا ذلك اليوم الذي ينعكس فيه ذلك المجرى منا الينا يوم يستتب الأمن ويسود العدل بصلاح الاحكام فتبيت البلاد العثمانية مطلب المهاجرين من أقاصي الديار فتفتح أبوابها لمن وسعته منهم

جميل المدوّر

١٨٦٢ — ١٩٠٧

الرسالة الثامنة

من رواية حضارة الاسلام في دار السلام

(رسالتي الى قيصر الروم)

هذا تاسع كتبي اليك أفرده لذكر الرساله الى انبرذور الفرنجة وأنا اكتبه اليوم على متن السفينه في البحر الفاصل بين الروم وافريقية كان الرشيد يوم وصل رسول الانبرذور الى الحضرة قد استدعاني اليه فأصبته في مجلسه متنقلا كأنه يريد أمرا عظيما فاستدناني اليه وقال انا أتانا من ملك الفرنجة رسول يقرئنا منه السلام ويلتمس جميل رعايتنا بمن يحج الى بيت المقدس من ملتّه فرأينا أن نوجهك اليه بلطائف تروم اليه أن يتقبلها في سبيل المودة لغاية ترغب فيها اليه من التعصب على بني أمية الذين يمزقون الاندلس فيما هو واقع بينهم من الحروب فاذا وافقنا على ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من انفاذك اليه في هذه الرسالة واجهد في أن تسترق قلبه بخلابة لسانك وتقدم اليه بالوعد الجميل في اننا نوفيه حقه يوم الفتح ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنا ونجرى الارزاق الواسعة على جنده ونقاسمه ما تحوى خزائن الظالمين من المال والجوهر واستصحب معك هذا اليهودي الذي جاء به رسوله فهو يترجم عنك اليه وخذه بالتعظيم الكثير لانه شيخ مترف جليل القدر فيما نقل الرسول الينا. وقد تقدمنا الى مسرور أن يصحبك بالخدام في

الدواب والخيام الى بيروت من ساحل الشام. فاذا عدت الينا وأنت آخذ على مصر وصل الليث أن يوجه معك طائفة من الحرس الى عيذاب وتوافينا الى البلد الحرام حيث توافقنا حاجين فسر على بركة الله. واياه نسأل أن يتولاك بعين الحراسه ويهدى الى الصواب قلبك وهو ولىّ التوفيق

فلما أذن لى بالانصراف أتيت البرامكة لاستطلعهم رأيهم في المصلحة فلقيت جعفرًا متنزهًا في البستان وبين يديه جماعة من الندمان. فلما أقبلت عليه قال اخرج عما بنفسك وحدثنا عن سفر البحر فقلت وأنى ذلك للسلطان فقال علم الله أنى أنا الذي أشرت على الرشيد بان يوجهك الى ملك الفرنجة رسول خير ومودة وسلام. ثم أومأ الى الجلاّس فتنحوا عن موضعنا فاستدناني اليه وقال بم أوصاك فقلت بكذا وكذا من الامر فوهم ساعة ثم قال سبحان الله إلامَ يتمادى به تغرير القتال لقد أشرت عليه بأن يعدل عن مناجزة الامويين لان لنا في الشرق ما يشغلنا عن قتالهم وفي ظهور الخوارج الذين يقارعونه على الخلافة في كل حين ما ان ضعفنا عنهم مرة واحدة فسدت دولته فسادًا لا تقوم لها من بعده قائمة. وان يكن الرشيد عن موعظتي غنيًا بما عنده من العقل والعلم الا أن الملوك قد تطمح نفوسهم الى ما وراءه الشر من طمع الاستيلاء وقد قال الله تعالى «لاتسألوا عن أشياء ان تبد لكم تس�وكم» فما لنا وللامويين وقد كفانا الله شرهم فان كانوا في شقاق فلندعهم ينادون بالويل والحَرَب الى ماوراء البحور وليس لنا أن نلقى برجالنا في المواضع المجحفة ونوردهم موارد الهلاك فانى أرى الجند يتفانون قبل الاشراف على تلك المتالف كما انى احسب الانبرذور على ما يؤثر عنه من ايثار الرفق ولزوم التؤدة بعيدًا عن موافقته على ما يروم من الايقاع بملوك أمية وهم مطمئنون في ديارهم معتصمون في قلاعهم وقد عمروا أمصارهم

ودونوا دواوينهم وشكوا حصونهم بالرجال واتخذوا الاهبة لهم والعدة والكراع ودون الاستيلاء على ديارهم شيب الغراب[1] ولقد كان أولى بالرشيد ان يرى دول الاندلس درعا منيعا للاسلام وسيوفا مشهرة على الروم لانها لو دخلت في حوزته لم يأمن ان أرسل الجند ان يخونه القواد أو مات الانبرذور عن خلف لا يرعى العهود أن يوجه من يقبض على عمالها من لدنه. وقد بدا لى أن اعاوده في هذا الشأن فان رغب عما فرط منه والا فليفعل ما كان فاعلا لبلوغ امنيته.

فلما كان الغد بكر جعفر الى الرشيد وخلا به ساعة جيدة يقلب عليه الكلام ويمحصه الرأي والنصيحة ولكن من غير ان يقوّم ما بنفسه من الميل ويعدل به عن ركوب هذا المركب الوعر فاستدعاني اليه وسلمني كتابه الى الانبرذور وأمرني بأن أتجسّس أخبار العمال وأتفقد أمورهم حيث مررت. وأوصاني برجل من الامويين في دمشق كثير المال كبير الجاه أن أحقق حاله حتى اذا كان يخشى منه استمالة أهل الشام الى الفتنة رفعت ذلك اليه ليتدبر أمره ثم قال واذا مثلت بين يديه «يريد قيصر الروم» فقل له عن اميّة أنهم قومٌ قد كفروا النعمة وتركوا فروض العبادة وسعوا في الارض فسادا وانا أحق بالملك منهم لمكاننا من قرابة النبي صلى اللّه عليه وسلم. ثم أذن لي بالانصراف وكان يظهر من الميل الي وجميل العطف عليّ بحيث كان يدعوني بلفظة الحبيب كلما بدأ بالكلام بعد انقطاعه.

---

[1] نقلت الاخبار السالفة عن ملوك امية انهم لما هربوا من دمشق الى الاندلس ووجدوا اليمانية فيها غير مذعنة لدولتهم قاتلوهم قتالا أحبّوا معه الموت أو يحصلوا على لقمة تبقى الرمق وبلغ استقتالهم في سبيل الملك الى أن يقتل أحد ملوكهم ابنه من أجل انه تراجع عن العدو وقد هاله كثرة جموعهم فقال لاحد أصحابه بعد آن ضرب عنقه اكسروا جفون السيوف فالموت أولى أو الظفر. «ابن الاثير ٤٠٦»

وكان في لطائف الخليفة الى الانبرذور فيل عظيم أبيض كان عند المهدى رحمه اللّه ارسله له بعض ملوك الهند وأقمشة فاخرة من الوشي المنسوج بالذهب وبسط ديباج من طبرستان وأعطار من اليمن والحجاز ومسك وصندل وأعواد ندّ من الهند وسرادق عظيم مجلل بأنواع الحرير وكلاليبه من الذهب الملبس بالوشي ومزولة كبيرة تدل على الاوقات في ليل ونهار وهي من عمل صناع بغداد وشطرنج بديع الحسن قد اتخذت أدواته من العاج المنقوش صنعهُ نقاش من النصارى اسمه يوسف الباهلى ورسم اسمه على الأداة التى تمثل الشاه وهي من الحسن بحيث ان الناظر اليها يكبر صناعتها وقد مثلت فيلا يلف خرطومه على فارس وعلى رأسه جندّي قد اخذ بزمامه ومن حوله ثمانية فرسان يراد بهم الرمز الى البيادق الثمانية الذين يناضلون عن الشاه وعلى ظهره هودج مزخرف بأنواع الرسوم قد استوى فيه ملك على رأسه تاج مثل تيجان ملوك حمير وقد أظهر هذا الرسام في تصويره من الحذق ما يستحق عليه الثناء لانه مثل اصحاب الفيلة كما هم وجعل في آذانهم أقراطا وعلى زنودهم أساور وعلى ابدانهم القراطق وهي لباس الهنود واتخذ عدد الخيل مزخرفة وصنع لهم السروج والأزمة والركائب وقلد الفرسان شيأ من السلاح ما عدا الجندى الذى أخذه الفيل بخرطومه فانه يعالج بنفسه مما هو فيه وقد طرح سلاحه الى الارض وعليه سمة التوجع والانكماش مما يشهد للممثل بأنه من مهرة الصناع

(المرور بالكوفة وبلاد الشام)

لقد رسم علىّ طريق الوجهة بأن أسير الى الكوفة ثم الى دمشق ثم الى بيروت على ساحل البحر وكان مسيرنا في غاية البطء رفقا بالفيل والدواب المثقلة بالاحمال فاجتزنا بعد الانفصال عن الحضرة بمدينة النيل

التي مصرها الحجاج وهي بمنتصف ما بين بغداد والكوفه ثم عطفنا الى الانبار ثم الى مدينة الكوفة فنزلت بها في رحبة خنيس الانصاري من أجداد استاذي أبي يوسف رحمه اللّه وهي في مقابله الباب الكبير المعروف بباب الفيل وقد طاب لي المقام بين اهلها لما وجدت فيهم من الحب لاهل البيت شرفهم اللّه ولا سيما في قوم كندة من ملوك النصرانيه وهم من غلاة الشيعة وأكثرهم عالم وحكيم وأديب كان بينهم معدن العلم ومظهر الحكمة وقد لقيت منهم اسحق الكنديّ وهو عامل الرشيد على الكوفة قلده الامارة بايعاز البرامكة الذين يحافظون على تأييد الشيعة ويبغون من إلف الرعية فيما بينهم تعظيم الاسلام في انتفاعه بحكمة الامم وعلومهم وصناعاتهم وقد جروا بذلك على سنة أبيهم خالد رحمه اللّه وهو الذي قرّب بعض النصارى الى أبي جعفر كما تقدم في موضعه من الكتاب

ولقد وجدت الكوفة من أعظم مدن العراق وهي ذات ماء وشجر ونخيل وقدّرت أن تكون في الكبر كنصف بغداد فحق تسميتها بالكوفه لاجتماع الناس فيها من قولهم تكوّف الرمل اذا ركب بعضه بعضًا وقد زارني فيها كثير من أدبائها المشهود لهم بالفضل والاجتهاد ولكني لم يتهيأ لي زيارتهم لقصر الوقت معي ولقد وجدت اسحق أميرهم من العلم والعقل بالموضوع الذي اكتفى من الدلالة عليه بكوني أستخبر بعده عن الاسلام. وهو يسكن دارا مباركة تعزى الى عقيل بن أبي طالب وهي بازاء المسجد المبارك الذي قال فيه بعض الصالحين ان ركعتين فيه تعدلان عشرا فيما سواه عن المساجد وان البركة منه الى اثني عشر ميلا من حيث أتيته وقد زرته قبيل الانفصال عن المدينة ولم أر في عمد المساجد كلها ما هو أطول من عمده ثم زرت مشهد عليّ عليه السلام وتبركت به وقرأت عنده شيئًا من القرآن

ولما انفصلت عن الكوفة تخلفت عنى الدواب المحملة فانقطعت في الفلاة مع جماعة من الحرس ورحنا نفور القفر بعد القفر حتى اذا عظمت على مشقة السفر تذكرت طيب بغداد وطرائفها وحننت الى مجالس البرامكة والدار عندهم جامعة. واوقات الأنس بها رائعة. فكنت أقول متمثلا بكلام اسحق النديم

على أهل بغداد السلام فانني * أزيد بسيرى عن ديارهم بُعْدا
اذا ذكرت بغداد نفسى تقطعت * من الشوق أو كادت تذوب بها وجدا

ولم أزل مجدًّا في السير حتى بلغت دمشق في اثنتي عشرة ليلة ولو اني سرت تحت جناح الليل لبلغتها في ثمانية أيام فما دونها فنزلت فيها عند قاضيها الامام عمر بن أبى بكر بن تميم القرشىّ العدوي في دار بناها عويمر أبو الدرداء وهو أول من ولى القضاء بدمشق وكان القضاة قبله يسكنون قصر الحجاج المعروف بالقصر الكبير

أما الشام فانها بلاد مباركة كثيرة الخيرات وفيرة الغلات إلا انها نكدة الحظ في تغلب الامم الغازية عليها ولذلك قلّت عمارتها الى هذه الغايه بعد تغلب الكلدان عليها والفرس الاولى والفراعنة واليونان والروم والفرس الثانية ولا سيما قبيل أن دجا الاسلام وقد كانت تمزقها الحروب التي تسعرت نيرانها بين بني عامر المتغرضين للفرس وآل غسّان المتغرضين للروم فانتقض عمرانها ودرست سبلها وتداعت أحوالها الى الاضمحلال بعد أن كانت جامعتها في عظمة لم يكن مثلها في الدول الا قليلا وكانت التجارة فيها كأعظم ما يكون من النّفاق وللعلوم والصنائع سوق رائجة رابحة فدرست تلك المحاسن وتقلصت تلك الرسوم حتى لم يبق اليوم من مصانعها غير رسوم شاحضة وآثار ناقصة

وانما دعا أهلها الى الفساد وجلب عليهم المذلة وطمع بأبصار الملوك

الى التهامهم ما وقع بينهم من الشقاق وكان في نفوسهم من التحزب الذي هو أشد من الفتنة فكان ظهور المرسلين فيهم سببًا لتعصب بعضهم على بعض وان كانت مواعظهم داعية الى المحبة والاتحاد. وهذا هو الامر الغريب الذى لم يسمع بمثله في البلدان فلقد كانت الشام مهبط الوحى ومسقط النبيين وموطن الاولياء الطاهرين الذين كانوا يتخذون الانصار لنفوسهم ويرومون ادخال الناس في شيعتهم ليجمعوا ما كان شتيتا من شملهم ومتفرقا من كلمتهم وأغراضهم الا أنهم لم يبلغوا من ذلك الغاية التي كانوا يرومونها من أمرهم. فانما وجب على أهل الوطن الواحد أن تكون فيهم جامعة الالفة ولا يتعصبوا بأميالهم الى غير ما يقصدون منه الوحدة فان عظمة الامم لا تحصل الا بالاجتماع والعصبة سنة الله في خلقه. انظر الى الدول الرومية كيف عبث بها العدو حين وقع فيها الانقسام والتجزو. وانظر الى الدولة الاموية لم يقارعها أبو مسلم على الخلافة الا عند ما تخالف عليها صبيتهم فيما يرمون اليه من طمع النعيم وانظر الى أهل البيت السلالة الشريفة والذرية الصالحة كيف وقعت بهم الشدة يوم تفرَّقوا على أغراض لا تجمع بينهم الى الوحدة فلما اجتمعوا فى المغرب الى ادريس بن ادريس رضى الله عنه قام لهم ملك يرجف له الشرق فان تنظر الى ذلك كله والى كثير مما وقع وما هو واقع في الممالك تجد أن الامم لا تقوم دولهم الا برابطة الاجتماع والعصبية ومتى تسقط من روابطهم تلك الاوصال ينذر أمرهم بالانحلال وتتداعى أحوالهم الى التلاشى والاضمحلال.

(وصف دمشق وانها بهجة البلدان)

ولما وفدت على دمشق وسرحت الطرف ناحية الغوطة امتلأت عينى من خضرة الارض حتى خيّلت نفسى في جنة من جنات السماء ولا غرو

فان مياهها وأشجارها ورياحينها لافضل ما في الدنيا من المتنزهات يسير الرجل فى رياضها يومه لا تصيبه أشعة الشمس لالتفاف شجرها بعضه على بعض. وهي في أسمى مقام بين مدن الاسلام بعد دار السلام. قد اشتبكت فيها العمارة وتنزهت عن المثل فى النضارة. لكنها ليست بالمفرطة الكبر وربما كانت الى الطول أميل منها الى العرض وهى لا تخلو من السقايات في شيء من أسواقها ولا بيوتها. ومبانيها طباق فوق طباق وتحتوى من الخلق على العدد الكثير والناس على مذاهب فيمن بناها من الاولين. فمنهم من يقول ان عادًا أول من نزلها من الناس وانها هى إرم ذات العماد ومنهم من يذهب الى أن بانيها الغادر غلام نمرود أو دمشاق بن كنعان. ومنهم من يزعم ان الذي اختطها هو دمشقس مولى الاسكندر الرومي ومنهم من يرى غير ذلك الا أنه ليس على ما يقولون حجة ترجع بهم الى محاسن التحقيق على موثقة الاثار ولا سيما عند الذين يعزون بناءها الى الروم فان الرد عليهم واضح لا يحتمل التأويل بعد أن أتى موسى كليم اللّه على ذكر دمشق في غير ما آية من كتاب التوراة ومهما يكن من اختلاف المؤرخين في ذلك فان هي الا مدينة أولية قد صحبت الملوك من الكنعانيين والروم وآل جفنة وبني أمية دهرًا طويلا ونالت من العزة والعمارة ما قلّ أن يناله غيرها من المدن القواعد ولو كان البناء الذي شاده فيها الملوك من الحجر الصلد ثم بقى ماثلا الى هذه الغاية لكانت دمشق زينة الدنيا ولكنه شُيّد من طين ولبن فأتى عليه الانحلال وادثرت الايام آثاره فلم يبق عنه الا قلعة من الحجر تعزى الى الروم وقصر يقال له قصر جيرون عليه أبواب عجيبة من النحاس وبناء يقال له البريض فيه كثير من العمدان وتزعم العامة أنه كان يجرى منه الشراب في قديم الزمان الا أن اركانه اليوم قيام وقعود. وحيطانه ركّع وسجود وقصران من الحجر لعمر بن عبد العزيز

وللوليد بن عبد الملك فهما جميع ما تخلّف عن ملوك بني أميه لأن ما بجا من آثارهم من معول الزمان لم ينج من معول أبي جعفر كما مر في موضعه من الكتاب

ولقد وجدت أهل دمشق أحسن الناس خلقا وخلقا يكرمون الفقراء ويلتمسون منهم أن يتقبلوا صدقتهم حتى يكونوا هم في صورة السائل ولو أن فقيرًا أعرض عن كسرتهم لقالوا ويحنا لو علم أن فينا خيرًا لتناول من طعامنا وقد بلغني عن فضلائهم انهم يزهدون في الدنيا وينقطعون الى الله تعالى متبتلين في جبل لبنان غير أني لا أطلق هذه الرواية الا على فئة قليلة من الصالحين لأن جمهورهم مائل الى اللهو والطرب ولا سيما في يوم السبت فانهم لا يشتغلون فيه الا بالمجون والتهتك لا يبقى فيه للسيد حجر على المملوك ولا للوالد على الولد ولا للرجل على المرأة وهذا أمر غريب لم أره في غير دمشق ولا أعلم هل النصارى يشاركونهم في ذلك لاني رأيتهم منقطعين عن مخالطة المسلمين في المنازل والاحياء قد تألبوا على كنيسة معظمة عندهم تعرف بكنيسة مريم ويقال انها من أعظم بيعهم بعد بيت المقدس

وبقيت في دمشق ثمانية أيام الى أن وفد الغلمان بالدواب المحملة وكنت قد استقصيت البحث عن هذا الاموىّ الذى أتعب خاطر الرشيد أمره فلم أجد له غرضا في السياسة ولا هو طامع الى ملك ولا امارة ولا يحدّث نفسه بشيء مما يقلق بال الرشيد حتى يخافه على أمره فامسكت عن السعاية به لاني رأيته وهو خلو من هذه الاغراض مثل التاجر الكثير المال والجاه ليس الا وقد تهيأ لي بالاستطلاع على خبره أن أقف على سير غيره من الخلفاء أقاربه متابعة لما نقل الىّ من خبره فوجدت في الاولين منهم عقلا وسياسة الا أنه لما صار الامر الى صبيتهم المترفين استرسلوا في القصف والتهتك وعكفوا على اللذات واستخفوا بأمر

الرعية وغفلوا عن مصالح الملك فأزاله الله تعالى عنهم وألبسهم ثياب الذل بذنوبهم

وقد انتهى ترف ملوكهم الى الوليد بن يزيد وهو الذى أخذت الخلافة بالانحلال بين يديه وتحرك الدعاة في خراسان بما وجدوا فيه من قلة الخبرة بأمور الملك وعكوفه على اللهو والطرب وقيام خلافته بين الكاس والوتر وقد استرسل في التبذير حتى أنفق ما جمعه اجداده في بيت المال لانه أفرط فى الكرم افراطا فاحشا حتى انه لم يقل لا فى سؤال سئله وكان اذا وصل الشعراء عد أبياتهم وأعطاهم عن كل بيت ألف درهم وكان يتأنق بصنوف الملاذ من المطعم والمشرب والملبس فيقال انه لبس القلنسوة من الوشى مذهبة واتخذ العقود من الجوهر كالنساء يغيرها في اليوم مرارًا لشغفه بها وكان يتختم بالياقوت ووقع من خواتيمه الى بنى العباس خاتم بساوى أربعين ألف دينار ويقال فى حسنه انه كان اذا أخرج من محبسه اضاء المكان من شدة لمعانه وكان يسترسل فى الطرب الى أن يوجه رسله فى طلب المغنين من الحجاز وغيره وكان يعاقر معهم الخمر ويشرب الهفتجة وهي الشراب الذي يشربه ملوك الفرس أياما معدودة على غير انقطاع فتبعهم في ذلك واصطنع بركة صبّ فيها الخمر وكان يلقى نفسه فيها من الطرب المفرط ثم يخلع ثيابه على الندمان والمغنين ويسقيهم الخمر بيده وكان اذا سئل عن الشراب وعذل عليه يقول

يا أيها السائل عن ديننا * نحن على دين أبى شاكر
نشربها صرفا وممزوجة * بالسخن أحيانا وبالفاتر

وكان مماجنا ردىء المذهب حتى أنه ترك صوم شهر رمضان المبارك وغشى أمهات أولاد أبيه فتجد أنه لم يثقل أمره على الرعية من وجه واحد وانما هناك وجوه قد ساقت عليه الفتنة فقام الناس عليه وقتلوه شر قتلة هذه نتف من أخباره حدثتني بها مغنية كانت له يقال لها برق الافق

وهى اليوم عجوز تكاد تنال الارض بوجهها من الكبر وقد أخبرتنى في بعض حديثها أن الجوهر كان فى صباها متداولا بين الناس فلما جمعه الوليد بن يزيد من كل وجه وغالى به غلا ثمنه من ذلك الحين وهذا شيء من الافراط فى الترف لم نسمع بمثله عن أحد من الملوك المترفين ومن نظر الى ما كان عليه ملوك بنى أمية من العزة والصولة وما صاروا اليه من الذلة علم أن اللّٰه سبحانه وتعالى لا يغير على عبده نعمة حتى يغيرها العبد على نفسه بارتكاب المعصية

ولما طال مقامي فى دمشق تهيأ لى أن أزور اماكنها المشهورة فزرت موضعا يقال أن هابيل وقابيل نزلا فيه وموضعا يقال له باب الساعات يزعم أهل الاخبار أنه كانت فيه قارة تقدم عليها القرابين فما يقبله اللّٰه منها تبتلعه نار من السماء وما لم يقبله يبقى فى موضعه على الصخرة وزرت مشاهد جماعة من أهل البيت المشرفين والصحابة والتابعين والاولياء الصالحين في جبل قاسيون ومقابر الشهداء وجبانة باب الصغير وبينها قبور ملوك بنى أمية متهدمة والرخام عليها منكسر وزرت قرية فى سفح الجبل المذكور يقال لها برزة يزعم الناس انها مولد الخليل ابراهيم عليه السلام حضين الملائكة والى ما فوقها حجارة مصبوغة بشيء يشبه أن يكون أثر دم عتيق يقولون انها الحجارة التى رضّ بها قابيل رأس أخيه هابيل ثم جره الى مغارة هناك يقال لها مغارة الدم وفى حضيض الجبل مغارة أخرى تسمى مغارة الجوع يزعمون ان سبعين نبيا ماتوا فيها من الجوع وانى لأستحي أن أنقل حديثهم على سمينه فانهم يقولون سبعين ألف نبي كان كل من عاش فى الشام نبى أو ولىّ وفى طرف الجبل مما يلى الغرب ربوة يقول المفسرون انها هي المذكورة فى قوله تعالى «وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين» ويرد عليهم آخرون بأن المراد بها ربوة فى الاسكندرية من ديار مصر

وهناك مسجد يقولون ان المسيح عليه السلام أوى الى مغارة بجانبه وفيه حجر قد انفلق الى شطرين ولم ينفصل أحد الشقين عن الآخر بل اتصلا كرمان مشقوق ولهذا المكان منظر حسن الى البساتين والخضرة فى جميع جوانبه ولا اشراف كاشرافه حسنا وجمالا واتساع مسرح للابصار. وفيه تنقسم مياه المدينة الى انهار سبعة اكبرها نهر يزيد ونهر ثورى وهما فيه نهر واحد يعرف بنهر بردى وهناك بعض قرى مثل نيرب ومزة والسهم والسطر وفيها الجوامع والمرافق والحمامات الا أنه لا يظهر منها الا ما سما بناؤه لتطاول الشجر عليه وفيها من الفواكه والتفاح والخوخ المسمى عندهم بالزراقن وسائر الثمار ما ليس فى البلاد مثله صحة وطيبا والى ما يليها من طرف الجبل موضع يقال له عين برما كان معمورًا لأيام معاوية بن أبى سفيان بجماعة من أهل خراسان ثم توالى عليه الخراب بظلم الخلفاء بعده حتى أصبح الى هذه الغاية قليل العين. وبقى الاثر من عمارته وذهب العين

ولقد كانت دمشق فيما خلا من الزمن الغابر ممزوجة بصنوف غير محصية من فضلات العمران ويعيبها كثرة الوحول فى ازقتها وتراكم الطين في ساحاتها فلما أقام فيها الامويون شرعوا فى ازالة الاقذار منها وقاية من الطاعون الذى كان يقع بها تباعا فى السنين السالفة وهذا هو الاثر الذى تشهد لهم البلاد به كما تشهد لهم الآثار الباقية عنهم بتشييدهم البناء على الهندسة التى ليس أعظم منها وقعا فى القلوب ولا أتم حسنا وجمالا فى العيون كالذى يبلغنا عما بنوه في الاندلس من القصور التى حارت فى جمالها عقول الفرنجة فقد شاهدت دار الوليد بن عبد الملك من قصورهم فى دمشق فوجدتها بديعة الحسن مبنية بالحجر والصفاح والاعمدة مفروشة بالرخام الاخضر وهي تتناهى بالبهاء والاشراق الى أن يضرب بها المثل فى احكام رسومها وجلالة بنيانها ولو لم يكن من تمام زينتها الا

الاعمدة المزخرفة منصوبة فى اروقتها فرادى وأزواجا لكفى البصائر روعها ووسع الابصار ابتهاجا. وأذكر أنه لما أدخلنى صاحب الوقوف رياضها لمشاهدة ما فيها من الاشجار الغريبة لم يتحول نظرى عن القصر لما راعنى من حسنه المفرط وأعجبت به من الزينة التى يكبرها الناظر ويقف عندها وقفة الذاهل الذى به عقدة من السحر وهو بين أساطين دقيقة وقباب رفيعة ورواشن مخرمة وخرجات مزينة وطيقان مجسمة بالجص المنقوش وبينها من الرسوم العجيبة ما تجول فيه الافكار فتجله وتميل اليه الابصار فلا تملّه.

(جامع الوليد المعروف بالجامع الأموى)

هو أفخر مأثرة لملوك بنى أمية بناه الوليد بن عبد الملك صاحب القصر المتقدم ذكره وكان ذا همة في تشييد العمارات والمساجد والقصور وقد شملت عنايته جميع البلدان في تسهيل الثنايا وحفر الآبار واصلاح الطرق حتى كان الناس فى أيامه اذا تلاقوا فى الاسواق والمجالس تساءلوا عن العمارة وعن أى بناء شرع فيه خليفتهم كدأبهم فى التساؤل عن الخبر والصلاة فى أيام عمر بن عبد العزيز وعن الطعام في ايام سليمان بن عبد الملك وعن اللهو فى أيام يزيد بن الوليد وليس فى بلاد الاسلام كلها مثل هذا الجامع حسنا واتقانا وجمال رسم وتمام زخرفة وزينة وهو مائل الى الجهة الشمالية من المدينة وقد سمعت عن سفيان الثورى أنه قال الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة

كان موضعه قبل الاسلام بيعة للنصرانية تعرف بكنيسة مار يحنا ومن قبل ذلك كان بيت عبادة لاهل جاهليتهم فلما دخل المسلمون المدينة عنوة تحت قيادة خالد بن الوليد أخذوا نصف الكنيسة ثم دخل أبو عبيدة بن الجراح صلحا فانتهى الى نصفها الآخر وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى

فبقى نصفها فى أيديهم وقد كانوا يزعمون ان الذى يهدم بيعتهم يجنّ فلما صارت الخلافة الى الوليد قال أنا والله أول من يجن فى سبيل الله ثم بدأ الهدم بيده فبادر المسلمون وأكملوا تخريبها حتى هاجت النصرانية وعلا صياحهم فعوضهم الوليد عنها مالا جسيما وأرضاهم بعدة كنائس صالحهم عليها ثم وجّه الى ملك الروم فى إشخاص اثنى عشر ألفا من العملة والصناع والمرخمين وتقدم اليه بالوعيد ان هو توقف ثم أكمل هدمها سوى حيطانها وأنشأ فيها النسر والقناطر وحلاها بالذهب وعلق عليها الاستار من الوشي والابريسم وبقى العمل فيها نحوًا من تسع سنين وكان يعمل فيها ألف مرخم يُجلب اليهم الرخام والمرمر من كنيسة أخرى لأمم النصرانية بمدينة انطاكية تعرف بمزور

وقد غرم الوليد على هذا الجامع من الدنانير المصرية زنة مائة وأربعة وأربعين قنطارًا بالدمشقى وذلك يعادل عشرة آلاف ألف دينار وقرأت فى بعض المجاميع ان جملة المنفوق عليه كان اربعمائة صندوق وفى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ففى القدر الحاصل منه توافق بين الروايتين. وكان المتولى على النفقة عمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة وقد اتخذ فى المسجد ستمائة سلسلة من الذهب للقناديل والثريات ونزل جدرانه بفصوص الذهب من الفسيفساء ممزوجة بانواع من الاصبغة العجيبة تمثل أشكالا من الرسوم ليس أبهج منها فى العيون ورفع عمدانه من الرخام المجزع طابقا فوق طابق واتخذ الاساطين الضخمة فيما يحارى الارض والسوارى الدقاق فيما يعلو الحنايا والقباب وفى خلال ذلك صور المدن والاشجار بالالوان والذهب وكتب فى حائط المسجد بالذهب على اللازورد «ربنا الله لا نعبد الا الله أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه عبد الله الوليد امير المؤمنين فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين»

أما طول هذا الجامع (وذلك من الشرق والغرب) فهو مئتا خطوة أو ثلاثمائة ذراع وعرضه من القبلة الى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة. وأبوابه اربعة. أولها الباب الشرقى ويعرف بباب جيرون وعليه عمودان من الحجر فى غاية الافراط فى الطول والعرض يقال انهما من بقايا الكنعانيين اذ ليس فى وسع أهل هذا الزمان قطعهما ولا نقلهما. ثم الباب الشمالى ويعرف بباب الناطفيين وكان مدخل الكنيسة قديما. ثم الباب الغربىّ ويعرف بباب البريد. ثم الباب الجنوبىّ ويعرف بباب الزيادة وهو يفضى بالخارج منه الى دار معاوية المعروفة بالخضراء وكان قد نزلها مروان بن الحكم بعد واقعة مرج راهط كما هو معروف وفيه ثلاثة مقاصير أشرفها المقصورة التى اتخذها معاوية رضى اللّه عنه عند ما كان للمسلمين نصف الكنيسة وتعرف بالمقصورة الصحابية وهى أول مقصورة صنعت فى الاسلام بناها هذا الرجل العظيم وقاية لنفسه من الخوارج أن يغتالوه فى أوقات الصلوة كما اغتالوا عليا عليه السلام فكان اذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف والى جانب هذه المقصورة خزانة مغشاة بالنقوش فيها المصحف الكريم الذى وجّهه عثمان ابن عفان رضى اللّه عنه الى الشام وأخرج الىّ منها صاحب الوقوف خاتما من الفضة للوليد بن عبد الملك قد نقش عليه «يا وليد انك ميت ومحاسب» وآخر لاخيه سليمان وكلماته «آمنت باللّه مخلصا» فاخذتهما لأطرف بهما المأمون عند عودتى الى بغداد ليضيفهما الى ما لديه من خواتم الخلفاء. وعلى هذا الجامع قبة دورها ثمانون خطوة عليها رصاص تمتد منها الى أن يغطى سطوح الجامع كلها بألواح طولها أربعة أشبار فى عرض ثلاثة وربما اعترض فيها نقص أو زيادة. وهيئة السقوف من الخارج هيئة نسر قد نشر جناحيه وكأنما القبة رأسه وهى فى سمو الارتفاع بحيث تراها من أى موضع استقبلت دمشق. أما صحن المسجد فانه من أجل المناظر وعلى جدرانه آيات من القرآن

الكريم ورسوم بالذهب تدهش البصر والبصيرة وهناك مجتمع الدمشقيين ومنتزههم لا يزالون فيه بكرة وعشية يقرؤن ويتحادثون

ولهذا الجامع ثلاث صوامع واحدة بالجانب الشمالىّ وهى مذهبة من أسفلها الى أعلاها وفيها مقاعد ومجالس واثنتان بالجانب الغربي واحداهما أكبر الصوامع الثلاث. وقد وجدت فى أروقته ودهاليزه وصحنه وفى المساجد المتشعبة منه ماء يجرى بلا انقطاع وشاهدت فى البلاط القبلى قبالة الركن الايمن من المقصورة الصحابية تابوتا معترضًا من الاسطوانة وفوقه قنديل موقد أبدا في الليل والنهار يقال انه مشهد رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام ومن حوله عمد عجيبة قد طهرت فيها عروق أخرى من ألوانها تتخيلها العين منزله فيها بايدى الصناع الى غير ذلك من المحاسن التى حواها هذا الجامع المبارك وعظمت عن ان تحاط بوصف فانى لأحسب الزائر لو تردد اليه زمانه لرأى كل يوم ما لم يكن قد رآه قبل من جمال الرسم واحكام الصنعه كما أحسب انه لا يزوره احد الا ويجدّد الدعاء لبانيه وان لم يكن له ميلٌ فى السياسة مع الامويين

جرجي زيدان

١٨٦١ — ١٩١٤

الفصل التاسع عشر

من رواية ارمانوسة المصرية

عمرو بن العاص

ولما كان الصباح التالي افاق مرقس من غوضاء الجند فنهض مذعورًا وهو لا يعلم السبب فاذا بهم قد تجمهروا وخرجوا من المعسكر ينظرون الى جهة البر ورأى غبارًا يتصاعد في عرض الصحراء والناس يتطاولون باعناقهم وقد علا ضجيجهم وفي مقدمتهم يوقنا يحر رداءه تيهًا وقد احاطت به حاشيته وكلهم ينظر الى جهة الغبار فسأل مرقس عن سبب ذلك فقيل له ان العرب قادمون فتظاهر بانه عالم بقدومهم لئلا يستغشوه ثم علم انه جند عمرو بن العاص القادم لفتح مصر فلبث واقفا في جملة الواقفين وقد نسي رجل الامس على انه حاول ان يراه فيمن حوله من الناس فلم يره فعوّل على ان يستطلع مكانه بعد ذلك.

ونظر الى موكب يوقنا فاذا هو مؤلف من حاشيته وكلهم في اللباس الروماني الا يوقنا فقد لبس العمامة وتقلد الحسام وسمع الناس ينادونه باسم عبد الله فتحقق لديه اذ ذاك انه اعتنق الاسلام لا محالة وخصوصًا لما راه مستبشرًا بقدوم جيش العرب.

ثم جيء اليه بفرس من جياد الخيل ركبه وركب معه جماعة من رجاله وخرجوا للقاء العرب فلبث مرقس واقفًا ينظر الى موكب يوقنا ذاهبًا وجند

العرب يتقدم حتى انكشف الغبار من جند عظيم يتقدمهم الفرسان على خيول عربية تسابق الرياح والاعلام تخفق فوق رؤوسهم يحملها القواد وغيرهم وفي المقدمة رجلان على هجينين فعلم انهما الدليلان يقودان الجند ومن ورائهما الفرسان وفي مقدمتهم فارس على جواد من خيل اليمن وعليه العدة والسلاح وفي ركاب الفرسان جماعة من العبيد يسوسون الخيل فلما التقى الفريقان ترجل يوقنا وترجل فرسان العرب وتقدم يوقنا الى واحد منهم هو كبيرهم وتصافحا وتعانقا ثم سلم على الباقين بين مصافح وغير مصافح وعاد يوقنا معهم وقد اخذ كبيرهم بيده فسأل مرقس عن اسمه فقالوا له هذا هو البطل الشهير عمرو بن العاص وكان قد سمع به كثيرًا فتفرس فيه جيدًا فاذا هو قصير القامة وافر الهامة ادعج ابلج عليه ثياب موشاة كأن به العقبان تاتلق عليه حلة وعمامة وحبة وقد احاط به وبيوقنا رجال من كبار العرب يهللون ويكبرون فتنحى مرقس جانبًا ليرى مقدار الجند فاذا هم مائتون تلك الصحراء وفيهم الفرسان والهجانة والمشاة وحملة الاعلام وقد لبس كبارهم العمائم الخضر وتقلدوا السيوف والخناجر واما المشاة ففيهم نقلة الرماح ونقلة النبال فجعلوا يتفرقون كل جماعة الى ناحية يتقدمهم علم خاص بهم ينصبون الخيام ويضربونها واوّل خيمة ضربت فسطاط الامير وهو خيمة كبيرة مبطنة بالحرير الاحمر نصبوها على اعمدة من القصب الهندي وضربوا اطنابها وفرشوا ارضها بالبسط والطنافس وهيأوها لاستقبال الامير اما عمرو فسار مع يوقنا حتى دخلوا خيمته للاستراحة فلبث مرقس ليشاهد بقية الجند وقد اراد ان يعرف مقدارهم فعلم انهم لا يزيدون على اربعة آلاف وبعد ان تفرقت الجند فرقًا ونصبوا الخيام جماعات وصلت جمال الساقة ومعهم الهوادج والاحمال وفي الهوادج النساءُ والاولاد وهم يصيحون ويغنون او هو الحداء فانزلوهن على مسافة من الجند ونصبوا لهنّ الخيام.

فتحوّل مرقس الى خيمة الامير فراها قد شغلت بقعة كبيرة من الارض ولكنه لم يشاهد في فرشها كرسيًّا ولا مقعدًا كما كانت الحال بخيم الرّوم اذا نزلوا وشاهد امام الخيمة علما هائلا عليه رسوم كأنّها كتابة باللسان العربي لم يفهمها.

اما جند الروم فكانوا يتهللون ويرحبون بجند العرب كأنّهم كانوا قد فارقوهم على موعد. ففهم من جملة ذلك انهم كانوا قد جاؤا هناك في انتظار وصولهم.

ثم تحوّل نحو خيمة يوقنا فرأى عمرًا قد خرج منها وسار نحو خيمته يصحبه كبار قواده فاقترب منها على قدر ما مكنته حاله فاذا بعمرو قد جلس في صدرها على وسادة من الحرير مربعًا وجعل السيف على فخذه والى كل من جانبيه رجال من العرب في مثل لباسه ويوقنا بين يدي عمرو يترجم به وبينهما ترجمان كان قد شاهده قادما مع عمرو يحمل العلم فسمع عمرًا يناديه «وردان» فعلم ان ذلك اسمه.

وبعد هنيهة سمع قراءة باللسان العربي وتجويدًا فنظر فراى رجلًا عربيًّا جالسًا في بعض جوانب الخيمة يقرأ عن ظهر قلبه بنغم مطرب والناس جلوس ووقوف مصغون يطربون لسماع ذلك النغم ثم التفت بغتة الى من حوله فاذا بالرجل الذي كان قد شاهده بالامس واقف الى جانبه فاراد ان يخاطبه فسأله عن اسم الرجل الجالس في صدر المكان فقال باليونانية هو الامير عمرو بن العاص فلحظ مرقس من لهجته انه دخيل على اللسان الرومي فخاطبه بالقبطية وسأله عن هذا التجويد فقال انهم يقرأون كتابًا عندهم اسمه القرآن وهي عادة يتبرّكون بها فرأى مرقس ان اللسان القبطي ايضًا ليس لسانه فرغب في الاستفهام عن حاله فقال له وبأي لسان يقرأون. قال باللسان العربي. فقال وهل تفهم لسانهم قال نعم افهمه جدًّا وهو لساني واما انت فما لسانك فقال اني من جند

الروم قال ولكنني اراك تتكلم القبطية وملامحك قبطية فهل انت من اهل مصر

فاضطرب مرقس عند ذلك وخاف ان ينكشف امره فقال قلت لك اني من جند الروم وفيه من سائر الملل.

فتبسم الرجل وقال بالقبطية همسًا ولكن قل ولا تخف الحقيقة عني اني لا اريد بك سوءًا ولعلك اذا صدقتني ان تنال خيرًا.

فتحير مرقس بماذا يجيبه وسكت برهة لا يتكلم.

فادرك الرجل انه يدافعه ويريد اخفاء امره فعاوده السؤال قائلا قل ولا تخف فانني اعرفك ولو اخفيت حقيقة حالك ما خفيت عني.

فقال مرقس واظنني اعرفك ايضا وكأنني رأيتك قبل هذه المرة في الاسكندرية.

فقال عند ذلك انت اذًا مرقس تابع المقوقس فاختلج قلب مرقس في صدره وخاف عاقبة الامر فقال له الرجل لا تخف اني لك نصير فهل عرفتك ام انا مخطىء.

قال اصدقك الخبر اني الرجل الذي ذكرته ولكن اين رأيتني.

قال رأيتك وقد جئت بيت يحيى النحوي الاسكندراني بعد انحيازه لجماعه اليعاقبة مع سيدك المقوقس الا تذكر ذلك.

قال نعم اذكر ذلك جيدًا فانت اذن زياد العربي.

قال نعم انا هو زياد فلا تخف فهل جئت هذا المعسكر تتجسس حال العرب.

قال لا والله وانما ساقتني اليه التقادير عن غير قصد مني وانت ما الذي جاء بك الى هذا المكان هل تأذن لي بالسؤال عن ذلك.

قال اما مجيئي الى هذا المكان فقد كان بمهمة لا اخفيها عنك على اني لا اخافك وقد علمت حقيقة حالي فقد آنست بك اخلاصًا.

قال ان ظنك في محله واني اعد نفسي سعيدًا لاجتماعي بك وقد رايتك بالامس وآنست فيك خيرًا وكنت منشغل البال لاستطلاع حالك منذ كنت جالسًا على الاكمة خارج المعسكر مساء الامس وبيدك الرق فافصح ولا تخف.

قال انا زياد العربي ولا يخفى عليك ان وجودي في الاسكندرية كان بالاتفاق اذ قلّ وجود العرب في بلادكم واما قصتي فساقصها عليك على انفراد لئلاّ يسمعنا الجند الرومي نتكلم القبطية فيستغشونا والافضل تأجيل حكايتي الى المساء على انفراد.

قال حسنًا فلنتكلم الآن بالرومية فاني اريد الاستفهام منك عن بعض ما اشاهده في هذا الجيش وقد عجبت لحال هذا الامير وسررت لما ارى في وجهه من الصباحة وما يتجلى في محياه من الشجاعة والشهامة ولا عجب اذا ساد العرب على الدنيا بأجمعها اذا كانت هذه حالهم وهل عرفت شيئًا عن حال يوقنا هذا فاني اراه روميًّا ولكنه يلبس العمامة ويتزيا بزي العرب وهذا جنده في لباس الروم.

فتبسم زياد كأنه يفتخر بجنس العرب وقال ان العرب اهل شهامة واقدام وشجاعة ولا غرو اذا فتحوا الامصار واخضعوا الملوك وانظر الى ابن العاص فانه من خاصة رجالهم وانا اعرفه منذ كان جاهليًّا وهو يعرفني جيدًا ولعله اذا رآني الآن ان يناديني باسمي ويرحب بي ويجلسني الى جانبه ولكنني لا أريد ان يكون ذلك بمحضر من الناس اكرامًا لمن ارسلني لانه يود ان تكون رسالته سرية.

فقال ومن هو هذا الترجمان الذي ينقل الكلام بين يوقنا وعمرو.

قال هو وردان مولى عمرو ويعرف اليونانية والعربية جيدًا ويعرف القبطية ايضا وانا لا اعرفه قبل الآن ولكني فهمت ذلك من كلامه وسأعرف الليلة حكايته وحكاية هذا الجند واطلعك عليها.

فقال مرقس احب كثيرًا ان اعرف حقيقة حالك وما جئت من اجله لكي يكون كلامنا اكثر ايضاحًا.

قال تعال ننفرد جانبًا. واخذه بيده وخرجا من المعسكر والجند منشغل بشؤونه ولم يلتفت اليهما احد حتى وصلا الى مأمن فجلسا.

فقال زياد اسمع يا مرقس فاقص عليك خبري على شرط ان تحكي لي حكايتك وما جئت بشأنه تمامًا. قال اقسم برأس سيدي المقوقس وحرمة الصليب اني اخلصك القول.

قال وانا اسمي زياد كما تعلم واما سبب دخولي الاسكندرية وتمصّري واعتناقي النصرانية فهو اني كنت من رفقاء عمرو بن العاص مذ كان في الجاهلية اعني قبل ان ظهر الاسلام وانتشر وكانت ديانتنا الوثنية كأكثر عرب الجاهلية وكنت مرافقا لعمرو حيثما توجه وكنا نحمل تجارة على جمالنا الى بيت المقدس في جماعة من قريش فمررنا يومًا بضواحي تلك المدينة فاذا بشماس من شمامسة الرّوم من اهل الاسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسيح وكنّا وعمرو نرعى ابلنا وكانت رعية الابل نوبا بيننا فبينما عمرو يرعى ابله اذ مرّ به ذلك الشماس وقد اصابه عطش في يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه من قربة له فشرب حتى روى ونام الشماس مكانه وكانت الى جنب الشماس حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها بهم فقتلها فلما استيقظ الشماس نظر الى حية عظيمة قد اجتاه الله منها فقال لعمرو ما هذه فاخبره انه رماها فقتلها فاقبل الى عمرو فقبل رأسه وقال قد احياني الله بك مرّتين مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية فما اقدمك هذه البلاد قال قدمت مع اصحاب لي نطلب الفضل في تجارتنا فقال له الشماس وكم ترجو ان تصيب في تجارتك قال رجائي ان اصيب ما اشتري به بعيرا فاني لا املك الا بعيرين فآمل ان اصيب بعيرًا آخر

فتكون ثلاثة ابعرة فقال له الشماس أرايت دية احدكم بينكم كم هي قال مائة من الابل فقال له الشماس لسنا اصحاب ابل انما نحن اصحاب دنانير قال تكون الف دينار فقال له الشماس انى رجل غريب في هذه البلاد وانما قدمت أصلي في كنيسة بيت المقدس واسيح في هذه الجبال شهرًا جعلت ذلك نذرًا على نفسي وقد قضيت ذلك وأنا أُريد الرجوع الى بلادي فهل لك ان تتبعني الى بلادي ولك عليّ عهد الله وميثاقه ان أعطيك دينين لان الله عزّ وجل احياني بك مرتين فقال له عمرو اين بلادك قال مصر في مدينة يقال لها الاسكندرية فقال له عمرو لا اعرفها ولم ادخلها قط فقال له الشماس لو دخلتها لعلمت انك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو وتفي لي بما تقول ولي عليك بذلك العهد والميثاق فقال له الشماس نعم لك والله عليّ العهد والميثاق ان أفي لك وان اردك الى اصحابك فقال عمرو وكم يكون مكثي في ذلك قال شهرًا تنطلق معي ذاهبًا عشرًا وتقيم عندنا عشرًا وترجع في عشر ولك عليّ ان احفظك ذاهبًا وان أبعث معك من يحفظك راجعا فقال له عمرو انظرني حتى اشاور اصحابي في ذلك فانطلق عمرو فشاورنا بما عاهد عليه الشماس وقال لنا تقيمون عليّ حتى ارجع اليكم ولكم عليّ العهد ان اعطيكم شطر ذلك على ان يصحبني رجل منكم آنس به فقلنا نعم وبعثوني معه فانطلقنا مع الشماس حتى انتهينا الى مصر فرأينا من عمارتها وكثرة اهلها وما بها من الاموال والخير فقال عمرو للشماس ما رايت مثل ذلك ومضينا الى الاسكندرية فنظر عمرو الى كثر ما فيها من الاموال والعمارة وجودة بنائها وكثرة اهلها فازداد عجبًا. ووافق دخولنا الاسكندرية عيدًا فيها عظيمًا يجتمع فيه ملوكهم واشرافهم ولهم كرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها باكمامهم وفيما اختبروا من تلك الكرة على ما وصفها من مضى منهم انها من وقعت الكرة في كمه واستقرّت فيه لم يمت حتى يملكهم. فلما قدمنا

الاسكندرية اكرمنا الشماس الاكرام كله وكسا عمرًا ثوب ديباج البسه اياه وجلس عمرو والشماس مع الناس في ذلك المجلس حيث يترامون بالكرة وهم يتلقونها باكمامهم وانا جالس على حدة فرمى بها رجل منهم فاقبلت تهوى حتى وقعت في كم عمرو فعجبوا من ذلك وقالوا ما كذبتنا هذه الكرة قط الّا هذه المرة أترى هذا الاعرابي يملكنا هذا ما لا يكون ابدًا ثم مشى الشماش في اهل الاسكندرية واعلمهم ان عمرًا احياه مرتين وانه قد ضمن له الفي دينار وسألهم ان يجمعوا ذلك له فيما بينهم ففعلوا ودفعوها الى عمرو فانطلق ومعه دليل يريه الطريق اما انا فلما رأيت الاسكندرية وما فيها من العظمة واسباب الرفاه فضلت البقاء فيها فاستأذنت عمرًا بذلك فانكر عليّ الامر فقلت بل ابقى فاذا لم أرَ راحة عدت اليك فتركني ومضى وبقيت انا. وكان في جملة من شاهدنا من رجال الاسكندرية عالم كبير هو يحيى النحوي وكان يعرف شيئًا يسيرًا من اللسان العربي فامسكني عنده لاعلمه لساننا هذا او لعل له غرضًا آخر لم اعلمه فسررت ببقائي عنده و عجبت بزينة الاسكندرية وبذخها وعمارتها ولم تمض عليّ مدة في بيت هذا الرجل حتى تعلمت اللسان الرومي واحببت ديانة النصارى وفضلتها على ما كنت فيه من احوال الجاهلية فعمدوني وصرت نصرانيًّا وبقيت في بيت يحيى هذا وقد علقت به لعظم ما لاقيته من حسن سريرته وتقواه وعلمه.

ثم حصل ما حصل بينه وبين جماعة الروم من الاختلاف المذهبي وانحاز الى حزب الاقباط اليعاقبة فاضطهدته الروم اضطهادًا شديدًا وجردوه من سائر رتبه واملاكه فانزوى بنفسه كما تعلم فقال لي اسمع يا زياد ها اني قد اصبحت مضطهدًا وربما لا أستطيع القيام براحتك او لعل في وجودك عندي ضررًا عليك من جماعة الروم فاذا رأيت ان تذهب اليهم فافعل.

فثارت فى رأسي الحمية العربية وقلت والله اني لا انفك عن ولائك

فانّا نحن العرب اذا آكلنا انسانًا او آخيناه كان لنا ما له وعلينا ما عليه فانا باق على ولائك قوام بخدمتك ما استطعت الى ان يقضي اللّٰه بما يشاء فبقيت عنده اقوم بخدمته طاقتي الى ان سمعنا بظهور الاسلام وانتشاره ونهوض رجاله للفتح وما فتح اللّٰه على ايديهم من الامصار كالشام وغيرها وعظمت شوكتهم وتوطدت دولتهم ونحن في الاسكندرية نقاسي العذاب الوانًا من جراء الاضطهاد الذي يسومنا اياه الرّوم لاننا على غير مذهبهم كما تعلم وكنت قد علقت بيحيى هذا وعلق بي وصار يأتمنني على أسراره ويركن اليّ بسائر شؤُونه فبعث اليّ ذات يوم فجئته فقال لي ما رأيك يا زياد.

قلت بماذا يا سيدي.

قال اني ارى من ظلم هؤلاء الرُّوم وعتوهم وعسفهم ما كادت تزهق له روحي وقد سمعت بما قام له عرب الحجاز هذه الايام وما فتحوه من الامصار حتى اخرجوا الرّوم من الشام والعراق وغيرهما وقد علمت انهم قادمون الى مصر بامارة صاحبك عمرو ويلوح لي انهم سيفتحونها عنوة كما فتحوا غيرها من الامصار وقد اخبرني بعض الرهبان الذين فرُّوا من وجوههم من دمشق وغيرها انهم اقوام اشدّاء يصبرون على الحرب صبر الاسود لا يهابون الموت ولا يخافون السيوف وانهم مع ذلك اهل مروَّة وذمام فاذا جاؤوا مصر لا اظنهم الا فاتحيها لا محالة ولا يخفى عليك ايضًا ان جماعة القبط يكرهون الرّوم لما بينهما من الاختلاف المذهبي المشهور والمقوقس رئيس القبط وهو حاكم البلاد على مذهبهم وقد اوعز اليّ سرًّا انه يفضّل العرب على الرّوم اذا ضمنوا له حياته وعاهدوه على الدفاع عن القبط ولكن المقوقس لا يستطيع المجاهرة برأيه هذا ولا يرى وسيلة لايصاله الى العرب وقد وكل اليّ ان ابلغ رسالته هذه الى العرب ولا ارى رجلا اثق به واركن اليه غيرك وخصوصًا لانك تفهم لسانهم وتعرف قائد حملتهم نفسه فانت

افضل من ننتدبه لهذه المهمة فهل لك ان تقوم بها وهل تظن العرب اذا عاهدوا على امر قاموا بعهدهم.

قلت نعم يا سيدي ان العرب اكرم الناس اخلاقًا واوفاهم عهودًا ولك في خادمك هذا دليل واضح وانا واثق ان العرب اذا عاهدوكم على امرٍ قاموا بعهدهم.

فدفع اليّ كتابًا مكتوبًا على رقٍّ من البابيروس باللسان القبطي وهو الذى رأيته بيدى امس وقال لي خذ هذا الكتاب واذهب الى معسكر العرب حتى تلتقي به فادفعه الى عمرو بن العاص بعد ان تشرح له الحالة شفاها فحملت الكتاب وخرجت من الاسكندرية ابحث عن العرب ومقامهم حتى علمت انهم قادمون الينا وسينزلون هذا المكان فجئت صباح البارحة فوصلت هذا المعسكر فرأيته للرُّوم وفيه بعض العرب فاختلطت بهم وتظاهرت اني من عرب غزة واني رافقتهم وان ثيابي هذه سلبتها من عساكر الرّوم هناك ولبستها فعلمت منهم ان عمرًا سيصل قريبا الى هذا المكان فقلت لاصبرنّ حتى يجيء واقضي مهمتي.

فلما سمع مرقس قصته استوثق منه واركن اليه وعلم انه على دعوته وانهما شريكان في الامر ولكنه استغرب حكاية عمرو واستبشر بوقوع الكرة في كمه وقال يلوح لي يا زياد ان الكرة لم تخطئ موضعها ثم عاد الى ما شغل باله من أمر يوقنا فقال وهل علمت امر يوقنا هذا وسبب اسلامه قال علمت من بعض رجال العرب هنا انه كان حاكمًا على مدينة حلب من بلاد الشام وانه لما رأى فوز العرب وشدّة بطشهم وقد فتحوا مدينته انحاز اليهم واعتنق ديانتهم واما رجاله فهم مطيعون له في حزبه ولكنهم في الغالب باقون على ديانتهم.

فتذكر مرقس حينئذٍ ما قاله له رسول يوقنا الذاهب الى ارمانوسة فقال في نفسه ان الرجل مخادع ممارق واظنه يريد بسيدتي ارمانوسة سوءًا

يتظاهر انه قادم بامر قسطنطين ابن هرقل وهو انما يريد حملها لنفسه والله لاكيدنّ به كيد.

فقال زياد ها اني قد اطلعتك على حقيقة امري فما هي حقيقة امرك.

قال مرقس ارى يا اخي بين حكايتى وحكايتك مشابهة وما يهم الواحد يهم الآخر واحكى له ما جاء من اجله بشأن ارمانوسة وتجسس الجند ثم قال ولكني في شاغل الآن على سيدتي ارمانوسة ولا ادري كيف انقذها فقد بعث اليها يوقنا يدعي انه مرسل من قبل قسطنطين خطيبها وقد علمنا الآن انه انما جاءَ نصيرًا للعرب على فتح مصر فاية علاقة بين الامرين والله لا اراه الا يريد شرًّا بسيدتي وقد اصبحت في قلق عليها من اجل ذلك فما رأيك.

ففكر زياد قليلًا ثم قال لا تبال بهذا الخائن فاني على يقين من حسن ذمام العرب واذا اخبرنا عمرًا بحقيقة الامر وعاهدناه على صيانتها وحفظها فانه يقوم بعهده وغدًا ان شاء الله ادخل عليه واطلعه على جلية الخبر واذا شئت ان تكون معي فانك ترى بعينك وتسمع باذنك ما قلته لك عن شهامة العرب وكرم اخلاقهم ولكنني اود ان ادخل عليه بلباس البدو لكي يعرفني حالما يراني.

فتذكر مرقس الثياب التي حملها من بلبيس بزي البدو فقال ان عندي ثوبًا عربيًّا حملته من بلبيس فهل تريد ان تلبسه ففرح زياد به وقال اود كثيرًا ان ادخل عليه به فاين هو.

قال قد خبأته في مكان وسأعطيكه الليلة ثم رجع الاثنان وقد سرّ كل منهما بالآخر وقضيا بقية ذلك اليوم يطوفان المعسكر يتفرّجان حتى كانا خارج المعسكر فاذا بعبيد العرب قد خرجوا يقطعون الحطب للنيران ولما امسى المساءُ ظهرت الوقود وكان امام خيمة كل امير قرى وقد مدت الاسمطة وذبحت الذبائح وجلس الناس للطعام

ولما غابت الشمس سمعا المؤذنين وقد قام المسلمون للوضوء والصلاة فبعد تناول الطعام اجتمع الامراء الى خيمة عمرو وبين ايديهم قراءُ القرآن يتلون الآيات والناس يذكرون ويكبرون ويشكرون الله على ما اتوه من النعم ويسألونه النصر على الاعداء.

فقضيا تلك الليلة في معسكر يوقنا لانهما كانا في لباس الروم مثل عسكره وبكرا في الغداة فلبس زياد لباس البدو فالتحف الشملة وتعمم بالعمامة وسارا من معسكر يوقنا حتى وصلا معسكر عمرو فدخلا بين الخيم فاذا بالعرب قد قاموا للصلاة وكلهم ركع يصلون وشاهدا على كثير منهم ثيابًا رومانية ودروعًا واسلحة وادوات من ادوات الروم يستعملونها في قضاء حوائجهم فقال زياد انظر يا مرقس الى آثار النصر وبقايا الفتح ان هؤلاء العرب لم يذوقوا عمرهم مثل هذه الالبسة ولا رأَوا مثل هذه الادوات التي قد غنموها من الروم في حروبهم بالشام. وكانا قد شاهدا بين هؤلاء البدو كثيرًا من الاثاث الروماني كالابسطة والطنافس وعليها رسوم رومانية وفيها رسوم بعض القديسين والابطال قد فرشها العرب على التراب يجلسون عليها او يلتحفونها وبين ايديهم طسوت من الفضة وصحف من ابدع الصنائع وكلها اسلاب من مدن الشام.

الفصل الثاني والعشرون

من رواية العباسة اخت الرشيد

محمد الامين

فلما ابطأ الفضل قلق الامين فانصرف الى شرفة في قصره تطلُّ على دجلة وجلس وعيناه شائعتان لعله يجد الفضل عائدًا في القارب. فلما انقضى وقت الظهيرة ولم يعد مَلَّ الامين الانتظار فخرج الى الحديقة ومعه ابن عمه جعفر بن الهادي يتفرجان بما فيها من الاقفاص الكبيرة كانها

البيوت وفيها اصناف الطير الملوَّن المجلوب من بلاد الهند واواسط افريقيا والاقفاص المتينة المصنوعة من شبك الحديد الغليظ في بعضها اسودٌ وفي الآخر فيلة او نمور. ولما فرغا من التفرج والفضل لم يأت امر الامين صاحب كباش المناطحة ان ياتي بها للمناطحة بين يديه ومضى الى مجلس في وسط الحديقة يظلله عريش عال. وهو يهمّ بالدخول اليه مع ابن عمه اِذ جاءَه بعض الخدم ان الفضل قادمٌ فأمر باستقدامه الى العريش وهو يظن الجواري معه.

اما الفضل فدخل البستان ماشيًا وقد شاهد الامين وابن عمه يتحوَّلان الى العريش وهما بلباس المنادمة. والبستان مقسوم الى مغارس بينها طرقات مفروشة بالحصباء الملوَّنة يتخللها اغراس من الاشجار المتنوعة ذات المناظر الجميلة ومنها المولد في بغداد والمجلوب من بلاد الهند وخراسان وتركستان وما بين ذلك من اصناف الرياحين وازهارها البديعة الالوان وكلها في مغارسها على احسن هندام يتعهدها البستاني بالمقراض يقلد بها اشكال الحيوانات فيجعل بعضها بشكل الطاووس او غيره من الطيور الجميلة والبعض الآخر بشكل الحيتان او بعض الوحوش الكاسرة كالاسد والنمر. فيمرّ الرجل وحواليه الاشجار والانجم والاعشاب من كل صنف ولون ورائحة وهو يحسب بعضها اسودًا رابضة او طيورًا دارجة مما يسحر الالباب. وبين تلك المغارس احواض يرسل اليها الماءُ بمجارٍ مستترة وفيها من الاسماك اجلها لونًا والطفها شكلاً يتعهدها البستاني بفتات الخبز او بقايا الاطعمة مما يكثر في مطابخ الامراءِ في ايام الرغد والرخاءِ. ناهيك بما رسموه في طرق الحديقة من اشكال الكائنات الحية وغير الحية بترصيف الحصى على اختلاف الوانها فيصورون بذلك زهورًا بالوانها واسودًا او فيلة باشكالها على نحو ما يفعلون بالفسيفساءِ وكانوا يقيمون لكل من هذه الفنون صناعًا من الفرس او الروم اوالهند ممن اتقنوا طرق الزراعة وتفننوا في اساليب الهندام.

على ان روائح الازهار العطرية في ذلك البستان لم تكن شيئًا يذكر بالنظر الى ما تضوَّع من اثواب ولي العهد من رائحة الاطياب ولا سيما المسك. وكانت عادتهم اذا عزموا على مجلس شراب او غناءٍ ان يخلعوا ثوبهم الرسمي ويلبسوا ثوبًا ملونًا بالحمرة او الصفرة او الخضرة يسمونه ثوب المنادمة وهو في الغالب غلالة رقيقة وملاءَة مصقولة. وكان الامين يومئذ لابساً غلالة حمراء فوقها ملاءَة صفراء مصقولة صقلاً شديدًا حتى تقوم قيامًا من شدة الصقل. وجعل على رأسه بدل العمامة او القلنسوة اكليلًا من ريحان وازهار ضفره له البستاني ضفرًا جميلًا حتى يشبه القلنسوة. ولبس برجليه خفين سنديين وكان رفيقه ابن الهادي في مثل ذلك ولكن ملاءَته كانت خضراءَ وعلى رأسه طاقية حولها عمامة صغيرة من الوشي الثمين. وقد سوَّى شعره على عادة شبان بغداد في ذلك العصر اي انهُ حدَّقه على جبينه وقصره دون جبهته وسوَّاه مع حاجبيه ودوَّره الى اذنيه واسدله الى صدغيه.

وكان الامين ورفيقه قد جلسا في العريش ينتظران قدوم صاحب الكباش والامين اكثر رغبة في مقابلة الفضل اذا كانت الجواري معهُ. واذا هو يسمع وقع خطواته على الحصى بقرب العريش فصاح فيه «ما وراءَك يافضل؟»

فاجاب وهو داخل «ما ورائي الّا كل خير يا مولاي»

قال «واين الجارية اوالجواري المغنيات؟»

قال «هنّ آتيات عن قريب ...» ولما اطلّ الفضل على الامين ورأى لباسهُ وحاله ابتسم رغم ارادته. فابتدره الامين قائلاً «كيف تراني بهذا الاكليل وهذه الثياب؟»

قال «أرى انك ملاك بصورة انسان» وكان الامين يومئذ في السابعة عشرة من عمره وقد نبت عارضاه وظهر عذاراه وتجلى ماءُ الشبيبة في

محياه. وهو جميل الصورة طويل القامة ابيض اللون صغير العينين اقنى الأنف سبط الشعر وقد انحسر شعره عن جانبي جبهته وكان قوي العضل حتى يلقى الأسد فلا يبالى به وفيه بطش وشجاعة وفصاحة وأدب وبلاغة. فاذا لقيه الرجل تهيب من منظره واحبه ولكنه كان سيئ الرأي كثير التبذير أرعن جعل همه اللهو والقصف باقتناء الجواري والغلمان ولعلهُ سيق الى الافراط في ذلك بما اراده اهل الاغراض من تضييع الملك على يده او رغبة منهم في استرضائه التماساً لسخائه. اما ابن الهادي فكان رقيق البدن جميل الصورة قصير القامة خفيف العارضين حاد العينين وكان اكبر من الامين سنًّا واحسن منه رأيًا وانما سايره في قصفه ولهوه لغرض في نفسه كما تقدم.

ولما دخل الفضل صاح فيه الامين «عليك بثياب المنادمه واخلع هذا الثوب فان ابطاءَك الى هذه الساعة لا ينبغي ان يفسد علينا ما دبرناه من اسباب السرور وان كان الصبوح قد انقضى فنقضي بقية النهار في الطرب والانس» ثم صفق فاتاه غلام تركيّ جميل الصورة لم يبد عذاره بعد وعليه دراعة حمراء اللون تمنطق فوقها بمنطقة عريضة من حرير موشاة بالقصب وارسل شعره ضفيرة طويلة وراءَ ظهره وعلى رأسه شبه طاقية هرمية الشكل مزركشة بالقصب منعرفة الى جانب واحد في قمتها هلال من فضة اثقل راسها فتدلى فاصبح الغلام اشبه بالبنات منه بالفتيان لفرط جماله. ولو سمعته يتكلم لثبت عندك انه فتاة لبعده عن خشونة اصوات الرجال لانهُ خصيّ. وكان في قصر الامين كثير من امثاله عني في استجلابهم من اقصى بلاد الترك والجركس جعلهم طوائف لخدمته ولمجالس انسه.

فلما جاءَ الغلام وقف متادبًا فقال له الامين «من ترى في بابنا من الشعراء؟»

قال «الحسن بن هانىء (ابو نواس) وابو العتاهية و...»

فقطع الامين خطابه قائلاً «ما لنا ولأبي العتاهية وهو من اهل الزهد فلا ينفعنا زهده في مجلسنا هذا. واما الحسن بن هاني فانه ابن بجدتها وهو شاعر ظريف» قال ذلك وضحك ثم التفت الى الغلام وقال «اصرف الشعراءَ الّا ابن هانيءٍ وقل لصاحب الشراب ان يعدّ لنا مجلساً كاملاً . . . ».

فقال الفضل «وابو العتاهية لا باس به، يا مولاي فانه شاعر ظريف ولا يهمك ما يقولون عن زهده».

فصاح بالغلام «وابو العتاهية ايضاً». فمضى الخصي لاعداد ما يلزم.

الفصل الرابع والاربعون
من رواية اسير المتمهدي
موكب المتمهدى وخطابه

فلما تمت القراءة ضج الجماهير بالدعاء فقال شفيق في نفسه والله انها تعاليم حسنة لا يأتي المتمدنون باحسن منها. ولكنه شعر بخطر موقفه فصارت ركبتاه ترتجفان واخذ يدبر وسيلة يتخلص بها اذا انكشف امره. ثم جعل يفكر بقيام هذا المتمهدي ودعواه وما تأتى له من الفوز وفيما هو في ذلك رأى الناس فى جلبة واختلاط ثم علم انهم يستعدون لملاقاة المتمهدي وهم يتطلعون الى جهة الابيض فنظر واذا بالموكب قادم والمتمهدي في لباس الدراويش على جواد ليس اكرم منه يحدق به الخليفتان التعايشي وولد الحلو ووراءهم جماعة على خيول في لباس الدراويش غير ان مرقعياتهم اقصر من مرقعيات اولئك فهي لا تتجاوز ركبهم حتى يكاد يظهر من تحتها اسفل سراويلهم القطنية فامعن النظر فيهم وعلم بعد ذلك الحين انهم جماعة الملازمين وهم خدمة المتمهدي واعوانه الخصوصيون وكانوا سائرين

وراء الخلفاء مطرقين احترامًا ووقارًا وبينهم العلم الخاص بالمتمهدي. فوقع الرعب فى قلب شفيق وادرك مقدار الخطر المحدق به.

فلما وصل الموكب الى محط الجيش ترحل المتمهدي وترحل كل من جاء معه ومشوا الى مرتفع فلما وقفوا تنحوا جميعًا الا المتمهدي فجيء اليه بفرو من جلد فرش امامه فوقف للصلاة ووقف الجميع وولوا وجوههم البيت الحرام وبدأت الصلاة والتوحيد فصلى شفيق ووحد معهم ومما زاد اضطرابه انه شاهد من نفوذ هذا الرجل في جماعته ما يجعل انفس الناس في تقديره لا تساوي لفظا فخيل له ان المتمهدي حالما يراه ويعرفه لا يتكلف غير اشارة القتل فيقتل. وبعد انقضاء الصلاة وقف المتمهدي لمخاطبة الامراءِ وتوصيتهم بالثبات وحول عنقه سبحة من خشب البقس مدلاة على صدره ولم يكن في لباسه ما يميزه عن سائر الدراويش الا كونها اكثر اتقانًا واغلى قيمة.

فأَخذ شفيق يتأَمل في هيئة هذا الرجل الذى اقلق دول اوربا والقى في مجالسها الشقاق فاذا هو طويل القامة خفيف العضل كبير العينين حسن الملامح كسائر الدنقلاويين ابناءِ وطنه وآنس في وجهه مهابة ولطفا وانتبه خصاصًا الى الخال الاسود على خده فتذّكر ماكتبه الى السنوسي من ان ذلك الخال انما هو علامة المهدوية. ولما وقف محمد احمد المتمهدي وقف كل الحاضرين مطرقين صامتين لا يسمع لهم صوت ولا ترى لهم حركة فافتتح المتمهدي كلامه بالصلاة ثم قال.

«ايها الاحباب من المقدمين والمشايخ والنواب والانصار اعلموا ان اللّٰه لو شاء سبحانه وتعالى ان يبيد اهل الكفر ويستأَصل شأَفتهم من غير قتال لفعل كما ورد في الكتاب العزيز قوله تعالى ولو شاءَ اللّٰه لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض (الآية) وقوله ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين الى غير ذلك. فصار لا محيد للخلق عن امتثال هذه

الحكمة. فها انكم مرسلون لقتال الكفرة القادمين الينا من جهات الخرطوم فعليكم ان تكونوا اهل حزم وتشددوا العزائم والنيات وتسيروا بالهمم العاليات في نصرة دين اللّٰه. وان تبذلوا نفوسكم واموالكم في سبيل اللّٰه كما عاهدتم الله ورسوله وبايعتمونا على ذلك. ولا يحصل منكم ادنى فتور ولا توانٍ عما انتم بصدده وضيقوا عليهم اشد التضييق فعسى ان يأتي اللّٰه بالفتح او امر من عنده فيصبحوا على ما اسرّوا في انفسهم نادمين. واما انتم فعلى كلا الحالين من الفائزين فخوضوا الغمرات شوقاً الى اللّٰه والى جنة قصورها عالية وانوارها زاهية وانهارها جارية وقطوفها دانية الخ» الى آخر ما هناك من التحريض على القتال بايراد الآيات والاحاديث النبوية.

ولما اتم المتمهدي خطابه ضج الناس بالتوحيد والبكاءِ وقرع الصدور لشدة تأثير تلك الاقوال فيهم ولما انتهت الخطابة ركب المتمهدي وحاشيته وعادوا يريدون الأبيض فتراكض الدراويش الى موطئِ قدميه يمسحون وجوههم واعناقهم بالتراب الذي وطئه ويعفرون رؤوسهم به حتى وصل الأبيض بعد ان عهد في قيادة تلك الحملة الى الامير عبد الحليم وابي جرجه وعدد الجيش ٣ آلاف

فسار شفيق يريد الدخول فى جملة من دخل والناس ينظرون اليه نظرهم الى رجل غريب الزيّ فخاف ان تقع عليه شبهة وايقن انهم اذا كشفوا امره يقتلونه لا محالة فاخذ يتقلدهم في حركاتهم اظهارًا لكونه على دعوتهم.

فرح انطون

١٨٧٣ — ١٩٢٢

الفصل الأوّل

من رواية اوروشليم الجديدة

عيد الميلاد في بيت لحم سنة ٦٣٦

حالة الامبراطور هِرَقْل والسلطنة البيزنطية في صدر الاسلام «البيت الاحمر»

بيت لحم في يوم عيد الميلاد المسيحي كعبة يحجّ اليها المسيحيون من كل اقطار العالم كما يحجون الى كنيسة القيامة الكبرى في القدس في عيد الفصح الذي هو عيد القيامة. ففي سنة ٦٣٦ للميلاد المسيحي ليلة عيد الميلاد خلت القدس من اهلها ومن الحجاج لزحفهم الى بيت لحم لحضور العيد. وقد بدأوا بالسفر الى بيت لحم منذ يومين رجالاً ونساءً واولادًا بعضهم يقيمون عند اقاربهم ومعارفهم يستاجرون غرفًا خصوصيّة لذلك. فامتلأت بلدة بيت لحم على صغرها باجناس القادمين اليها من نواحي فلسطين والثغور وسوريا ومصر والاناضول والقسطنطينية وقبرص ورودس وغيرها. وكان اختلاف ازيائهم ووجوههم مما يروق النظر فيخيل للناظر ان اجناس البشر كلها تُعرض له في تلك البلدة الصغيرة

وكانت كنيسة المغارة التي هي عند الناس مكان ولادة المسيح قائمة في وسط البلدة. وكانت مؤلفة من قسمين. فقسم هو كنيسة المهد نفسه وهي عبارة عن مغارة منقورة في الصخر مكسوة الجدران بالاغطية الثمينة

المزركشة والمزينة افخر زينة وفي سقفها عدة مصابيح بعضها يضيءُ ليلاً ونهارًا. وقسم هو كنيسة فاخرة كبرى قائمة فوق تلك الكنيسة الصغرى لاجتماع الناس فيها وقد بنتها هيلانة ام الامبراطور قسطنطين الكبير[1] وكانت الكنيستان منارتين في تلك الليلة بالمصابيح والشموع المتعدّدة وروائح البخور تنبعث عن المباخر والناس داخلون الى الكنيسة الكبرى وخارجون منها ولوائح السرور على وجوههم

فلنترك الناس خارجين وداخلين ولنذهب بالقارىء الى منزل كبير قائم تجاه الكنيسة في الجهة الغربية وهو مدهون بلون احمر ولذلك يسمونه «البيت الاحمر». وقبل الدخول الى هذا البيت نقرأُ على خشبة مسمَّرة فوق بابه هذه الكتابة باللغة اليونانية «لا شراب ردىء يزعج معدتك ولا رفيق السوء يزعج نفسك» ذلك ان هذا البيت كان معدًّا لنزول الضيوف في الاعياد والمواسم والاحتفالات المختلفة

فاذا دخلنا هذا الفندق وجدناه قسمين. فقسم للرجال وكان يجتمع فيه ضيوف من بيت المقدس وغيره. وقسم للسيدات وكان يجتمع فيه اجمل واذكى سيدات اورشليم وكان امام القسمين حديقة واسعة الجوانب مزروعة بالنباتات والازهار والشجيرات المختلفة وفي وسطها قاعة المائدة وهي قسمان ايضًا واحد للرجال وواحد للنساء.

وكان البرد في ذلك اليوم شديدًا والغيوم متلبدة في السماء تنذر بالمطر والهواء يهب من الجهة الجنوبية الغربية هبوبًا عنيفًا ومع ذلك فقد كان في الحديقة في جهة قسم الرجال رجل يتمشى وفي يده كتاب خطي وهو تارة يقرأُ وَطورًا يتأمل. وربما يظن القارىء ان ذلك الكتاب كان نسخة من كتاب ديني ولكن اذا دنونا من الرجل وجدنا على غلاف كتابه هذه الكلمات «كتاب في النفس — تأليف ارسطو»

---

[1] لا تزال الى اليوم وهي الكنيسة الكبرى في بيت لحم

وكان الوقت مساءً وصاحب الكتاب يقرأ في كتابه على ذرات ضوء النهار الاخيرة بين مداعبة الريح وقرص البرد وقهقهة الرجال والنساء خارجة من داخل الفندق وبينما صراخ الناس في الشوارع امام الكنيسة واصوات الباعة وضوضاء المغنين تصمّ الآذان وكان هذا الرجل القارىء كلما زادت تلك القهقهة والضوضاء الداخلية والخارجية ينظر باشمئزاز وانفة الى الجانب التي خرجت منه ويقرن اشمئزازه بابتسام الاحتقار. الا انه في ذات مرة اشتدت القهقهة والصياح من داخل ومن خارج فمدّ يده الى جيبه وتناول دفترًا وكتب فيه ما يأتي

«الطبقات العالية لا همَّ لها الّا ملاذها. فهي تفرح وتطرب لانَّ الامبراطور يترك لها حرية التمتع بها. فكانّ الدنيا كلها عندها اكل وشرب ولذة. والطبقات الواطئة ترضى باقلّ شيءٍ ولذلك يلهونها باصغر الامور ويعملون على طهرها كل الاعمال. فهل تنفتح عيونها يا ترى يومًا من الايام»

وما اتى صاحب الكتاب على هذه العبارة حتى اندفع من قسم النساء في الفندق نحو عشرين سيدة ضاحكات مقهقهات وتفرقن في الحديقة. فالقى صاحب الكتاب اليهنّ نظره ثم عاد الى كتابه بانفةٍ وكبرياء. اما السيدات فلم يصرفن انظارهنّ عنه بل اخذن يتأملن فيه. فقالت احداهن مَن هو هذا البارد الذي يقرأ في هذا الظلام والبرد يا اخوتي. اظنه راهبًا من رهبان دير ايليا. فضحكت رفيقاتها. واجابت سيدة اخرى وحياة العذراء يااخوتي انني نظرت هذا الرجل قبل اليوم. فانه في كل مساء يخرج من باب يافا وفي يده كتاب فينحدر الى الوادي ويغيب فيه

فرسمت احداهن علامة الصليب على صدرها وقالت «كيريالايسون» (يا رب ارحم) اظنه يختلي ببعلزبول. فصاحت بعض رفيقاتها: باسم الصليب

الكريم يا تيوفانا انك تذكرين بعلزبول دائما فيظهر انه بينك وبينه شيء من الصحبة. فضحكت السيدات واما تيوفانا فانها رسمت علامة الصليب على صدرها وبصقت على الارض موجهة هذه البصقة الى بعلزبول

اما صاحب الكتاب فانه لم يسمع من حديث السيدات سوى هذه الكلمات «دير ايليا» فظن انهن يقلن «اسمه ايليا» فقال في نفسه من اين يعرفني هؤلاء السيدات

ومن البديهي انه يخرج النساء الى الحديقة ويبقى الرجال في الداخل. فخرج الرجال على صوت النساء وتفرقوا في الحديقة محيين السيدات برؤوسهم. وما زالوا يتمشون حتى التقت طلائع الفريقين فتبادلوا التحيات والابتسامات وتداعوا الى الجلوس على مقاعد الحديقة من شدة البرد. فجلس النساءُ في صفوف والرجال في صفوف. ودار الحديث بين الفريقين وصاحب الكتاب في زاوية يصغي ويعي

فقالت احدى السيدات متى يصل مولانا البطريرك. فاجابها احدهم سيصل في الليل. فقالت اخرى: الظاهر ان هذا العيد سيكون بهيجًا لكثرة الحجاج والوافدين. فهزّ احد الرجال رأسه وقال

ان اكثر هذه الجماهير فرّوا من وجه العرب ولم يقدموا للعيد. فقالت تيوفانا اذا قصدتم الكلام في السياسة فاخفضوا اصواتكم وانظروا الى ما حولكم. فرفع حينئذ احد الرجال صوته وصاح ممّ نخاف لقد اضاعوا الامبراطورية بطياشتهم. وها ان العرب قد صاروا على ابواب المدينة. فبغتت النساءُ وصاحت تيوفانا: وهل انكسر مانويلس. فهزّ الرجل رأسه وقال ان قائدنا مانويلس الظريف قد انكسر في اليرموك شرّ كسرة. وهذه الواقعة فتحت سوريا كلها للعرب كما فتحت لهم واقعة القادسية بلاد الفرس. ومن ذلك يظهر ان الامبراطور كان مصيبًا في ما فعل. قال الرجل ذلك ثم نظر الى ما حوله. فقالت احدى السيدات

ولكن يظهر ان مولانا البطريرك مستاءٌ جدًّا من صنعه هذا. فقال ذلك الرجل ولكن ما الحيلة انه لم يكن يستطيع ان يعمل غير ما عمل. فانه بعد ان فتح العرب دمشق لانكسار اخيه تيودورس امامهم في اجنادين لم يبق له الّا ترك سوريا وشأنها تدافع عن نفسها للعودة الى القسطنطينية قاعدة مملكته لان المغول والسلافيين وفيهم البلغار والسرب كانوا يتهددون حياة السلطنة وقد كسر السلافيون جنده وراء القسطنطينية شرّ كسرة وقد بلغني انه لما خرج من سوريا قادمًا الى هنا لاخذ الصليب المقدس من الجلجلة الى القسطنطينية خوفا من ان يأخذه العرب كما اخذه الفرس لما فتحوا مدينتنا وقف على نشز في حدود سوريا مودعًا وقال «السلام عليك يا سوريا سلام لا اجتماع بعده» ذلك لانه علم انه لا قِبلَ له على حفظ سوريا ووراءَه من ذكرنا من اعدائه. ومما زاد الطين بلة ايضا ان الجيش تمرّد وأعلن خلعه. فكيف يبقى في هذه البلاد ليدافع عنها بنفسه وتلك حال سلطنته وعاصمته. ان البطريرك مخطىء في استيائه.

فقال رجلٌ آخر وهناك سبب آخر يوجب على البطريرك ان لا يستاءَ من ترك الامبراطور سوريا وفلسطين وشانهما تعتمدان على قواتهما الداخلية فقط. وهو اعتلال صحته واضطراب عقله. فانني شاهدت الامبراطور مرتين. المرة الاولى منذ ثماني سنوات لما عاد الينا من حرب الفرس ظافرًا منصورًا بعد ان سحق سلطنة كسرى الكبير وهدم معابد النيران واستردّ الصليب وجاءَ لاعادته الى الجلجلة فانه كان يومئذ في اوج عزه وعظمته. وكانت الامبراطورية كلها تتحدث يومئذ بسطوته وشاعره «الراهب جاورجيوس بيسيديس» الذي هو معلم اعترافه ايضًا ينشر فيه القصائد الرنانة التي تثير الافكار ويشبهه بالبطل اشيل وقسطنطين الكبير.

فيومئذ كان الامبراطور معبودًا عند شعبه وكانت لوائح السعادة تظهر على وجهه. ولست انسى في حياتي منظره لما حمل في كنيسة الجلجلة في مدينتنا الصليب بنفسه وصعد به وحده الى موضعه في الجلجلة لنصبه بيده. فقد كانت لوائح القوة والصحة ظاهرة عليه اما المرة الثانية التي شاهدته فيها فهي منذ مدة لما عاد الينا من انطاكية بعد استيلاء العرب على دمشق لياخذ الصليب الى القسطنطينية وينصبه في كنيسة هاجيا صوفيا.

ففي هذه المرة كان الاضطراب والضعف باديين في وجهه. وصحته كانت في اسوأ حال وهذا ما منعه من قيادة جيوشه بنفسه للدفاع عن دمشق والقائه عهدة ذلك الى اخيه ثيودوروس الذي اساء في الدفاع فناله غضب الامبراطور ثم نظر المتكلم الى ما حوله كأنّه خائف ان يسمعه احد وقال: وهناك اخبار جديدة وردت في هذا الاسبوع من القسطنطينية تثبت ان الامبراطور اصبح في حالة صعبة لطف اللّٰه به. فان عقله صار مضطربا لكثرة مشاكل السلطنة ويُخشى ان يفقد صوابه. وقد علمت عن ثقة انه لما وصل الى قصره في القسطنطينية اضطر رجاله ان يبنوا له على البوسفور امام قصره حواجز خشبية على صفين من الجسور وتغطية هذه الحواجز بالخضرة والنباتات لاخفاء منظر البحر عنه لانه اصبح يخاف خوفًا شديدًا لمجرد وقوع نظره على البحر فهل من حق البطريرك ان يلوم رجلا هذه حالته العقلية والصحية

وكان بين الرجال رجل يتشاغل عن هذا الحديث بفرك يديه ووجهه من البرد فلما فرغ المتكلم من كلامه التفت الى الحاضرين وقال: هل تعتقدون انّ البطريرك مستاء من الامبراطور من اجل مسألة الدفاع عن سوريا وفلسطين فقط. كلا فان الاستياء بينهما قديم

فقال الرجل الذي تكلم سابقا نعم نحن لا نجهل ما قام بينهما من

الخلاف في المسألة الدينية ولكن ما هذا وقته الآن. فان الواجب علينا لوطننا وديانتنا ومملكتنا ان نكون كلنا يدا واحدة ونفسا واحدة امام العدو. والا كانت العاقبة وخيمة علينا

فانبرت هنا احدى السيدات وصاحت باللّه اننا قدرنا على سلطنة عظمى كسلطنة الفرس فسحقناها واحتللنا عاصمتها وقبائل بدو ضعاف حفاة كقبائل العرب لا نقدر عليها

فساد السكوت حينئذ بين الحاضرين لان هذا السؤال البسيط نقل الحديث الى اهمّ المواضيع اي الى اسباب ضعف الامبراطورية يومئذ مع قوّتها في ما سبق. فنظر الحاضرون بعضهم الى بعض وابتسموا. وكان فيهم السوريون واليونان بين شرقيين وغربيين فكانهم ارادوا بابسامهم ان يقولوا ان ذلك العيد يوم فرح وسرور لا يوم مناقشات ومخاصمات في امور سياسية دينية جنسية فقد كفى الناس مخاصماتهم في هذه الامور في باقي ايام الاسبوع.

الفصل التاسع عشر

بين الامام عمر والبطريرك صفرونيوس

فتح المدينة صلحًا

معرفة البطريرك عمر من صفته. في ان نفس الاسكندر لم تكن اكبر من نفس عمر. حديث سري بين الامام والبطريرك. الرق السري. صورة العهد. فتح العرب اوروشليم كان بلاء على الشرق كله

ثم سار عمر من الجابية وحوله امراء المسلمين وما زال سائرًا حتى اشرف على معسكر الجند وبيت المقدس. فلما ظهرت له المدينة صاح «اللّه اكبر اللهمّ افتح لنا فتحًا يسيرا واجعل لنا من لدنك سلطانًا نصيرًا» وما اشرف عمر بموكبه على المعسكر حتى قامت العشائر والقبائل على ساقٍ وقدم

وهرعت لاستقباله بالتهليل والتكبير فارتجت الارض واشرف اهل المدينة من عن الاسوار ليعلموا سبب تلك الضجة الهائلة. ولما علموا بمقدم عمر ذهب احدهم واخبر البطريرك «فاطرق البطريرك ولم يتكلم» اما عمر فانه نزل في خيمة من شعر ضُربت له بجانب خيمة ابى عبيدة. «فجلس فيها هناك على التراب ثم قام يصلي اربع ركعات»

وبات العرب تلك الليلة فرحين بمقدم اميرهم وخليفتهم. فلما كان الغد وصلى عمر صلاة الفجر قال لابي عبيدة «يا عامر تقدّم الى القوم واعلمهم اني قد اتيت» فذهب ابو عبيدة وابلغ الواقفين على الاسوار هذا الخبر. فذهبوا واعلموا البطريرك فخرج البطريرك من كنيسته وعليه المسوح وترجّل الرهبان والقسس والاساقفة معه وقد حُمل بين يديه صليب لا يخرجونه الا في عيدهم وسار معه والي المدينة وهو يقول للبطريرك «يا أبانا ان كنت تعرفه معرفة حقيقية والا فلا تفتح له ودعنا وهؤلاء العرب فاما ان نبيدهم واما ان يبيدُونا» فاجابه البطريرك يا ولدي. انّ ولدنا ايليا الذي تعرفه كان يطوف امس على الاسوار فابصر الفارس الذي ذكره لنا وهو ابن معدي كرب فارسل اليه هذا الفارس نبلة وقد ربط بها كتابا فيه ثلاث كلمات باللغة اليونانية وهي هذه «لقد وفد عمر» ولست اشكّ في صدق هذا الرجل بعد ما بلغني عنه. وفضلا عن ذلك فان ولدنا يوحنا الغساني يعرف الامير لان بعض عرب المدينة وصفوه له. فقال الوالي وما صفته. فقال البطريرك: هو في الخامسة والخمسين من العمر اصلع طويل يظهر لطوله كانه راكب. ابيض اشيب ابهق (اي شديد البياض) تعلوه حمرة وهو يصفر لحيته ويرجل رأسه.

فلما اشرف البطريرك ورجاله على ابي عبيدة من عن السور قال البطريرك «ما تشاء ايها الشيخ الباهي» فاجاب ابو عبيدة «هذا امير المومنين عمر وليس عليه امير قد اتى فاخرجوا اليه واعقدوا معه الامان»

فقال البطريرك ياذا الرجل ان كان صاحبك الذي ليس عليه امير قد اتى فدعه يدنو منا واقرأه عني السلام وقل له انني احبّ مقابلته. فاستغرب ابو عبيدة هذه اللهجة الوادية الجديدة. فعاد الى عمر وابلغه جواب البطريرك ولكنه لم يبلغه سلامه الا همسا في اذنه. فاطرق عمر ثم همّ بالقيام «فقال له اصحابه يا امير المؤمنين اتخرج اليهم منفردا وليس عليك آلة حرب غير هذه المرقعة وانّا نخشى عليك منهم غدرًا او مكرًا فينالون منك». فلم يجب عمر ولكنه قرأ الآية «قل لن يصيبنا الا ما كتب اللّه لنا هو مولانا وعلى اللّه فليتكل المؤمنون» ثم استوى على بعيره وعليه مرقعته وعلى راسه قطعة عباً قطوانية وقد عصب بها راسه وليس معه الا ابو عبيدة وهو سائر بين يديه حتى قرب من السور ووقف بازاء السور والبطريرك والوالي

وكان يوحنا الغساني الذي تقدّم ذكره واقفا وراءهما

فلما دنا عمر من السور ووقع نظر يوحنا عليه همس في اذن البطريرك والوالي قائلاً: وحياة العذراء مريم هذا هو

فاحنى البطريرك رأسه مسلّما ونادى من اعلى السور: افتحوا الباب للامير

فلم يفهم عمر كلام البطريرك ولكنه لم يلبث ان ابصر الباب يُفتح في وجهه وخرج الناس منه فتواضع عمر حينئذ للّه وخرّ ساجدًا على قتب بعيره. ثم نزل لملاقاة البطريرك اذا اعلموه انه قادم لاستقباله

وبعد دقيقتين ظهر البطريرك صفرونيوس في الباب ومعه قس من اخصائه يعرف العربية ليترجم له. فلما رآه عمر وابو عبيدة تقدّم الاول وتنحّى الثاني

وكانت الاسوار حينئذ غاصة بالناس وهم يتطاوّن ليشاهدوا ملتقى عميدي المسيحية والاسلام وكأنّ على رووسهم الطير

اما قبائل العرب من بعيد فانها كانت تهلل وتكبر ابتهاجًا بفتح بلد عيسى وموطن الانبياء

ولما دنا عمر من البطريرك مدّ البطريرك اليه يده مصافحًا فمدّ عمر يده اليه. وكان البطريرك ينظر في وجه عمر وعمر ينظر في وجه البطريرك. فيظهر ان نفسيهما اتفقتا لاول نظرة لانّ النفوس الكبيرة تتعارف حين التقائها بالنظر كما يتعارف باقي الناس بالكلام. فابتدأ البطريرك الحديث بقوله: لقد طلبت ان يكون الامير الكريم متولي عقد الصلح بيننا لانني اذا وضعت هذه المدينة المقدّسة في عهده وذمته خاصة اكون في امن عليها وعلى اهلها من كل وجه. وانا الآن القي مفاتيحها اليه

فلما ترجم الترجمان هذا الكلام لعمر اشار عمر برأسه موافقًا على كلام البطريرك واجاب: المسلم من حفظ العهد ورعى الود ونحن جميعًا عباد اللّه فعلينا ان نكفل بعضنا بعضًا

فسرّ البطريرك بهذا الجواب وعلم انه وضع ثقته في من هو اهل لكلّ ثقة. فطلب من الامير ان يدخل معه الى غرفة قرب باب السور ليخلو به فيها بضع دقائق. فلم يتردد الامير في الدخول بل مدّ رجله وتخطّى عتبة الباب. فلما راه ابو عبيدة يضع قدمه في تلك المدينة المدججة بالسلاح ليدخل اليها وحده اصفرّ وجهه خوفًا عليه وكأنّ البطريرك قد تنبه لذلك من تلقاء نفسه فانه لما رأى اصفرار وجه ابي عبيدة تألّم من سوء الظن ووقف ممتنعًا عن الدخول بالامير. ففهم حينئذ عمر ذلك فنظر الى ابي عبيدة وابتسم ابتسامة تأنيب ثم دخل مع البطريرك.

يروى في التاريخ القديم ان اسكندر الكبير كان يثق بطبيب له كل الثقة. ففي ذات يوم ورده كتاب فحواه ان هذا الطبيب عازم على تسميمه. واتفق ان الاسكندر فرغ من تلاوة هذا الكتاب حين دخول طبيبه عليه يحمل له كأس دواء. فتناول الاسكندر الكأس في يد وناوله

الكتاب في يد اخرى. ثم شرب الكاس قبل ان يقرأ طبيبه ذلك الكتاب فالمؤرخون والكتّاب يهتفون هتاف الدهشة حين وقوفهم على هذا الامر اعجابا بثقة الاسكندر وشجاعته ويقولون انه لا يصدر الا عن نفس عظيمة كنفس الاسكندر. — قلنا ولكن صنع عمر هذا ليس باقلّ من صنع الاسكندر.

وكانت الغرفة التي اجتمع فيها عمر والبطريرك بجانب باب السور. ولم يكن معهما غير القس ترجمان البطريرك.

فقال الامير بعد جلوسه موجهًا السؤال الى الترجمان ما ذا يريد البترك

فاجاب البطريرك: اريد قبل كل شيء صداقة امير مثلك. فاننا نحن معاشر رؤساء الامم تجمعنا جامعة الرئاسة وان فرّقت بيننا المذاهب. وكلنا نعبد الهًا واحدًا لا اله الا هو ولا شريك له وعلينا تدبير نفوس رعايانا لابقائها في سبيل الفضيلة والخير. فاذا اختلفنا في الجزئيات والظواهر فنحن متفقون في الكليات والبواطن. فعلينا اذًا ان ننظر الى ما يجمعنا لا الى ما يفرقنا. ولذلك اطلب من الامير ثلاثة امور. الاول ان يكتب لنا عهدا بالصلح نحفظه عندنا للمستقبل. والثاني ان يوصي رجاله بان لايتعرّضوا لاحد منا في دينه. والثالث ان لا يصلّي بجانب قبر المسيح في كنيستنا الكبرى لانه يعلم انه اذا صلّى هناك طلب المسلمون جعل المكان مسجدًا

فلما تُرجم هذا الكلام للامير أطرق ثم قال: أهذا كل ما يريده البترك. فقيل له نعم. فنهض عمر ووضع يده في يد البطريرك وقال: نحن كما قلتَ. اما العهد فساكتبه الساعة وارسله اليك ولو لا رغبتي في ان يشهد عليه شهود من المسلمين لئلا يُشتبه به في ما يأتي من الزمن لكتبته الآن واما الوصية فواللّه الذي نفس عمر في يده انكم لا تجدون

احدًا منا يعتدي على احد منكم بغيًا وظلمًا وعندنا «لا اكراه في الدين» واما الصلاة بجانب قبر عيسى عليه السلام فسأفعل ما ذكرتَ لانني اشد رغبةً منكم في اجتناب النزاع على قبر عيسى في مستقبل الزمان وانتم احقّ منا به

ثم همّ الامير بالخروج فمدّ البطريرك حينئذ يده الى جيبه وتناول منها رقًّا مطويًّا ثم ناوله للامير يدا بيد وقال للترجمان: اخبره ان هذا الرقّ مكتوب بلغتنا وفيه امرٌ سري لا أُحبّ ان يعلم احد انني صاحبه. فليمعن فيه النظر ثم يعيده اليّ غدًا او بعده

فاخذ الامام عمر الرّق ووضعه في ثيابه ثم خرج مودعًا. ولما ظهر الامام لابي عبيدة من الباب تنفّس ابو عبيدة الصعداء وحمد اللّه على سلامته. ثم سارَا معًا عائدين الى معسكر المسلمين. فاستقبلهما المسلمون بهتاف طبق السماء ابتهاجًا بفتح المدينة. وقبل الظهر كتب الامام عمر عهد الصلح وارسله مع احد رجاله الى البطريرك وهذه صورته

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما اعطى عبد اللّه عمر امير المؤمنين اهل ايلياء من الامان اعطاهم امانًا لانفسهم واموالهم ولكنائسهم وصلبناهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيّزها ولا من حليهم ولا من شيء من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يُضارّ احد منهم ولا يسكن بايلياء معهم احد من اليهود. وعلى اهل ايلياء ان يُعطوا الجزية كما يُعطي اهل المدائن وعليهم ان يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من اهل الارض قبل مقتل فلان (كذا) فمن شاء منهم وقعد وعليه مثل ما على اهل ايلياء من الجزية ومن شاء صار مع الروم ومن شاء رجَع الى اهله. فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد اللّه وذمة رسوله وذمة

الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن ابي سفيان. وكتب وحضر سنة ١٥»

فيا اورشليم استعدي فهذا عنصر جديد قد انضمّ الى عناصرك. وكل محب للشرق يتمنى لو لم يكن هذا الانضمام لانه سيجرّ على الشرق كله ويلات هائلة. سيأتي يوم يا اورشليم الجميلة يُنسى فيه العهد العمري فتشتدّ دواعي الجهل والبغض بين عناصرك. وحينئذ يختل ميزان العدل بين الناس ويفشو الاضطهاد فيتخذ الغرب هذا الامر حجةً للزحف على شرقك رغبة في استخلاصك. حينئذ تقوم حرب هائلة بين الشرق والغرب. وهي الحروب التي سيسمونها حروبًا صليبية. وستجني هذه الحروب يا اوروشليم على الشرق جناية هائلة لانها ستكون من اسباب زوال مدنيته العظمى وانتقالها الى الامم الغربية وزيادة الاحقاد بين العناصر البشرية زيادة تشوّه وا اسفاه وجه الانسانية

ولي الدين يكن

١٨٧٣ — ١٩٢١

كيف يموت الادباءُ في الشرق

بلغ من بغضي للشعر ان صرت اعرض عن سوانح معانيه في لوامع قوافيه. القاعد بالحدود عن منازل الشرف المتواكل بالعزمات عن بلوغ نهايات الارب. احدى فتن الخيال. تجري بها البدائه فتتلقاها مسامع بالقبول وتتلقاها مسامع بالملل. ابعد به وبطلابه

يتهادى امراء الذهب بين (شولر) وبين (سبلندديار) تساقط اعطافهم الجنيهات ويطوفون حول معاهد الصبوة في عواصم الغرب من (منت كارلو) الى منت كارلو. ثم يأوون الى بيوت كثرت فيها الديكة والحمائم ثم يصبحون في لزباتهم يهبون المال في دعاوي ومخاصمات. فطلاق وزواج وميراث وشركة يتخلل ذلك كله لعب الورق واستشارة الوكيل وادلال الكاتب وبيع الاطيان واقتراض المال. بدرات تفيض العسجد وتنفجر عن ذوب اللجين والشاعر يريد ان يبيع ديوانه بقرص من الطعمية فلا يجد مشتريًا والكاتب يعرض دفاتره مجانًا فلا يرى قارئًا فسبحان اللّٰه

علم من اعلام العراق. هو ابو القصائد المحبرة والقوافي المحكمة. نزيل بمصر. مقيم في دار حزنه يعالج ايامه ويعاني شدائدها وليس بمصر من يقول له اين اصبحت ايها الاديب العظيم. احد مفتاح رجل البلاغة

يموت ويدفن ولم تكتب خبر وفاته جريدة من الجرائد فيما علمت. ومحمد امام العبد وهو شاعر مجيد يوسد بالامس التراب ولا يتقدم احد ليقيم له ليالي مأتمه. وفي بلاد الغرب يصنعون التماثيل للشعراء ويسمون باسمائهم الشوارع والدوارع ويجعلون لميلادهم ولموتهم اياماً في كل سنة هي بمنزلة ايام الاعياد. ويقولون بمصر الدستور والجلاء والمؤتمر. وتكتب الجرائد ليحيى وليسقط. من يحيى ومن يسقط ايها المساكين؟

لكل امريء في هذه الامة موضع يميزه. والناس في درجاتهم متقاربون. وليس رجل ينكره معارفه ويتجافاه اقرب اقاربه الا الاديب. فهو اذا برز على اقرانه حسدوه وان اقصر عنهم حقروه وان ولج جمعاً جالت فيه ابصار المستهزئين. ولله في خلقه اناس يفخرون بملابسهم وليست بصنع ايديهم ولا انسجتها من نسجهم ولا اثمانها من كسبهم ولا زينتها تجمل ما قبح من اشكالهم. اولئك يطأون الهامات ويذللون الرقاب ويتهادون في كل مزدحم تهادي الكواعب الرود في الوشي والبرود. طواويس الرجال يقضون طوال الاعوام في ديوان الحياة ثم يخرجون منه كما تخرج الانعام من تحت السقائف. لا متزودين ولا مستخلفين. الى حيث القت رحالها

اعرف اناساً كانوا وضعوا للديكة اسماء مثل عنترة وعبد هياف وابي زيد وهم لا يعرفون من اسماء ملوك اوروبا خمسة. واعرف غيرهم كانوا يتعلمون من انواع الحمام كالهزار والعنبري والغزاري ما لو علموا بقدره من المفردات لفاقوا علماء اللغة. وفيهم من اذا نظر توقيعه ظنه توقيع غيره هؤلاء تمر بهم الخلائق كما تمر بهم صور السينماتوغراف. فهم يرون ولكن لا يدركون. فخارهم ابهة ولائمهم. وان يقال فلان انفق على وليمته كذا من الجنيهات. وحلاهم ثيابهم بها يتنافسون اذا جمعتهم المجامع. يقول قائلهم انا فصلت ملابسي هذه عند «كولاكوت» فيساجله الآخر قائلاً وانا

فصلت ثيابي هذه عند «ريبو». اسمعي يا امم الشرق واعجبي يا امم الغرب وميدي يا رواسي الارض واعلامها وغيضي يا بحارها ويا انهارها. عندي كثير من هذه الاحاديث وما سياتي اجلب للعبرات وابقى للحسرات. منك الصبر ومني الشكاة

نظر الى الكتاب المطبوع باحدى اللغات الاجنبية فنرى مكتوبًا عَلَى جلده الطبعة العشرون والطبعة الخمسون واكثر من ذلك. وقد يكون عدد نسخ الكتاب في الطبعة الواحدة عشرة آلاف على الاقل وليس في الشرق كتاب طبع مرتين الا نادرًا او ما كان متضمنًا للمجون. وجرائدنا ياكل مشتركوها اثمان اشتراكهم فيها ويكتفي قراءها بنسخ ياخذونها من المشتركين او يقرأونها في القهوات. وقد يبالغ في الغرابة بعضهم فيرد الجريدة مكتوب عليها «مرفوضة» بعد ان يكون قرأها اشهرًا واعوامًا. واغرب منهم من جاءته جريدة «الجامعة العثمانية» وهي جريدة تنشرها (الجامعة العثمانية) في بيروت وتعطيها من دون ثمن ويكتب عَلَى غلافها مجانًا فرد الرجل الجريدة بعد ان كتب على غلافها بالعربية والفرنساوية مرفوضة. رفض الفضل ورفض الكرامة. لا طال ذنب زمانه. ولم يخجله كرم الذين احسنوا بها عليه احسانًا لم يقع على مستحقه ومثل هؤلاء المخلوقات كثير بيننا ولا فخر

يموت ادباؤنا وتطفأ انوار المعاني في عقولهم وتبقى بيوتهم خالية واجداثهم داثرة وليس فينا من تحدثه نفسه بأَن ينقب عن اثارهم وينشر للامة ما طوي من معارفهم قرارًا بفضلهم وتخليدًا لذكرهم واستفادة من آثار قرائحهم ونحاول بعد ذلك ان نجاري الامم او نشبه عباد اللّٰه. ما اكبر جهلنا باقدارنا وما ابعدنا عن مواضع الانصاف

لا اديب العراق اجدته فرائده. ولا الاستاذ مفتاح هنأَته بلاغته ولا امام العبد اغناهُ شعره. وان نسخة من قصة القاضي والحرامي او قصة

دليلة المحتالة او قصة هف طلع النهار لاحب الى عامتنا واشهى الى خاصتنا من درر هؤلاء العظماء وجواهرهم وادعى للشجون ثم ابعث للطرب من قصائدهم وفصولهم. سقاهم اللّه رعاهم اللّه. عاشوا مظلومين وماتوا مظلومين. واودعت بطون المقابر كنوزًا يتباهى بامثالها ملوك الارض. يروى ان بعض الانكليز يقول لو خيرنا بين ان نخسر الهند كلها او نخسر شكسبير لاخترنا خسارتنا للهند ولابقينا شاعرنا عوضًا عنها ونحن ماذا نقول؟ نقول لتحى الديكة والحمائم. ام نصيح ليحى الدستور.

انا لنطمع اليوم في ان ننال ما لا يتاح لنا الا بعد خمسين عامًا فمثلنا مثل جماعة من العميان قيل انهم ركبوا احد المعابر (القوارب) ليعبروا النيل. فقال قائلهم: هل لكم في الخروج من المركب من غير ان تدفعوا اجرًا قالوا بلى. قال: اذن فاسمعوا لما اقول. اذا قارب المعبر الشاطىء صاح النوتي. «فلّق». فثبوا هنالك وثبة رجل واحد وتفرقوا هربًا واعلموا انهُ لا يترك معبرهُ ويعدو وراءكم. فقبلوا المشورة وكان النوتي يسمع المؤامرة وهم لا يشعرون. فلما توسط النهر صاح. «فلّق» فوثب العميان فوقعوا في البحر وغرقوا. واني لاخشى ان ينادينا الغرور نداء النوتي فنغرق غرق العميان.

الامة في حاجة الى نوابغها ونوابغها غرباءُ بينها والصوت الارن والقول المسموع ما يهتف بهِ قوم صمتت البابهم ونطقت ألسنتهم. هم المسيطرون وهم الزعماءُ

حسب الاديب في الشرق نعوتًا يكال له كيل الحشف. فهو الاديب الفاضل والشاعر البليغ والكاتب البارع واللوذعي والالمعي وغير ذلك. وليست هذهِ النعوت تجبى لمن تصدق فيه. او فيمن تكاد تصدق فيهِ. ولكنهُ مشارك فيها مشاركة الغبن أهل البلدة كلهم ادباءُ فضلاءُ بلغاءُ فصحاءُ

ما سلم من ذلك ملك ولا سوقة. واظن هذهِ هي المساواة التي يطلبها مجانين الدستور لا المساواة في الحقوق التي يثني عليها اهل الانصاف

الا من مبلغ عني كل اديب في الشرق انهُ اديب وانهُ فاضل وانه لوذعي وانه المعي وانه فصيح وانه بليغ وانه عند الناس وجودهُ مثل عدمه.

وانه أهون على امراءِ الذهب من ديك من ديكة الهند او من حمامة من حمائم اليمن

كنت ذات يوم راجعًا من دار البريد وفي يدي سيكارة هي أخرى اخواتها فمر بجانبي رجل يسرع في مشيتهِ فاستطارها من يدي حتى وقعت على الارض وكان اليوم شديد الهاجرة لافح الحر. فلما توسطت الشارع رأيت عربة نظيفة فيها رجل من رعاع القوم وامامه اثنان من الاوز. ثلاث رفقة في خير عربة يقودها جوادان مطهمان. فرفعت طرفي الى السماء وقلت: يا رب تلهمني الشعر. وتجري يراعي بما يستطيع من النثر وتجعل عبادك يدعونني بالاديب ان صدقًا وان كذبًا: ثم ارى اني احقر من الاوز في هذا الشرق!!! ثم انصرفت صابرًا.

هذا ميدان واسع. يتعب الجائل في ارجائهِ. ولو لا حقوق للأدب واهله ما سطرتها. ثلاثة اخوان. مكروب ودفينان. اما الرثاء فبعض مَا يجب ولن يفوتني ما استطعت منه. واما النحيب فاني سوف انتحب. فمن لي بمن يساجلني الدمع ويشاركني في الشكاية. اما انا لمظلومون.

ليلة القدر

اذا جاء اليوم السابع والعشرون من شهر رمضان تزاحم الناس على الجوامع. فاذا قضوا صلاتهم جلسوا الى حلقات يستمعون فيها الاذكار ويكررون التسبيح ويبتهلون بالدعوات فاذا فرغوا من ذلك عادوا الى بيوتهم فصعدوا السطوح وفرشوا ارضها بالبساط وجلسوا يرتقبون ليلة القدر

— وما ادراك ما ليلة القدر؟

— ليلة القدر خير من الف شهر. تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر. سلام هي حتى مطلع الفجر.

يقولون ان ابواب السماء تفتح ثلاث مرات متتابعات. في ساعة من ساعات ذلك الليل. لا يعرفها احد ولا ينتبه لها الا من اراد اللّٰه له الخير. وتكون كل فتحة كالبارق اذا ومض فينبغي على العاقل ان يدعو بما قل لفظه وكثر معناه. وان يجعل دعاءه ثلاث جمل متتابعة فيقول عند الوميض الاول: اللهم هبني مالًا لا يعد. وعند الوميض الثاني: وكلمة لا ترد. وعند الوميض الثالث: وادخلني الجنة بغير حساب

هذا لعمر الله التلغراف اللاسلكي الرباني يراسل به عباده كل عام في ثلاث ثوان. ولقد روي لي رواية وعهدة الرواية عليه ان عجوزًا رأت الوميض الاخير وقد خرق الفقر اطمارها حتى اصبحت كنسيج الغرابيل. فغلبت عليها القناعة. فقالت في دعائها: اللهم سد خروقي كلها. فلما اصبحت رآها الناس وقد مسحت عيناها وسد فمها ومنخرها واذناها سدا محكمًا فماتت محبوكة الاطراف طامسة الشكل. رحمة اللّٰه عليها

ورأى آخر ليلة القدر وكان الشيب أنبت بشعره ثغامه فقال اللهم اجعل بياضي سوادًا. فما أصبح الا وكله سواد يسعى في أديم لو كان ليلة القدر لما تألق فيه بارقها

وكان رجل لا يرزق ذرية فقال: اللهم املأ بيتي صغارًا فانتبه في الغد على صياح ملأ بيته حتى أن ظن الحيطان تتصايح. فاذا هو بنحو الخمسين صبيًا لا يزيد طول واحدهم على الشبر يجاذبون امرأته ويتواثبون حول سريره هذا يقول ابي وذاك يصيح امي وكلما حاول مع امرأته الهرب حالوا بينهما وبين الباب. فرأت المرأة ان تأتيهم بشيء من اللبن في وعاء كبير لتقسمه بينهم. فوثب بعضهم في الوعاء فغرق فيه فعلا بكاء الآخرين.

فلما ضاقت الحيل بالرجل وامرأته رميا بانفسهما من كوة تطل على الطريق وارسلا ساقيهما للريح فرارًا. لما كنت صغيرًا كنت أجلس الى بعض الشيوخ فيقصون على هذه النوادر وانا اكاد اموت ضحكًا. ولقد قلت ذات يوم لرجل منهم: تعالى الله عما تقولون. أيكون الحكيم العادل. يعلم ما تخفى الصدور. ثم يفهم الدعاء كما يفهمه عبد الحميد. فضحك الرجل حتى سال لعابه على لحيته

وكانت عندنا قهرمانة عجوز طبعت على الوشاية وسوء الخلق. فما ترى منا شيئًا مما يتلهى به الشبان الا وشت بنا الى ابي فينالني من تانيبه وغضبه ما ينغص حياتي. فلما كانت ليلة القدر وكنت على موعد من رفاق لي لنقضي هزيعًا من الليل في انس رتبناه ورأيت تلك العجوز لا تفارق خطاي دفعت اليها تقويمًا كان معي وقلت: هذا دعاء ليلة القدر حسب المرء ان يجعله على صدره وان يجلس على السطوح رافعًا وجهه الى السماء فلا يلبث ان يرى بارق القدر. فأُخذ التقويم مني جذبًا وسمعت في صدرها ضحكًا كقعقعة الطاحون. واقامت ترقب البارق واقمت اجتلي المسرة في صحبي

آه ما اكثر اختلافات الاهواء. لو علمت ان يستجاب دعائي لقلت:

يا رب «امح التعصب من القلوب. واجعل الناس اخوانا. واحبس ألسنة الادعياء عن الشعر والبيان» هذه ثلاثة اتمناها ولى من الحظ ما قدر فكان

تفتأ هذه الاوهام ربى في اعشاشها فتدرج منها لتأوى الى عقول تخاذلت من فتحها جنود العلم ويدوم هذا العصر في معجزاته يبهر الابصار ولا يلامس البصائر. فكم من حكيم يأتيك باللباب من حكمته فتزوى عنه وجهك وتهبه اعراضا ويجد المعمم ذو الاظافر الزروق واللحية المنتفشة فؤادك

أدنى لي غيه من فؤاده فيأتيك في شملته يحرر فضول ردائه فيستطعمك ثم يمد اليك يده لتقبلها

بلغني ان شيخا من اهل الزهد صعد على احدى المنارات في ليلة القدر وأخذ في الدعاء والتسبيح فغلب عليه النوم فرأى في منامه كأن السماء انشقت عن نور ملأ الآفاق وبهر الانظار. فنزلت الملائكة في اجنحتها الخضر ترفرف بها على رؤوس الناس. والناس ما بين ساجد وراكع مبتهل فاخذ الشيخ في الدعاء فقال:

— اللهم انزل على فتاة تكون حسرة العشاق وحرقة القلوب اذا دنت ملأت العين نورا واذا نأت اودعت الفؤاد كمدًا. فما تم دعاءه الا وهبطت عليه فتاة هي أجمل مما طلب فمد اليها يمينه ليعانقها ويضمها الى صدره فما راعه الا صوت كف رن على صدغه الايمن جاوبه مثله على الايسر فانتبه مذعورًا فاذا المؤذن امامه يقول له:

— ايها الشيخ الصاقع. الا تستحي؟ اتيت لأؤذن الفجر فرأيتك مضطجعا فانحنيت لارى ما بك واذا بك تفتح ذراعيك لتضمني اليك وانا رجل لا يمزح مع مثلي. فخجل الرجل وايقن ان الله لا يستجيب لمثله دعاء.

خليج البسفور
في احدى ليالي الشتاء

الظلم له يد وليس له فؤاد يغمد خنجرًا من خناجره في قلب من قلوب الناس فلا يستشعر لذلك الما. القتيل مضرجًا بدمه لديه كالحي مضمخًا بطيبه. ظلمات الليالي وظلمات البحار وظلمات القبور. كل تستتر في اثنائها بدور مطالعها الشباب ومنازلها الآمال. واذا كان لاهل الويل تراث فاللواعج التي تذكيها الذكر والحسرات التي تستديمها

الصروف. اجسام ما زهور الرياض ولا نيرات الآفاق ولا عقيان القلائد ولا جواهر التيجان باحن منظرًا. تربى متنقلة في الدلال من حنو مرضعة الى غناء مربية الى ابتسامة الى مواصلة حبيب كل ذلك لمصرع لحظة يتلوها الفناء. ما اضيع الامل وما اعد القضاء

في ليلة من ليالي الشتاء سكنت تحتها الاشياء وتحركت الضمائر سوداء الجلباب بيضاء الصقيع. طرقوا باب المظلوم فاطل عليهم. قال:

— من الطارق المنتاب؟ قالوا

— اجب. شفيق يدعوك

فقام الى ثيابه فلبسها ومال الى اهله فودعهم وتوسط رسل البين وزبانية جهنم فاركبوه عربة سارت حتى وقفت بهم امام باب كبير. فمشى الرسل ومشى بينهم المظلوم. فادخل به على من وجه في طلبه. فتقدم خطوات وسلم تسليم غير المشتاق ووقف ينتظر الجواب. هذا الموقف مهبع من الحياة الى الموت. تعلل كل ثانية من ثوانيه نافع لمن ناله: رحمة الله على ابي تمام اذ يقول:

ها إن هذا موقف الجازع ✻ اقوى وسوّر الزمن الفاجع

الطالب والمطلوب متوجهان. خصمان هذا سيفه سلطان وذاك درعه اساه. فلما استطال السكوت واستبطأ الشر اسيره رفع شفيق رأسه ونظر الى غريمه نظرة ملؤها الختل ثم قال:

— الآن يذهبون بك الى (القصر) ولا أدرى عم يسألونك هنالك.

فكن رابط الجأش واحسن الجواب تلق خيرًا

ثم أمر شفيق اثنين من الشرطة ان يركبا المظلوم عربة وان يمضيا معه ففعلا. فلما اوفوا على الشاطيء ألفوا زورقا فيه اناس بانتظارهم. فاركبوا الزورق وانطلق حتى رسا بهم الى جانب سفينة كبيرة فصعدوا

اليها. وجاؤا للمظلوم بكرسي فجلس عليه وناولوه سيكارة جعل يصعد دخانها وهو صامت ثم أقبل من البر زورق آخر فصعد منه جماعة منهم محمد علي رئيس الهيئة التحقيقية اذ ذاك: فدنا من المظلوم وقال له:

— الآن صدرت الارادة السلطانية بالقائك في البوسفور بذا قضى الله ولا مرد لقضائه. فان كانت لك وصاة توصي بها من بعدك فهاتها. وان كانت نفسك تشتهي شيئًا مما يؤكل او يشرب فاقترح

قال لا أريد شيئًا. وانسابت من مقلتي الرجل شآبيب خضلت لحيته والناظرون اليه لا يبكون. هم يعجبون ان يجزع الناس لفراق الدنيا. شهدوا مصارع كثير من الخلائق وشهدوا جزعهم عند الموت. فاستضحكهم ذلك وقالوا: ما لهؤلاء يخافون ما لا بد منه. وما تعجيله الا تعجيل امر لا ريب فيه. يا حكماء الموت هذا عجب الخلي من حال الشجي ولعل لكم في ذمة الدهر مواقف مثل التي انتم لها شاهدون. سكت المظلوم سكتة غلبه عليه فؤاده. وفي ثنيات الافق كواكب تنظر ولا تسعف. والريح بليلة الجناح واليم جائش الغوارب والبران في بيوتهما المنيرة شاهدان ولكن لا ينطقان الشعراء يبكون بابياتهم والمظلوم ينشد دموعه. اي قعيدة الشجون. هذا الفراق

فرجى الخير وانتظري ايابي ✻ اذا ما القارط العنزي آبا

لما جاؤا بالسلاسل فامروها على عنق المسكين واثقلوا رجليه بقطع الحديد واهووا به الى الماء فغاب في عبابه عرف هوان الحياة وكيف تجنى الوالدات على من ولدن والى اية غاية يكون المصير...

قالت جرائد الاستانة الصادرة في...

عثر رجال الشرطة على جسد رجل بشاطئ البحر قد تشوه وجهه ومزقت ملابسه واعضاوه فلم يمكن أن يعرفوا من هو ولكنهم رأوا في ملابسه خاتمه المنقوش عليه اسمه فاذا هو اللواء... وظهر ان بعض اعدائه الخائنين

انفردوا به يومًا فاغرقوه. وقد صدرت الادارة السلطانية بالجد في طلب الجانين الذين اعتدوا على مثل هذا الفقيد الغالي!!! ووعد من يعثر عليه ان يعطي جائزة سنية ويزاد راتبه وترفع رتبته

بين نوحات النائحات وبكاء الثاكلات سكوت يأتى به الاعياء وتقطع الانفاس. ذلك من الفواصل التي ينوب فيها القلب عن العين فتسكت الظواهر وتبكي السرائر. وقد وقع مثل هذا في بيت الفقيد الغالي!! جاء رجل من القصر يحمل مطية. كام الايم من وراء ستارها فقال:

— أمير المومنين في حزن عظيم على المرحوم! فقد كان يحبه كثيرا! وهو يقول: اذا ذهب حاميكم فانا حاميكم. وهذه هديته اليكم فانطلقت الالسن بالدعاء من قلوب لا يشوبها الرياء...

كان يخدعون الناس فيسرقون منهم الدعوات ويريدون ان يخدعوك يا رب ليختلسوا منك الرحمة والرضوان

مصطفى المنفلوطي

١٨٧٦ — ١٩٢٤

جرجي زيدان

لا أعلم أين تذهب نفس الانسان بعد موته، ولا أين مكانها الذي تستقر فيه بعد فراق جسدها، ولا ما هي الصلة التي تبقى بين المرء وبين حياته الاولى بعد رحيله عنها فان صحيحًا ما يقولون من أن ساكن القبور يستطيع أن يجد بين صخورها ورجامها منفذًا يشرف منه على هذه الدار فيسره ما ترك وراءه فيها من ذكر جميل، وثناء عاطر، وسيرة صالحة، ومجد باق، فان نصيب جرجي زيدان اليوم من الهناء والغبطة بما ترك في حياته الاولى من جليل الآثار، وصالح الاعمال، أوفر الانصبة وأجزلها

ما أنعم الله على عبده نعمة أسنى قيمة، ولا اغلى جوهرا ولا أحسن أثرا، من نعمة اليقين بالجزاء الصالح على العمل الطيب، فهو يعتقد أنه مجزيٌّ على عمله، مكافأٌ به، مؤمنا كان أم ملحدا، معترفا بنعيم الآخرة أم منكرًا له فان كان الاول ساقه إلى العمل الصالح شغفه بجنة الخلد وحورها وولدانها، ولؤلئها ومرجانها، وروحها وريحانها وان كان الثانيَ ساقه اليه شغفه بالذكر الجميل، والسيرة الصالحة، والحياة الباقية في ألسنة الاجيال، وبطون التواريخ، ولو لا هاتان الجنتان، جنة المؤمنين، وجنة الملحدين، ما جَدَّ في هذه الحياة جادّ، ولا عمل فيها عامل

ان ميدان الحياة أضيق من أن يسع بين غايتيه العملَ الصالح والجزاءَ عليه معًا، وكيف يسعهما والمرءِ لا يكاد يفرغ في حياته من عمله الذي يتوقع عليه الجزاء قبل أن تنطفئ ذُبالة حياته، وتحترق فحمة شبابه، حيث تموت في قلبه لذة العظمة، وتنضب في فؤاده شهوة المجد، فان فرغ منه قبل ذلك لا يترك له حساده ومنافسوه ساعةً من ساعات فراغه يستطيع أن يسكن فيها إلى نفسه، ليستشعر برد الراحة، ولذة الجزاء، فلا بد أن يكون للجزاء حياة أخرى غير هذه الحياة إما حياة الاجر، أو حياة الذكر

مات جرجي زيدان فنحن نبكيه جميعًا: أما هو فيبتسم لبكائنا، ويرى في تفجعنا عليه والتياعنا لفراقه منظرًا من أجمل المناظر وأبهاها، لأنه يعلم ان هذه الدموع التي نرسلها وراء نعشه أو نطرها فوق ضريحه إنما هي ألسنة ناطقة بحبه وإعظامه، والاعتراف بفضله والثناء على عمله، وأنها المداد الالهي النوراني الذي تُكتب به في صحيفة تاريخه البيضاءِ آياتُ مجده الخالد، وعظمته الباقية، وذلك ما كان يريد أن يكون

مات جرجي زيدان فبكاه صديقه لأنه كان يحمد وده وإخاءَه، وبكاه جاره لانه كان يجد في جواره لذة الانس وجمال العشرة، وبكاه معتفيه لانه كان ينتفع بماله، وبكاه صنيعته لانه كان ينتفع بجاهه، وبكاه قارئ كتبه لانه كان يجد فيها من غزارة المادة وجمال الاسلوب، وسهولة التناول، ما لا تجد في غيرها، وبكاه قارئ رواياته لانه كان يجد في خيالها، وبراعة تصوراتها، عونًا له على هموم الحياة والامها، أما أنا فبكيته لامر فوق ذلك كله

تطلع الشمس صباح كل يوم من مشرقها على هذه الكائنات ناطقها وصامتها، ساكنها ومتحركها، جامدها وسائلها، فتستمد جميعُ ذراتها منها مادةَ حياتها التي تقوّمها، او صورتها التي تتشكل بها، وتأخذ منها الأغراسُ نماءها، والازهار ألوانها، والنار حرارتها، والاجسام الحية قوتها،

والاجسام الجامدة صورتها، والاجواء طهارتها ونقاءها والآفاق جمالها وبهاءها، وكذلك كان جرجي زيدان في سماء هذا البلد

كان بطلا من أبطال الجد والعمل، والهمة والنشاط، يكتب أحسن المجلات، ويؤلف أفضل الكتب، وينشىء أجل الروايات، ويناقش ويناضل، ويبحث وينقب، ويستنتج ويستنبط، ويجيب السائل ويفيد الطالب، في آن واحد، لا يشغله شأن من تلك الشؤون عن غيره، ولا يشكو مللا ولا ضجرا ولا يستشعر خورًا ولا فتورا. فكان القدوةَ الحسنة بين فريق المستنيرين من المصريين، يتعلمون منه أن قليلا من العلم يتعهده صاحبه بالتربية والتغذية ثم يقوم على نشره وإذاعته بين الناس أنفع له ولأمته من العلم الكثير والعمل القليل، ولو شئت أن أقول لقلت إن جرجي زيدان كان رئيس البعثة العلمية السورية التي وفدت إلى مصر في أواخر القرن الماضي فغيرت وجه العالم المصري تغييرًا كليًا، وغرست في صحرائه القالحة المجدبة أغراس الجد والعمل، والشجاعة والاقدام، والهمة والاستقلال، وعلمت أبناءه كيف يؤلفون ويترجمون، وينشئون الجرائد والمجلات، وكيف يتخذون من هذا العمل الشريف صناعةً يقومون بها حياتهم المادية، وحياة أمتهم الأدبية، ويتقون بها مذلة الوقوف على أبواب الدواوين صباحَ مساء، يتكففون رؤساءَها، ويسألونهم ان يتخذوهم عبيدًا لهم يخدمونهم على موائد عزهم وسعادتهم التي يجلسون عليها، فإما عطفوا عليهم فالقوا اليهم بالنزر الخسيس من فُتات تلك الموائد، وإما طردوهم منها كما يطردون الكلاب العاوية

وكان شريف النفس، بعيد الهمة، متجملا بصفات المؤرخ الحقيقي الذي لا يتشيع ولا يتحيز ولا يداهن ولا يجامل، ولا يترك لعقيدته الدينية مجالا للعبث بجوهر التاريخ وحقائقه، فكتب وهو المسيحيُّ الارثوذكسي تاريخ الاسلام في كتبه ورواياته كتابةَ العالم المحقق الذي لا يكتم الحسنة

اذا رآها، ولا يشمت بالسيئة اذا عثر بها، فاجتمع بين يديه في مجلس علمه من أبناء الامة الاسلامية خاصتها وعامتها، وعربها وعجمها، جمع لم يجلس مثله بين يدي عالم من علماء الاسلام ولا مؤرخ من مؤرخيه في هذا العصر، فأقام بهذا العمل العظيم لهذا الدين القويم حجته امام أولئك المتعصبين من الاوربيين الذين لا يثقون في خبر من أخباره، ولا في بحث من أبحاثه، بحديث شيعته وأبنائه، وكان في تسامحه هذا القدوة الصالحة للمؤرخ يتعلم منه كيف يكتب التاريخ بلسان التاريخ، لا بلسان الدين، والمثل الأعلى للعالم يتعلم منه كيف يستطيع ان يتجرد من عواطفه، وميول نفسه، وخواطر قلبه أمام الامانة للعلم، والوفاء بحقه.

وكان مستقيما في عمله، أمينًا في علائقه، لا يكذب ولا يتلون، ولا يَخِس بعهده، ولا ينكث وعده، ولا يكسو بضاعته لونا غير لونها ليزخرفها على الناس ويجمّلها في عيونهم، فتعلم منه العاملون أن الكذب في المعاملة ليس شرطا من شروط الربح، ولا سببًا من أسباب النجاح.

وكان واسع الصدر، فسيح رقعة الحلم، وقف له في طريق حياته كما وقف لغيره من قبله ومن بعده فَريق المقاطعين في هذا البلد الذين لا ينطقون، ولا يسكتون عن مقاطعة الناطقين، فلبسوا ثوب الانتقاد ليشتموه، وكمنوا وراء أكمة الدين ليرموه فيُصموه، وقالوا إنه شوه وجه التاريخ الاسلامي وعبث بحقائقه، ولم يسألوه من أين نقل، ولا كيف استند، بل سألوه لِمَ لَمْ يكتبه كما كتبوا، ويستنتج منه مثل ما استنتجوا، كأنما لم يكفهم منه أن يروه بينهم مسيحيًا متسامحًا، حتى أرادوا منه أن يكون مسلمًا متعصبًا، يكتب التاريخ بلسان الدين كما يكتبون، وينهج فيه كما ينهجون، فلما لم يجدوه حيث أرادوا رموه بسوء القصد في عمله، وخبث النية في مذهبه، ولم يستطيعوا أن يَرُوضوا انفسَهم الجامحة على ان يقولوا ان الرجل باحث مستنتج، يخطئ مرة ويصيب أخرى أو يقولوا إن

له في تاريخ الاسلام حسنات تصغر بجانبها سيئاته فيه فلنغتفر هذه لتلك، وما أحسب أن أحدًا منهم كان يعتقد شيئًا مما يقول، ولكنهم كانوا يرون أن الدين سلعة تباع وتشترى، وأن سلعتهم ملك لهم، ووقف عليهم، لا يجب أن تعرض في حانوت غير حانوتهم، وكانوا يظنون أن الرجل تاجر مثلهم يريد أن يفتح في سوقهم الحانوتَ التي يخافونها، فاستوحشوا منه، وأنكروا مكانه، واستثقلوا ظله، وقالوا مرة إنه مسيحيّ لا يؤمَن على الاسلام ولا على تاريخه، كأنما ظنوا انه ينقل حوادث التاريخ ووقائعه من توراة موسى أو إنجيل عيسى، وقالوا أخرى انه سوري دخيل وفد على هذا البلد مسترزقا أو متجرًا، فما هو بمخلص ولا بأمين، وفاتهم عفا اللّه عنهم أنه إن كان ضيفًا فليس من أدب الضيافة ولا من خلال المروءة والكرم أن يمن المضيف على ضيفه بيده عنده، وأن يعد عليه لقيماته التي يُطعمها على مائدته، وان كان تاجرًا فقد باعهم بهذا النزر الخسيس من متاع الدنيا وزخرفها جوهر عقله وينبوع ذكائه، ومادة حياته، فما كانوا من الخاسرين، ولا كان من الرابحين

واللّه ما أدرى كيف تتسع صدورهم للنخار الرومي واللص الايطالي والفاجر الأرمني أن يَفتح كل منهم في كل موطئ قدم من مدنهم وقراهم حانًا يسلب فيه عقولهم، أو مقمرا يسرق فيه أموالهم، أو ماخورا يهتك فيه أعراضهم، فلا يطاردونه ولا يحاربونه، ولا يسمونه دخيلا ولا واغلا، ثم يضيقون ذرعًا بالعالم السوري أو العراقي أو المغربي ينزل ارضهم نزول الديمة الوطفاء بالصحراء المحرقه، فيعلمهم العلم، ويهذب نفوس أبنائهم، ويثقف عقول ناشئتهم، ويبعث في نفوس ضعاف العزائم منهم روح الهمة والنشاط، والشجاعة والاقدام

ذلك هو شقاء الأمم، وهذا جواب السائلين عن أسباب سقوطها وانحطاطها

لَمْ يضق الرجل ذرعًا بهذا كله، بل كان شأنه معهم أن كان يعتب عليهم، ولا يشتمهم، وينبههم الى أدب المناظرة وواجباتها، ولا يؤنبهم، ويدعوهم الى اتخاذ كلمة الحق سواء بينه وبينهم، ولا يمكر بهم، حتى انقلب عنهم يحمل لواء الفضيلة والحلم، وان كان مخطئًا، وانقلبوا عنه يحملون فوق ظهورهم رذيلة التعصب والجهل، وسوء الخلق، وضيق العطن، وان كانوا مصيبين

ولقد وضع بخطته هذه في مناظرة خصومه ومجادلتهم أولَ حجر في بناء الاخلاق الفاضلة في هذه الامة، فتعلم منه كثير من أدباء هذا البلد وعلمائه كيف يستطيعون أن يتناظروا ولا يتشاتموا، وأن يتعاونوا على الحقيقة المبهمة فيكشفوا الغطاء عن وجهها دون ان يريقوا في معاركهم قطرة واحدة من دم الفضيلة والشرف، فان تم لهذه الامة في مستقبل حياتها حظها من شرف الاخلاق وعلو الهمة ونبالة المقصد في جميع شئونها وأغراضها فلتتذكر دائما ان جرجي زيدان كان أحد الذين أسسوا في أرضها هذه الدولة الفاضلة دولة الآداب والاخلاق

نحن لا تُعوِزنا المؤلفات ولا المترجمات، فالمؤلفون والمترجمون والحمد للّه كثيرون، وانما الذي يعوزنا روح عالية تخفق في سماء هذه الامة خفوق النجم الزاهر في سمائه، وتشرق في نفوس أبنائها إشراق الشمس في دارتها، فتبعث العزيمة في قلب العاجز، والشجاعة في فؤاد الجبان، وتقوم من الاخلاق معوجها، وتصلح من الآداب فاسدها، وتُثبّت من العقول مضطربها، وتعلم كل صغير وكبير، وقوي وضعيف، أن قيمة المرء في حياته أداءُ واجبه للانسانية أولا، ولامته ثانيًا، ولنفسه أخيرًا، وأن الحب سعادة الانسان، والبغض شقاؤه وبلاؤه، وأن الفرق بين الدين الخالص والدين المشوب أن الاول يتسع صدره لكل شيء حتى لمخالفيه ومحاربيه، وان الثاني يضيق صدره بكل شيء حتى بنفسه، وأن اللّه تعالى أوسع

رحمة، وأعلى حكمة، من أن يسد في وجوه عباده كل طريق للوصول اليه الا طريق السيف والنار، وأن هذه الاحقاد الدنيئة التي تلتهب في صدور الناس التهاباً لا تؤججها في صدورهم الاديان نفسها، بل رؤساءُ الاديان الذين يستخدمونها ويستثمرونها، ويتجرون بها في اسواق الغباوة والجهل، وأن الذين يقدسون هذه الاحقاد ويباركونها ويعتبرونها جزءًا من ماهية الدين، ومقوّما من مقوماته انما يقولون من حيث لا يشعرون ان الالحاد في العالم، والفوضى الدينية فيه، وعبادة الشمس والقمر، والترب والحجر، أنفع للمجتمع الانسانيّ، وأحسن عليه عائدةً من عبادة الاله المعبود

ولقد كان جرجي زيدان روحًا من تلك الارواح العالية تمنيناها برهة من الزمان حتى وجدناها فلم ننعم بها إلا قليلا ثم فقدناها أحوجَ ما كنا اليها، فذلك ما يبكينا عليه ويحزننا على فراقه

* * *

الكاتب كالمصور، كلاهما ناقل، وكلاهما حاك، الا أن الاول ينقل مشاعر النفس إلى النفس والثاني ينقل مشاهد الحس الى الحس

وكما أن ميزان الفضل في التصوير أن تكون الصورة والاصل كالشيء الواحد كذلك ميزان الفضل في الكتابة أن يكون المكتوب في الطرس، خيال المكنون في النفس

بهذه العين التي لا أزال أنظر بها دائما الى الكتابة والكتاب، واوازن بها بين اقدارهم ومنازلهم، كنت أقرأ ذلك الاسلوب العذب البديع الذي كان يكتب به المرحوم جرجي زيدان كتبه وروايته، فاتخيله مرآة نقية صافية قد ارتسمت فيها صورة نفسه جلية واضحة لا غموض فيها ولا ابهام

وقليلا ما كنت أجد في نفسي هذا الشعور عند النظر في كتابة كاتب سواه، لان الكاتب ان استطاع أن ينال ثناء الناس وإعجابهم ببلاغة لفظه، أو براعة معناه، أو سعة خياله او قوة حجته، فانه لا يستطيع أن ينال الثقة من نفوسهم الا اذا كان من الصادقين المخلصين

كنت أرى عذوبة نفسه في عذوبة لفظه، وطهارة قلبه في طهارة لسانه، وصفاء ذهنه في وضوح أغراضه ومراميه، وجمال ذوقه في جمال ملاحظاته واستنتاجاته، وكان خير ما يعجبني منه ترفعه عن مجاراة المتكبرين من الكتاب في كبريائهم ونزولهُ في كثير من مواقفه الى منازل العامة ليحدثهم بما يفهمون، لانه كان من كتاب المعاني لا من كتاب الالفاظ، ولأنه كان يؤثر أن يتعلم عنه الجاهلون، على أن يرضى عنه المتحذلقون

واذا كان الرجل هو الاسلوب كما يقولون، فلا أعلم أن أحدا في هذا البلد كان أولى بوصف الكاتب من المرحوم جرجي زيدان، فوا رحمتاه له، ووا اسفًا عليه

أمين الريحاني

١٨٧٩

ملوك العرب

المقدمة

١

كنت في الثانية عشرة من عمري عند ما سافرت المرة الاولى الى الولايات المتحدة. فلم اكن اعرف غير الشيء اليسير من اللغتين العربية والافرنسية، وما كان في ذهني من العرب واخبارهم غير ما كانت تُسمعه الأمهات في لبنان صغارهن. هس، جا البدوي! والبدوي والاعرابي واحد اذا رامت الام «بعبعًا» تخوف به اولادها.

هجرت وطني وفي صدري الخوف ممن اتكلم لغتهم والبغض لمن في عروقي شيء من دمهم. والبغض والخوف هما توأما الجهل.

اما الامة الافرنسية فما كنت اعرف من امم الارض سواها. ولكنها معرفة مطوّسة كانت المدارس تنشر اذنابها في لبنان: ان فرنسا لأعظم امم الارض، هي اشرفها واغناها وارقاها. بل هي قطب المدنية، وعاصمة النور والجمال — هي الطاووس بين الامم.

كذلك كانت مدارسنا مثل امهاتنا تسقينا العلم في كأس التمويه. الا ان في كأس المدارس حلاوة زادتنا كرهًا «لبعبع» الامهات. هي

كأس الجهل في الحالين، الجهل الذي يولد الخوف والبغض، والجهل الذي يولد الحب والاعجاب.

اما اميركا فقد كنت في ما عرفته منها بعيدًا عن الام وعن المدرسة. تناولت الكأس من يد الوجود وقد ملأها الشعب الاميركي بنفسه. ومع ذلك فلم تخلُ مما امتازت به الكأسان الاوليان. رشفت في نيويورك الجام تلو الجام من العلوم المشوبة وفيها اشياء من الجهل المتلالئ وما يمازجه من الخوف والاعجاب

غدوت بعد عشر سنين في اميركه معجبًا بنشاط الشعب الاميركي وبحريته في الفكر والقول والعمل خائفًا من نتيجة الجهاد المادي هناك ومن التكالب في سبيل الحياة الدنيا. وما كان خوفي على الامة الاميركية وانا في ذاك الحين. في عين نفسي، قطب كل ما اهتممت له نقطة الدائرة في كل ما ملت اليه. خفت ان اُغلب في ذاك الجهاد، اشفقت على نفسي من ذاك التكالب.

ونسيت فرنسه الا في آدابها، تلك الآداب التي زادتني ضعفًا وتردّدًا في مضمار الحياة. صرفتني عن حقائق الوجود المادية، وزيّنت لي في الفنون الجميلة الحقائق المعنوية. صرت في نيويورك كئيبًا يحمل كتابًا، وغاويًا من غواة الفنون يمشي في الجنائن العمومية سبهللا، فانفتحت امامي ابواب من العلم متعددة واتسع مجال الاضطراب والغرور

ولكن الآداب الانكليزية عادت بي الى الشعب الانكليزي فوجدته في امور كثيرة، اخلاقية واجتماعية، ارقى من الشعب الاميركي، او احب الى من كان مثلي. فكان لي في ذا العلم عون على مقاومة تيار الاقتباس والتأمرك، فلم اتخلق مثل سواي من السوريين هناك باخلاق الاميركيين كلها. والفضل في ذلك عليّ هو لفيلسوفهم الاكبر امِرْسون الذي كان دليلي الاول الى محاسن الانكليز في ما كتبه عنهم وعن سجاياهم

وقد عرّفني امِرْسون الى كَرْلَيْل وكان كرليل اول من عاد بي من وراء البحار الى بلاد العرب. أجل، وقد يستغرب قولي اني عرفت بواسطة الكاتب الانكليزي سيد العرب الاكبر النبي محمدًا فاحسست لاول مرة بشيء من الحب للعرب وصرت اميل الى الاستزادة من اخبارهم ثم في غزواتي للكتب الانكليزية غنمت كتابًا استوقفني طاهره الفخم وراقتني الصور فيه. وما كان العنوان لينبئني بشيء اكره او احب. قرأت كتاب الالهمبرا فادركت ان المؤلف يريد بالعنوان الحمراء، وعرفت ان الحمراء هي لؤلؤة تاج العرب في الاندلس.

لله انت ايتها البلاد العربية التي لم يشأ الله ان اجهلك حياتي كلها، فبعث اليّ، وانا بعيد عنك، انكليزياً يعرفني الى رسولك واميركيًا يصف لي محاسن ابنائك.

بعد ان قرأت كتاب الحمراء مازج عقليتي الاميركية الافرنسية الانكليزية شيء من الخيال الشرقي فصرت احلم بذاك المجد الماضي احلامًا تمثلني حبًا فيه بل تمثله حبا امامي.

عدت الى بلادي كئيبًا يحمل كتابًا، ويرغب في ان يكون الكتاب كتابين ومائة كتاب، وكنت لا اعرف من لغتي وآدابها غير اليسير اليسير، فتغلغلت في سراديبها دون ان ارثي لحالي. وبينا انا اتخبط في دياجي اللغة عثرت على كتاب شعر انساني الكسائي و سيبويه وكل من علم حرفًا في البصرة والكوفة.

جمعني الله سبحانه وتعالى بابي العلاء المعري بعد ان هداني بواسطة الفيلسوف الانكليزي الى الرسول العربي. قرأت اللزوميات معجبا بها، ثم قرأتها مترنحًا ورحت افاخر باني من الامة التي نبغ فيها هذا الشاعر الحر الجسور، الحكيم

٢

عدت الى اميركه استصحب صاحب اللزوميات، وكنت ترجمانه هناك. فساقتني المهنة الى الدائرة الشرقية في دار الكتب العمومية، فاجتمعت فيها بعدد من المستشرقين الذين صوروا لي الحياة رحلة في الأرض دائمة، وصوروا الأرض بادية غريبة نبغ فيها محمد بن عبد اللّه القرشي وامرؤ القيس الكندي. الشعر والنبوة والدهناء، والواحات في بحار من الرمال، والنخيل في الواحات يهمس في اغصانها النسيم، ويهز جذوعها السموم، وصوت الساقية وهي تغني للارض المنعمة في ظلال النخيل، وبُنيّة البدو تغني لجمل الساقية — وماذا في نيويورك؟ ماذا في نيويورك غير الضوضاء والعناء والعياء والبلاء؟

هذا الرحالة بَلغراف وترجمانه اللبناني الذي صار بعدئذ بطريركا عظيما يحدثاني عن شمّر والقصيم والعارض والرياض. وذاك المستعرب بُركهارت وقد دخل الى مكة حاجًا، مسلما صادقًا نقيًا. وهذا العلامة بُرتُن يقص قصة عجيبة بطلها بزّاز من سمرقند قد حمل الكيس — تفتا هندي شاش حريري يابنات! — ليكشف له اسرار الحريم. ثم ركب العيس، وكان دليله ابليس، فاقتفى اثر بُركهارت لغرض في النفس، ونظم قصيدة كفرية كفر بها عن كل مآتيه في التلبيس

وهذا خليل الذي راح يهول بنصرانيته في وجه البدو، فقاس في رحلته الاهوال، ونجا غير مرة من مخالب الاضمحلال. اضطهد في بُرَيدة، وطُرد من عنيزة، وسُلب وضرب، وترك في النفود يهيم على وجهه وليس في جيبه غير خمسة ريالات، وليس في قلبه ذرة من التدليس والتلبس. الدرويش خليل، كأنه كان يهوى الاخطار فيجذبها اليه. خليل النصراني، جاء بتعصب استكلندي يثير في العرب التعصب الاسلامي. خليل

النصراني الكافر! قُطوا رأسه بالسيف! ولكن الله اخرجه من شبه الجزيرة حيًا ليكتب كتابًا لا يموت.

وكل هؤلاء من الاجانب يسيحون في بلاد كانت قديما ولا شك بلاد اجدادي، ويخاطرون بانفسهم فيها حبًا بالعلم، فيكشفون منها المخبأ، ويجلون المصدأ، ويقربون البعيد ويغربون في اللذيذ المفيد. وانا في نيويورك كئيب يحمل كتابًا، ويطرق للمحرر الانكليزي المتغطرس بابا. اديب شعره طويل، وصدره عليل، يسرف من ذهب الحياة في تسويد المقالات. آلة كاتبة يرقص حولها الهم والامل متخاصرين. أفٍ لهما من زوجة نقاقة، ومن حديدة لباب الشهرة دقاقة. واية عبودية اشد من عبودية الآلة الكاتبة واخبث. طلقتها ثلاثاً وعدت الى بلادي اعدّ العدة لرحلة تبعدني عنها وعن الكتب والمجلات والادباء والاديبات.

وكان لي صديق في دمشق يجر قيودًا للسياسة ثقيلة فحاول التفلت منها. كسرها ذات يوم فاثار السلطة عليه، فصفع السلطة وفر هاربًا الى الفريكة، فحل فيها اهلا ونزل سهلا — سهلاً في القلوب ومنحدرًا في الوادي. اقام محمد كرد علي عندنا اسبوعًا عددناه من شوارد الزمان. الوادي مهد الحرية وحصنها الحصين. سمعني صديقي اردد ذات يوم هذه الكلمات فقال: لا تنخدع يا امين. الوادي قريب من دمشق ومن بيروت وفي المدينتين للعبودية عبيد وللظلم اسياد رعاديد. لا بأس بالهمس: والحمد للّه! ولكنك اذا رفعت صوتك تسمعك الصخور فتنم عليك وعلي.

فقلت: صدقت، وفي نيتي ان اهجر حتى هذا الوادي. في نيتي رحلة الى البادية، الى البلاد العربية على هجين يبعدني عن كل مظلمة وكل عبودية. فهلل صديقي وقال: نسير سوية. واتفقنا يومئذٍ ان نستعين بتجار من نجد في الشام يمهدون لنا السبيل ويزودوننا بكتب التوصية الى اهلهم وراء النفود.

ولكن الايام عدوة الاحلام، او انها لا تحقق منها غير ما كان ناضجًا في القلوب. تأثرت السلطة الاثيمة صديقي كرد علي فاضطر ان يتركني وحدي في الفريكة ويفر هاربًا من سورية. ثم سافر الى اوروبة فذاق من حلو المدنية فيها ما استلذه فاستزادها. فقالت له: عد فعاد، فتعددت رحلاته من المشرق الى بلاد المغرب واثمرت ثمارًا طيّبة تجدها في كتابه القيم «غرائب الغرب»

اما انا فقد طوحت بي الاقدار وابعدتني ثانية عن الوادي وعن البلاد العربية كلها. عادت بي الى نيويورك. ثم نُكبت الانسانية بالحرب العظمى فزلزلت الارض زلزالها، فاستعادت ما لها من التراب الذي كان بشرًا مسلحًا محاربًا، وقضت، في الكثيرين ممن استبقت، على جميل الاحلام والامال.

٣

ومن الاحلام ما يصبح جزءًا من حياة الانسان فلا تنفك تزعجه، تحرضه وان شاخت تستحثه، حتى يسعى في تحقيقها ويفلح في مسعاه.

رافقت العرب في خروجهم على الترك اثناء الحرب، رافقتهم في المجلات الانكليزية والجرائد العربية فكنت اقوم في ما اكتب عنهم ببعض الواجب الذي يفرضه الحب والاعجاب. وتوفقت في تلك الايام الى زيارة الاندلس فوقفت في الحمراء في الغرفة التي كتب فيها واشنطون ارفين كتابه النفيس، فسمعت اصواتًا تناديني باسم القومية ومن اجل الوطن، وتدعوني الى مهبط الوحي والنبوة.

اكبرت الملك حسينًا الذي استنفر القبائل على الترك وارسل اولاده الامراء الاربعة الى ساحات الوغى. وكان الناس في اميركه يعجبون بروزفلت الذي قدّم ثلاثة من ابنائه الى وطنه، فقلت: ولا يصغر العربي الهاشمي اذا قابلته بالاميركي الكبير. وعند ما انتهت الحرب كان الملك

حسين اول من صورته الامال ملاكاً يفتح لي بابها. وبينا انا افكر في طريقة تحمل اليه امنيتي القصوى، جاءتني مجله صديقي سليم سركيس وفيها خبر زيارته لتلك السدة الهاشمية المباركه.

واهم من ذلك يومئذٍ عندي خبر قرأته مدهوشًا مسرورا. جاءني الصديق بصديق آخر وهو من الخلان الاولين الذين كانوا يزورونني في الفريكة بعد عودتي الثانية من اميركه ويشجعونني في اقبالهم على رسالتي كتابه وخطابة في سبيل الاصلاح الاجتماعي والتهذيب وهذا الصديق هو قسطنطين يني الذي ابعدته عني الحرب العظمى وحرمتني اخباره. فجاء العزيز سركيس، كأنه رسول العناية الي، يبشرني بوجوده في خدمة جلالة الملك حسين

هللت وكبرت. وتناولت القلم وكتبت نوًا كتابًا الى العزيز قسطنطين فيه بين السلامين مائة سؤال وسؤال، اولهما: هل يأذن جلالة الملك بالزيارة؟ واخرها: هل ترافقني انت في هذه الرحلة؟ وما مضى الشهر الاول وانتصف الثاني حتى جاءني عنه الجواب وفيه ما يلي

«اتفق ان وصل كتابك الي وجلالة الملك حسين في جدة فقرأته له كلمة كلمة وتباحثنا مليًا في الموضوع... وهو يرحب بك اذا حضرت. ومن رأيه ان لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها فهو يساعدك على زيارة الحجاز من اقصاه الى اقصاه، ويعطيك المعلومات اللازمة ويطلعك على جميع العقود والنصوص والمفاوضات بينه وبين الدول من مطلع النهضة الى اليوم ليكون في استطاعتك تأليف كتاب عن العرب مستوفٍ من جميع ابوابه ومن رأيه انك متى درست اخلاق قبائل الحجاز تكون درست اخلاق بقية القبائل لانهم كلهم متقاربون بالعادات والمشارب... اما زيارتك الرياض وابن سعود فهذه مستحيلة لاستحكام العداء بينه وبين الحجاز... والسياحة توافق ان تكون في فصل الشتاء ولا تستغرق اكثر

من اربعة اشهر ولو انتهت في بغداد... واني بكل سرور ارافقك حيث شئت. اما الكعبة فلا يؤذن لك بزيارتها في الوقت الحاضر للاسباب المعروفة. والسياحة تكلفك لا اقل من خمسمائة جنيه.»

في هذه المعلومات يبدو للقاريء شيء من سؤالات سألتها ولم اقف فيها عند حدٍ من حدود التحفظ والمداراة. ولا لوم علي وانا بعيد حقيقة وعلمًا عن البلاد العربية، اذا استترت بكل ما ينيرني في رحلتي قبل ان اقدم عليها ولكن سؤالي عن زيارة الكعبة، وانا مسيحي، يليق باميركي لا يعرف من العالم غير بلاده، فاذا قيل له ان لا يؤذن للمسيحي بالدخول الى مكة اعتراه الدهش والعجب.

اما انا فما دهشت ولا اسفت. بل كنت اعلل النفس بتحقيق امنيتي بعد ان اقابل جلالة الملك. كيف لا وهو زعيم النهضة العربية القومية الاصلاحية، ومنقذ العرب الاكبر. كيف لا والمسيحيون السوريون من العرب والاخاء والمساواة ركنان من اركان النهضة. ما اغرب الاحلام التي كنا نحلمها في بلاد الغرائب وما ابعدها. لا اظن ان من كان قادمًا من القمر او المريخ يحلم احلامًا اغرب منها واعجب

وفي معلومات قسطنطين مما استرعى له نظر القاريء ايضًا قول جلالته: «ان لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها» ولكنني لم انقيد بهذا القول لاني كنت اعرف في الاقل اوليات الجغرافية العربية، واتأكد ان «من يزور الحجاز من اقصاه الى اقصاه» لا يكون قد زار البلاد العربية كلها ولا جزءًا كبيرًا منها. وهناك غير ما تقدم من المعلومات التي تأكدت بعدئذٍ الخطأ او التحفظ او القصد السياسي فيها. وما كان صديقي غير ناقل في اكثرها كلام جلالة الملك الذي لم يشأ على ما يظهر ان ازور غير الحجاز. وقد خبر قسطنطين ما خبرته في اليمن مثلا وعسير بخصوص القبائل التي يختلف بعضها عن بعض في الملابس والمشارب والعادات.

وتأكد مثلي ان من يزور الحجاز فقط لا يستطيع ان يؤلف كتابًا عن العرب مستوفيًا من جميع ابوابه. وادرك بعد رحلتنا الاولى من جدة الى عدن بان نفقات السياحة ستكون ضعف ما ذكر، وان مدتها قد تتجاوز السنة ولا سيما اذا تمكنت من السياحة في نجد. وما كانت زيارة الرياض وابن سعود، والحمد لله، بالامر المستحيل. على اني اذا ما ذكرتها الان اضحك من تلك البساطة التي حملتني على توجيه السؤال بخصوصها الى جلالة الملك حسين. انها لبساطة تدنو من البلاهة لان ليس فيها شيء من الخبث.

٤

وهذا الكتاب وفيه ترجمة سبعة من امراء العرب غير الحسين بن علي، وكلهم ملوك وان اختلفت الالقاب مستقلون بنعمة الله بعضهم عن بعض، وجاهلون شخصيًا بعضهم بعضًا. فاننا اذا استثنينا الملك حسينًا وابنه الملك فيصلاً لا نجد بينهم، او في الاقل بين الكبار منهم، من يعرف زميله الملكي معرفة شخصية خاصة، او يعرف من الاقطار العربية معرفة حقيقية تامة غير القطر الذي هو حاكمه

ليس في ملوك العرب اليوم ملك ساح في البلاد العربية كلها وليس فيهم من يستطيع ان يقول: اني اعرف بلاد العرب وحكامها وسكانها وقبائلها واحوالها الاقتصادية والزراعية وشؤونها السياسية الداخلية والخارجية مما لدي من تقارير العارفين واخبار المنزهين عن الاغراض السياسية والتحزبات المذهبية. ولا استثني من هذا القول الملك حسينًا او الامام يحيى او السلطان عبد العزيز آل سعود

قد يكون الملك حسين اكثرهم علمًا باحوال سكان البلاد، من بدو وحضر وبمذاهبهم ونزعاتهم ونعراتهم وعداواتهم وسياسة امرائهم لان مركزه المشرف بالكعبة التي يحجها المسلمون من البلاد العربية كافة بل من

اقطار العالم الاربعة يساعده على ذلك. وقد يعرف من احوال جاريه الادريسي وابن سعود ما يستطيع ان يستند اليه فينفعه في سياسته الحجازية، ولا ينفعه بل قد يضره في سياسته العربية. اريد بذلك ان علمه، وان تجاوز ما يتناول قبائل نجد وعسير وما يستطيع كل من حاكميها ان يجند من الناس ويجمع من المال، ومن لهم النفوذ الاكبر في بلاديهما فلا يصل ذاك العلم الى عقلية الادريسي مثلاً او الى قوة ابن سعود الشخصية والمعنوية. ان لسلطان نجد في ذهن الملك حسين صورتين لا ثالث لهما. صورة تجسم نبوغه فلا يكترث بها وصورة تنفي ذاك النبوغ فيعول عليها. فكيف السبيل مع هذا الجهل الى التفاهم والولاء؟

اما الامام يحيى فلا شك انه يعرف. وهو العالم الاكبر في امراء العرب، اقطار اليمن وعسير وحضرموت وبعض الحجاز معرفة حقيقية تامة. ولكنه يجهل نجد اليوم وسلطانها وحقيقة حال اهلها من بدو وحضر. او انه لا يكترث بذلك. ولا شك ان السلطان عبد العزيز اكثر ملوك العرب علمًا بالقبائل والعشائر في نجد والحجاز وبلاد الشمال وفي مسقط وعمان وما يليهما. ولكنه قلما يكترث اذا ذكرت اليمن في غير السياسة. فاذا حدثته عن عادات اهل ذاك القطر القديم واحوالهم الزراعية والاقتصادية والاجتماعية فكأنك تحدثه عن شعب ليس بعربي فيتفكه ويستفيد.

لست مبالغًا اذا قلت ان ليس في البلاد العربية اليوم رجل واحد يعرف البلاد العربية كلها. وليس في العالم اليوم ويا للاسف من يحيط علمًا بالاقطار كافة وبشؤونها جمعاء بحكامها وقبائلها وزراعتها وصادراتها وخراجها وحروبها ومشايخها وامرائها. وبكل ما يختص بامورها السياسية الداخلية والخارجية غير الحكومة الانكليزية او بالحري وزارة المستعمرات فيها. فهي تصدر كتابًا عن البلاد العربية مبنيًا على تقارير وكلائها السياسيين والسياح العلماء تصححه وتعيد طبعه كل بضع سنوات مرة.

وهو مع ذلك لا يخلو من الاغلاط اذا نظر في ما يختص بكل قطر منه ابن البلاد العالِم بشؤون ذاك القطر كلها. زد على ذلك ان الكتاب لا ينشر للعموم وقلما يُرى خارج الدوائر الرسمية. ولا اظن ان من وظيفة الحكومة الانكليزية او من واجباتها، فضلاً عن ميلها ومصلحتها، ان تعرف ملوك العرب بعضهم الى بغض، او ان تطلعهم على احوال الاقطار العربية كلها. ولا اظن ان احدًا من ابناء العرب يستطيع ان يقوم بهذا الواجب دون ان يرحل الرحلة التي رحلتها.

فها انا اذن في هذا الكتاب، ولا فخر ولا اعتذار، اعرّف اسيادي ملوك العرب بعضهم الى بعض تعريفا يتجاوز الرسميات والسطحيات. وليتأكد اسيادي ان ليس في الثناء في ما كتبت تزلف او مداهنة، ولا في النقد تشيع او تحامل. انما غايتي القصوى تمهيد السبيل الى التفاهم المؤسس على العلم والخبر اليقين. ولا علم ولا يقين الا في تبديد الاوهام، وانارة الاذهان

○

وفي هذا الكتاب من النقص ما ينبغي ان اشير اليه. كان قصدي الاول، عند ما سافرت من نيويورك، ان اسوح في الحجاز وفي اليمن وفي نجد لعلمي ان في هذه الاقطار الثلاثة تجتمع العرب كافة. ففي اليمن قحطان، وفي الحجاز ونجد فرعا عدنان اي مضر وربيعة.

ولكن المشاهدات الاولى غيرت من قصدي فشنبت ونقحت فيه حتى اصبح يشتمل على كل ما في شبه الجزيرة خارج الحجاز من امارة او شيخة مستقلة.

اما الحجاز وان كان اصغر الاقطار الاربعة الاولى مساحة. واقلها عددًا، فهو اهمها مركزًا، واولها في السياسة الدولية مقامًا. وقد صار بفضل جلالة الملك محط رحال الوطنيين من العرب المجاهدين في

سبيل الوحدة العربية. فقل من لا يعرف شيئًا عنه. الحجاز كتاب مفتوح. واهم ما في الكتاب اليوم ما عدا الحرمين هو الفصل الذي عنوانه: الملك حسين والنهضة العربية. فقد اكتفيت بهذا الفصل ووليت وجهي الاقطار الاخرى ابغي زيارتها كلها.

ولكني لم اتوفق الى ذلك. ازمعت السفر الى حضرموت عند ما كنت في عدن، فاجتمعت وانا في بيت شركة البواخر الهندية بربان البويخرة التي سافرت فيها الى جيزان. وكانت هذه المرة تقصد مكلاً ميناء حضرموت. فقلت للربان: اني معك ثانية فضحك وقال: لا اظنك تهوى الحياة. فقلت: واي خطر على الحياة في بحر العرب وفي فصل الصيف؟ فاجاب الملّاح الانكليزي: هو فصل الموت — فصل «مَنصون»

ثم قال: وليس لِمكلاً ميناء نرسو فيه. وقد لا تسمح الانواء بالرسوّ في عرض البحر. وانت تعرف باخرتي، عرفتها في هدأة البحر الاحمر... وماذا في حضرموت؟ اقبل نصيحتي الخ.

فانتصحت آسفًا. فجاء هذا الكتاب وليس فيه غير بعض الشيء عن حضرموت اخذته عن رجال من ذاك القطر اجتمعت بهم في عدن والحديدة. وهذا اول نقص فيه

اما مسقط وهو البلد الاول في شبه الجزيرة الذي دخله الاوروبيون والاميركيون فلظني ان العروبة فسدت فيه لم اعرج عليه وما ملت اليه. وقد اكون محظوظًا فاتوفق في المستقبل الى تلافي هذا النقص الاخر في الكتاب

وهناك عُمان وقطَر، تلك البلاد التي تمتد من الساحل تجاه البحرين جنوبًا الى مسقط، وفيها اربع او خمس شيخات مستقلة. فما عذري فيها؟ اجيب بكلمة واحدة: العجز.

منذ ما عدت من رحلتي في نجد رأيتني مرتويًا الى حد يخشى مع

الزيادة الاستسقاء او بالاحرى امسيت وذهني ونفسي كالاسفنج وقد امتلأ ماءً فلا يحتمل من الزيادة نقطة واحدة. وما رأيت، وانا في البحرين، ان ازور تلك الشيخات في عمان قبل ان ازور سلطان العرب الاكبر في الرياض. فلم آسف على ما خسرت في جنب ما كسبت. ولكنني لا ازال اعلل النفس بما فات، فاضيف في المستقبل ان شاء الله قسمًا اخر الى الكتاب او قسمين افي فيهما عمان ومسقط وحضرموت حقهما.

بقي ذاك القطر الجديد في الشمال الغربي الذي انشأته السياسة الجديدة سياسة «بعد الحرب» وامّرت اليه النجل الثاني من انجال الملك حسين الامير عبد الله. فما تلك الامارة في اعتقادي من الامارات العربية الثابتة الدائمة. قد لا تزول في عهد اميرها الاول، وقد يكون اميرها الاول الحامل غدًا لواء الاتحاد الى ما وراء الاردن او الى ما دون العقبة وتبوك — وما تلك البلاد، بلاده اليوم، غير قسم في الحقيقة من الحجاز او من فلسطين. فاذا كانت الاول فما قلت في الحجاز يصح فيها، واذا كانت الثاني فحكمها حكم فلسطين وسورية ولا دخل لهما في هذا الكتاب اما اذا فازت سياسة التقسيم وثبتت امارة شرقي الاردن فالعذر سلفا الى سمو اميرها، والتكفير ولو مؤخرًا اذا ابقانا الله واياه على مسرح الحياة.

٦

وفي هذا الكتاب طائفة من الاراء التي تهم العرب خصوصًا والاسلام عمومًا والتي تهم الاوروبين عمومًا والانكليز خصوصا، يجدها القارىء في مكانها من البحث. اما الذين لا تهمهم السياسة بقدر ما يهمهم العلم والادب، واخبار الاسفار، فقد اخصصتهم بقسم مما كتبت. وقد اتخذت في ذلك اسلوبًا يقرب منه ما شاهدت بعيني، وسمعت باذني، ولمست بيدي، اذا تم القصد الفني، حيًا لديه.

وليس في الكتاب، ادبًا كان او سياسة، وصفًا او نقدًا، الا الحقيقة غير المجردة لان في التجرد، في العرى، شيئًا من سوء الادب، لا سيما اذا كان المجرِد والمجرَّد في الغربة. ولا ينسى القارىء عافاه الله اني جئت الى البلاد العربية من ارض قصية يكثر فيها التجرد حقيقة ومعنى. ثم سحت في بعض ارض الهند حيث يستشعر الناس الهواء ولا يلبسون احيانًا غير نسيج من الشمس والغبار. فسمّيت التجرد. ولكنني لا اخفي الحقيقة في ما ألبسها. وكأني بالقارىء يقول ان في احتجاجك على العراء شيئًا من الدهاء. فاعتذر اليه في ما قد يعد مكابرة اذا اعترفت بالذنب. نعم وفيه كذلك شي من تلك الصناعة التي يتذرد بها ارباب الدين على الدوام، وتمارسها على الدوام النساء.

وما الضرر في اليسير من المساحيق والالوان، وفي المهلهل المطرز من الكساء؟ اذا كانت الحقيقة المجردة جميلة فهي في ثوبها المهلهل اجمل واذا كانت تؤلم فهي في زينتها ادعى الا الالم والحزن. الا انها في كل حال لا تجالس التعصب، ولا تدنو من التشيع والتشنيع. فمن هذه الوجهة لك ان تحسبها ايها القارئ العزيز مجردة.

وقد تجيء في بعض الاماكن ناقصة او مخطئة، شأن كثير من الامور والافكار البشرية. ذلك لان النقص في كل ما يرى ويدرك موجود، والخطأ لا يستدرك كله. فقد بذلت في التحقيق والتدقيق طاقتي، ولا عذر مع جهد تناهى.

على اني متيقن ان كل من يطالع الكتاب من الناطقين بالضاد مهما كان علمه في البلاد العربية واهلها يجد فيه بعض الشيء الجديد المفيد. ولاخواني الادباء خاصة في سورية كانوا او في مصر واميركه، اقول: تعالوا سيحوا معي اعدكم الى ما ابعدكم عنه التفرنج والتأمرك، الى حقائق لمسنا ظلها في اداب العرب القديمة، والى حقائق انستنا اياها

الايام والغربة، والى حقائق يجهلها كثيرون حتى من العرب انفسهم، والى حقائق ننقلها عن علماء الافرنج ملتوية مشوهة

تعالوا سيحوا معي فأعيدكم الى بلاد عجيبة مهما كان فقرها، والى شعب كريم مهما كانت آفاته، والى امة حرة ابية مهما كانت ذنوبها. ايها الاخوان الادباء ان في اكثر المدارس السورية اليوم روحًا اجنبيًّا من شأنه ان يبعد السوريين واللبنانيين عن كل ما هو عربي في غير اللسان. ولو استطاع لابعدهم كذلك عن اللسان، لقتل فيهم حب اللغة العربية. وفي البلاد اليوم سياسة تعضد المدارس في خطتها فتوسع الثلمة بيننا وبين العرب وبلادهم. انظل دائمًا حيث كنا منذ خمسين سنة؟

اعود الى الكلمة التي افتتحت بها هذه التمهيدات. ان البغض والخوف توأما الجهل، ومن الجهل ما يولد الحب والاعجاب. وان الروح الذى يسعى في ابعادنا عن العرب لا يفلح ان شاء الله في مسعاه. فقد بددت الايام تلك الاوهام التي صورت لنا الكمال كله في الامة الافرنسية، وعسى ان هذا الكتاب يبدد الاوهام التي صورت لنا «البعبع» في العرب.

الثورة

ويومها القطوب العصيب. وليلها المنير العجيب.
وجمها الآفل يدّج بعينه الرقيب.
وصوت فوضاها الرهيب. من هتاف ولجب ونحيب. وزئير وعندلة ونعيب
وطغاة الزمان نصير رمادا. واخياره يحملون الصليب.
ويل يومئذٍ للظالمين. * للمستكبرين والمفسدين.
هو يوم من السنين * بل ساعة من يوم الدين
ويل يومئذٍ للظالمين

* * *

هي الثورة ويومها العبوس الرهيب.
الوية كالشقيق تموج. تثير البعيد. تنير القريب
وطبول تردد صدى نشيد عجيب
وابواق تنادي كل سميع مجيب.
وشرر عيون القوم يرمي باللهيب.
ونار تسأل هل من مزيد. وسيف يجيب. وهول يشيب
ويل يومئذٍ للظالمين * ويل لهم من كل مريد مهين
طلاب للحق عنيد مدين * ويل للمستعزين والمستأمنين

هي ساعة للظالمين

هي الثورة وابناؤها الحفاة. وصبيانها المسترجلون العتاة
ورجالها الاشداء الاباة. ونساؤها المتنمرات.
وخطباؤها وخطيباتها الفصيحات. وزعماؤها وزعيماتها المتمردات.

ويل يومئذٍ للظالمين

انذرهم باغلال وسعير * بقنابل تفجر وبوم عسير
يوم لا ينهون ولا يأمرون * ولا يطلقون فيهربون

ويلٌ يومئذٍ للظالمين

* * *

ألم يأتهم حديث الرومان.
يوم شغف قيصرا بالارجوان * ومد يده الى الصولجان.
فاذا هو صريع خناجر احرار ذاك الزمان * قتيل مهان كثير الطعان.

ويل يومئذٍ للظالمين

---

١ يريد به يوليوس قيصر وروايته مشهورة

* * *

ألم نقص عليهم قصص باريس.
يوم دك البستيل وزفت المحابيس. يوم قطع رأس الملك لويس[1]
وحزت رقاب كبار الفرنسيس وفرّ الطاغون والمسيطرون من وجه
هول باريس

ويل يومئذٍ للظالمين

* * *

ونبأ الانكليز.
يوم بايع القوم بياع الجعة[2] وقالوا هذا ولي عزيز
يوم نادى الخمار بالناس والملك في حرز حريز.
فاذا بالمستضعفين اشداء وشارل المليك ذليل نبيز. بل على المشنقة
يستعيز

ويل يومئذٍ للظالمين * من كل متنمر متمرد مدين.
ويل يومئذٍ للمفسدين * من نصر البنود الحمر المبين

* * *

ونبأ العالم الجديد
ألم يروا لهيب الاتون في العالم الجديد. حيث يطرح كل جائر مريد.
حيث يحرق الارجوان وتذوب تيجان الحديد.
حيث تحرر العبيد. ويموت الوف البشر من اجل هولاء السود المناكيد.
حيث قام الاذل على الاعز. والوضيع على الجبار العنيد
ويل يومئذٍ للظالمين * يوم يمتع الله المستعبدين.

---

١ لويس السادس عشر
٢ كرومويل

ويطلق في الشعوب سلطان روح كمين. بل يضرم من ناره البراكين.

بل يثير في الجموع روح الامين. روح كل زعيم صادق امين.

يوم يهب المظلوم سيف الظالم الاثم.

ويذيق المفسدين حرّ عذاب اليم. في هذه الارض لا في الجحيم.

ويل يومئذٍ للظالمين * من كل متنمر متمرد مدين.

ويل يومئذٍ للمفسدين * من نصر البنود الحمر المبين.

داويني ربة الوادي

داويني ربة الوادي داويني

ربة الغاب اذكريني. ربة المروج اشفيني

ربة الانشاد انصريني

* * *

الا تذكرين يوم رددت وحيك بين قوم لا يشركون مع البعل الها ويوم قدمت ذبيحة للزهرة من يد من لا يعرف من الآلهة سواها

ويوم ناديت باسمك في هيكل إيزيس فطردني من الهيكل الكهان

ويوم تصاعد دخان بخورك عَلَى الاولمب فاكفهر منه جبين رب الاوثان

انا من وضع بخورك في مجامر خدام هياكل الرومان

انا من عقد اوتارك في قيثارة راقصات بابل وفين اليونان

او نسيت ما زرعته يدي حول هيكل تموز من الاشجار

وما حاكته يدي لربة الفينيقيين من اكاليل الغار والازهار

وما خطته يدي في كتاب عبدة الشمس والنار
وما حطمته يدي من تماثيل الطغاة ودمن كبار الابرار
داويني ربة الوادي داويني
ربة المروج اشفيني. ربة الانشاد انصريني
انشديني عَلَى قيثارك من الالحان التي تردد صداها اليوم طيور الغاب وشحارير البستان
انشديني من الانغام. التي يطرف بها الرعاة الانعام
صوت نايك في الدجى. وصوت ارغنك في الضحى. اسمعيني الى صوت عبادك على ضفات الانهار. وصوت اولادك في القفار.
اهديني
انشري الان حول سريري. ما كمن في الحقول من عبيري
اسكبي الان فوق رأسي. ما تركته الاحقاب في كاسي
الحفيني بحبك. ضمخيني بطيبك. انعشيني بهمس شفتيك. وبلمس انامللك
رددي على مسامعي الان. ما نسيته مما علمتني من الالحان
اسمعيني الان. ما رددته عنك في مجالس فين بابل واليونان
داويني ربة الوادي داويني
ربة الانشاد اصلحيني

* * *

انا ناي الرعاة من عبادك ⁂ انا عود العشاق من عبادك
انا ارغن المتشرد من عبيدك ⁂ انا كنارة الرافصات ليله عيدك

انا النفس التي تتجلى في جمالك. وينبعث منها نورك. وتطبع عليها اسفار حكمتك.

وترف فوقها بلابل سحرك
انا صوتك جسدته الدهور. انا روحك أُنزلت في الفيدا وفي الزبور
انا رسولك الى صفوة العباد. الى خير من زين الاحلام في المعاد.
بل الى كل من هام في كل واد.
انا وحيك في نشيد الانشاد. انا نورك في نفس من سربل التوبة بالانشاد
انا في قيثارك نغمة حبسها الجهل ضمن جدران الاهرام
بل انا اغنية رددتها الليالي عَلَى الاعوام
انا في قيثارك روح الفقنس تحت رماد المنون. بل روح ارفيوس فوق امواج الغنون
اجل انا قيثارك. وانا صوتك. وانا نشيدك
ولكن يدًا اثيمة خنقت البلابل في القيثار. وقطعت منه الاوتار
فجاءت اليوم بنات الهديل تداوي بسجعها سجعي العليل
داويني ربة الوادي داويني
ربة المروج اشفيني. ربة الانشاد انصريني

* * *

المسيني باناملك تعيدي الَيَّ بهاء ملكي
عوديني في الاسحار. تشتد من نسماتك الاوتار
اغسلي جراحي بموجات من فيوضاتك الالهية
ضمدي اوتاري برقية من رقياتك الموسيقية
اعيدي اليَّ ما سلبتني الآلام من مجد الحياة الشعرية
ضميني الى صدرك بنت الازل والخلود فتزول عن جفني كآبة الاجيال

ويثمر فيَّ عقم الجدود .

من يوم هجرت واياك الجفان في قديم الزمان . ما رايت اجل من الحب فيك الاّ الحنان

فحتام اليوم هذا الصد والجفاء وهذا الهجر والنسيان

اذكريني ولو مرة في ظلامي

عودينى ولو مرة في منامي

انصريني قبل ان تذبل بايامي

جبران جبران

١٨٨٣

يدُ القضاء

(من رواية الاجنحة المتكسرة)

كنتُ في بيروت في ربيع تلك السنة المملوءة بالغرائب، وكان نيسان قد أَنبت الازهار والاعشاب فظهرت في بساتين المدينة كأَنها اسرار تعلنها الارض للسماء. وكانتِ اشجار اللوز والتفاح قد اكتست بحلل بيضاءَ معطرة فبانت بين المنازل كانها حوريات بملابس ناصعة قد بعثت بهنَّ الطبيعة عرائس وزوجات لابناء الشعر والخيال.

الربيع جميل في كل مكان ولكنهُ اكثر من جميل في سوريا... الربيع روح اله غير معروف تتطوف في الارض مسرعة وعند ما تبلغ سوريا تسير ببطءٍ متلفتة الى الوراء مستأنسة بارواح الملوك والانبياء الحائمة في الفضاء، مترنمةً مع جداول اليهودية باناشيد سليمان الخالدة، مرددة مع ارز لبنان تذكارات المجد القديم.

وبيروت في الربيع اجمل منها في ما بقي من الفصول لانها تخلو فيه من اوحال الشتاء وغبار الصيف وتصبح بين امطار الاول وحرارة الثاني كصبية حسناءَ قد اغتسلت بمياه الغدير ثم جلست على ضفتهِ تجفف جسدها باشعة الشمس.

ففي يوم من تلك الايام المفعمة بانفاس نيسان المسكرة وابتساماتهِ المحيية، ذهبت لزيارة صديق يسكن بيتًا بعيدًا عن ضجة الاجتماع. وبينما

نحن نتحدث راسمين بالكلام خطوط آمالنا وامانينا دخل علينا شيخ جليل في الخامسة والستين من عمره تدل ملابسهُ البسيطة وملامحهُ المتجعدة على الهيبة والوقار، فوقفتُ احترامًا وقبيل ان اصافحه مسلمًا تقدَّم صديقي وقال «حضرتهُ فارس افندي كرامه» ثم لفظ اسمي مشفوعًا بكلمة ثناء، فاحدق بي الشيخ هنيهة لامسًا باطراف اصابعه جبهته العالية المكللة بشعر ابيض كالثلج كأنه يريد ان يسترجع الى ذاكرته صورة شيءٍ قديم مفقود ثم ابتسم ابتسامة سرور وانعطاف واقترب مني قائلاً «أنت ابن صديق حبيب قديم صرفتُ ربيع العمر برفقته فما اعظم فرحي بمرَاك، وكم انا مشتاق الى لقاء ابيك بشخصك».

فتأثرتُ لكلامه وشعرت بجاذب خفيّ يدنيني اليه بطمأنينة مثلما تقود الغريزة العصفور الى وكره قبيل مجيءِ العاصفه. ولما جلسنا أخذ يقصُّ علينا احاديث صداقته لوالدي متذكرًا ايام الشباب التي صرفها بقربه تاليًا على مسامعنا اخبار اعوام قضت فكفنها الدهر بقلبه وقبرها في صدره.

ان الشيوخ يرجعون بالفكر الى ايام شبابهم رجوع الغريب المشتاق الى مسقط رأسه ويميلون الى سرد حكايات الصبا ميل الشاعر الى تنغيم ابلغ قصائده، فهم يعيشون بالروح في زوايا الماضي الغابر كان الحاضر يمرُّ بهم ولا يلتفت والمستقبل يبدو لاعينهم متشحًا بضباب الزوال وظلمة القبر.

وبعد ساعة مرَّت بين الاحاديث والتذكارات مرور ظل الاغصان عَلَى الاعشاب، وقف فارس كرامه للانصراف، ولما دنوت منه مودعاً اخذ يدي بيمينه ووضع شماله على كتفي قائلًا «انا لم ارَ والدك منذ عشرين سنه ولكنني ارجو ان استعيض عن بعاده الطويل بزياراتك الكثيرة» فانحنيتُ شاكرًا واعدًا بتتميم ما يجب عَلَى الابن نحو صديق ابيه.

ولما خرج فارس كرامه استزدتُ صاحبي من اخباره فقال بلهجة يساورها التحذر «لا اعرف رجلاً سواه في بيروت قد جعلته الثروة فاضلاً والفضيلة

مثريًا هو واحد من القليلين الذين يجيئون هذا العالم ويغادرونه قبل ان يلامسوا بالاذى نفس مخلوق — ولكن هولاءِ الرجال يكونون غالبًا تعساءَ مظلومين لانهم يجهلون سبل الاحتيال التي تنقذهم من مكر الناس وخبثهم... ولفارس كرامه ابنة وحيدة تسكن معه منزلاً فخما في ضاحية المدينة تشابهه بالاخلاق وليس بين النساء من يماثلها رقةً وجمالاً — وهي ايضًا ستكون تاعسة لان ثروة والدها الطائلة توقفها الان عَلَى شفير هاوية مظلمة مخيفة».

لفظ صديقي الكلمات الاخيرة وظهرت عَلَى محياه لوائح الغم والاسف ثم زاد قائلا «فارس كرامه شيخ شريف القلب كريم الصفات ولكنه ضعيف الارادة يقوده رياءَ الناس كالاعمى وتوقفه مطامعهم كالاخرس. اما ابنته فتخضع ممتثلة لارادته الواهنة عَلَى رغم كل ما في روحها الكبيرة من القوى والمواهب. وهذا هو السر الكريه الكامن وراءَ حياة الوالد وابنته. وقد فهم هذا السر رجل يأتلف في شخصه الطمع بالرياء والخبث بالدهاء. وهذا الرجل هو مطران تُستَر قبائحه بظل الانجيل فتظهر للناس كالفضائل. هو رئيس دين في بلاد الاديان والمذاهب تخافه الارواح والاجساد وتخرُّ لديه ساجدةً مثلما تنحني رقاب الانعام امام الجزَّار. ولهذا المطران ابن اخ تتصارع نفسه عناصر المفاسد والمكاره مثلما تتقلب العقارب والافاعي عَلَى جوانب الكهوف والمستنقعات وليس بعيدًا اليوم الذى ينتصب فيه المطران بملابسه الحبرية جاعلاً ابن اخيه عن يمينه وابنة فارس كرامه عن شماله رافعًا بيده الاثيمة اكليل الزواج فوق رأسيهما مقيدًا بسلاسل التكهين والتعزيم جسدًا طاهرًا بجيفة منتنة جامعًا في قبضة الشريعة الفاسدة روحاً سماوية بذات ترابية واضعًا قلب النهار في صدر الليل... هذا كل ما استطيع ان اقوله لك الان عن فارس كرامه وابنته فلا تسلني اكثر من ذلك لان ذكر المصيبة يدنيها مثلما يقرب الموت الخوفُ من الموت».

وحوَّل صديقي وجهه ونظر من النافذة الى الفضاء كأنه يبحث عن اسرار الايام والليالي بين دقائق الاثير.

فقمتُ اذ ذاك من مكاني ولما أخذتُ يده مودعاً قلت له «غدًا أزور فارس كرامه قيامًا بوعدي له واحترامًا للتذكارات التي ابقتها صداقته لوالدي».

فبهت بي الشاب دقيقةً وقد تغيرت ملامحه كأن كلماتي القليلة البسيطة قد اوحت اليه فكرا جديدًا هائلاً، ثم نظر في عينيَّ نظرة طويله غريبة - نظرة محبة وشفقة وخوف - نظرة نبي يرى في اعماق الارواح ما لا تعرفه الارواح، ثم ارتعشت شفتاه قليلاً ولكنه لم يقل شيئًا فتركته وسرتُ نحو الباب بافكار متضعضعة، وقبيل ان التفت الى الوراء رايتُ عينيه ما زالتا تتبعانني بتلك النظرة الغريبة - تلك النظرة التي لم افهم معانيها حتى عُتقت نفسي من عالم المقاييس والكمية وطارت الى مسارح الملإ الاعلى حيث تتفاهم القلوب بالنظرات وتنمو الارواح بالتفاهم.

بين عشتروت والمسيح
(من الرواية ذاتها)

بين تلك البساتين والتلول التي تصل اطراف بيروت باذيال لبنان يوجد معبد صغير قديم العهد محفور في قلب صخرة بيضاء قائمة بين اشجار الزيتون واللوز والصفصاف ومع ان هذا المعبد لا يبعد اكثر من نصف ميل عن طريق المركبات فقد قلَّ من عرفه من محبي الآثار والغرائب القديمة، فهو مثل اشياء كثيرة خطيرة في سوريا مختبئ وراء ستائر الاهمال، فكأن الاهمال قد ابقاه محجوبًا عن عيون الأثريين ليجعله خلوةً لنفوس المتعبين ومزارًا للمحبين المستوحشين.

والداخل الى هذا المعبد العجيب يرى على الجدار الشرقي منه صورة فينيقية الشواهد والبينات محفورة في الصخر قد محت اصابع الدهر بعض خطوطها ولوّنت الفصول معالمها. وهي تمثل عشتروت ربّة الحب والجمال جالسة على عرش فخم ومن حولها سبع عذارى عاريات واقفات بهيئات مختلفة، فالواحدة منهنّ تحمل مشعالاً والثانية قيثارةً والثالثة مبخرةً والرابعة جرة من الخمر والخامسة غصنًا من الورد والسادسة اكليلاً من الغار والسابعة قوسًا وسهامًا وجميعهنّ ناظرات الى عشتروت وعلى وجوههنّ سيماء الخضوع والامتثال.

وعلى الجدار الثاني صورة اخرى اندثت عهدًا واكثر ظهورًا تمثل يسوع الناصري مصلوبًا والى جانبه امه الحزينة ومريم المجدلية وامرأتان ثانيتان تنتحبان. وهذه الصورة البيزنطية الاسلوب والقرائن تدل على كونها حُفرت في القرن الخامس او السادس للمسيح[1].

وفي الجدار الغربي كوّتان مستديرتان يدخل منهما شعاع الشمس عند اصيل النهار وينسكب على الصورتين فتظهران كأنهما قد طليتا بماء الذهب.

وفي وسط المعبد حجر من الرخام مربع الشكل على جوانبه نقوش ووسامات قديمة الطراز قد انحجب بعضها تحت كتلات متحجرة من الدماء تدل على ان الاقدمين كانوا ينحرون ذبائحهم على هذا الحجر ويصبون فوقه قرابين الخمر والعطر والزيت.

ولم يكن في هذا المعبد الصغير شيء آخر سوى سكينة عميقة تعانق النفس وهيبة سحرية تبيح بموجاتها اسرار الالهة وتتكلم بلا نطق عن مآتي

---

١ من المعلوم عند الاثريين ان اكثر الكنائس المسيحية في الشرق كانت هياكل ومعابد لالهة الفينيقيين واليونان الاقدمين ومما يستدعي التامل وينبه الخيال انقلاب الهيكل كنيسة ثم صيرورته جامعًا. ففي دمشق وانطاكية والاستانة ابنية عديدة ردّدت زواياها ترانيم الوثنيين ثم طُليت سقوفها ببخور المسيحيين ثم تبطنت جدرانها بصلوات المسلمين.

الاجيال الغابرة ومسير الشعوب من حالة الى حالة ومن دين الى دين. وتستميل الشاعر الى عالم بعيد عن هذا العالم وتقنع الفيلسوف بان الانسان مخلوق ديّن يشعر بما لا يراه ويتخيل ما لا تقع عليه حواسه فيرسم لشعوره رموزًا تدل بمعانيها على خفايا نفسه ويجسم خياله بالكلام والانغام والصوَر والتمثيل التي تظهر باشكالها اقدس امياله في الحياة واجمل مشتهياته بعد الموت.

في هذا الهيكل المجهول كنت التقي بسلمى كرامه مرةً في الشهر فنصرف الساعات الطوال ناظرين الى الصورتين الغريبتين مفكرين بفتى الاجيال المصلوب فوق الجلجلة مستحضرين الى مخيلتينا اشباح الفتيان والصبايا الفينيقيين الذين عاشوا وعشقوا وعبدوا الجمال بشخص عشتروت فحرقوا البخور امام تماثيلها وهرقوا الطيوب على مذابحها ثم طوتهم الارض فلم يبقَ منهم سوى اسم تردده الايام امام وجه الابدية.

كم يصعب عليَّ الان ان ادوّن بالكلام ذكرى تلك الساعات التي كانت تجمعني بسلمى - تلك الساعات العلوية المكتنفة باللذة والألَم والفرح والحزن والأمل واليأْس وكل ما يجعل الانسان انسانًا والحياة لغزًا ابديًا. ولكن كم يصعب عليّ ان اذكرها ولا ارسم بالكلام الضئيل خيالاً من خيالاتها ليبقى مثلا لابناء الحب والكآبة.

كنا نختلي في ذلك الهيكل القديم فنجلس في بابه ساندين ظهرينا الى جداره مرددين صدى ماضينا مستقصين ماتي حاضرنا خائفين مستقبلنا. ثم نتدرج الى اظهار ما في اعماق نفسينا فيشكو كلّ منا لوعته وحرقة قلبه وما يقاسيه من الجزع والحسرة، ثم يصبّر واحدنا الاخر باسطا امامه كل ما جبوب الامل من الاوهام المفرحة والاحلام العذبة، فيهدأْ روعنا وتجفّ دموعنا وتنفرج ملامحنا ثم نبتسم متناسيين كل شيءٍ سوى الحب وافراحه منصرفين عن كل امرٍ الاّ النفس واميالها. ثم نتعانق

فنذوب شغفا وهيامًا. ثم تقبل سلمى مفرق شعري بطهر وانعطاف فتملأ قلبى شعاعًا واقبل اطراف اصابعها البيضاء فتغمض عينيها وتلوي عنقها العاجي وتتورد وجنتاها باحمرار لطيف يشابه الاشعة الاولى التي يلقيها الفجر على جباه الروابي. ثم نسكت وننظر طويلاً نحو الشفق البعيد حيث الغيوم المتلونة بانوار المغرب البرتقالية.

ولم تكن اجتماعاتنا مقتصرةً على مبادلة العواطف وبث الشكوى بل كنا ننتقل على غير معرفة منا الى العموميات فنتبادل الاراء والافكار في شؤون هذا العالم الغريب ونتباحث في مرامي الكتب التي كنا نقراها ذاكرين حسناتها وسيئاتها وما تنطوي عليه من الصوَر الخيالية والمبادئ الاجتماعية، فتتكلم سلمى عن منزلة المرأة في الجامعة البشرية وعن تأثير الاجيال الغابرة على اخلاقها واميالها وعن العلاقة الزوجية في ايامنا هذه وما يحيط بها من الامراض والمفاسد. واني اذكر قولها مرة «ان الكتّاب والشعراء يحاولون ادراك حقيقة المرأة ولكنهم للان لم يفهموا اسرار قلبها ومخبات صدرها لانهم ينظرون اليها من وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها او يضعونها تحت مكبرات الكره فلا يجدون فيها غير الضعف والاستسلام».

وقولها لي مرةً اخرى وقد اشارت بيدها الى الرسمين المحفورين على جدران الهيكل «في قلب هذه الصخرة قد نقشت الاجيال رمزين يظهران خلاصة اميال المرأة ويستجلبان غوامض نفسها المتراوحة بين الحب والحزن - بين الانعطاف والتضحية - بين عشتروت الجالسة على العرش ومريم الواقفة امام الصليب... ان الرجل يشتري المجد والعظمة والشهرة ولكن هي المرأة تدفع الثمن».

ولم يدر باجتماعاتنا السّرية احد سوى الله واسراب العصافير المتطايرة بين تلك البساتين فسلمى تجيءُ بمركبتها الى المكان المدعو

بحديقة الباشا ثم تسير الهوينا على الممرات المنفردة حتى تبلغ المعبد الصغير فتدخله مستندة على مظلتها وعلى وجهها لوائح الأمن والطمانينة فتجدني منتظرا مترقبًا مشتاقًا بكل ما في الشوق من الجوع والعطش.

ولم تخف قط عين الرقيب ولا شعرنا بوخز الضمير لان النفس اذا تطهرت بالنار واغتسلت بالدموع تترفع عما يدعوه الناس عيبًا وعارًا وتتحرر من عبودية الشرائع والنواميس التي سنتها التقاليد لعواطف القلب البشري وتقف برأس مرفوع امام عروش الالهة ان الجامعة البشرية قد استسلمت سبعين قرنًا الى الشرائع الفاسدة فلم تعد قادرةً على ادراك معاني النواميس العلويه الأولية الخالدة. قد تعودت بصيرة الانسان النظر الى ضوء الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع ان تحدق بنور الشمس. لقد توارثت الأجيال الامراض والعاهات النفسية بعضها عن بعض حتى اصبحت عمومية بل سارت من الصفات الملازمة للانسان فلم يعد الناس ينظرون اليها كعاهات وامراض بل يعتبرونها كخلال طبيعية نبيلة انزلها الله على آدم فاذا ما ظهر بينهم فرد خالٍ منها طنوه ناقصًا محرومًا من الكمالات الروحية.

اما الذين سيعيبون سلمى كرامه محاولين تلويث اسمها لأنها كانت تترك منزل زوجها الشرعي لتختلي برجل آخر فهم من السقماء الذين يحسبون الاصحاء مجرمين وكبار النفوس متمردين. بل هم كالحشرات التي تدب في الظلمة وتخشى الخروج الى نور النهار كيلا تدوسها اقدام العابرين.

ان السجين المظلوم الذي يستطيع ان يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جبانًا. وسلمى كرامه كانت سجينة مظلومة ولم تستطع الانعتاق فهل تُلام لانها كانت تنظر من وراء نافذة السجن الى الحقول الخضرا والفضاء الوسيع؟ هل يحسبها الناس خائنة لانها كانت تجئ من منزل منصور بك

غالب لتجلس بجانبي بين عشتروت المقدسة والجبّار المصلوب؟ ليقل الناس ما شاءُوا فسلمى قد اجتازت المستنقعات التي تغمر ارواحهم وبلغت ذلك العالم الذي لا يبلغه عوي الذئاب وفحيح الافاعي. وليقل الناس ما ارادوا عني فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه اللصوص، والجندي الذي رأَى السيوف محتبكةً فوق رأسه وسواقي الدماء تجري تحت قدميه لا يخفل بالحجارة التي يرشقه بها صبيان الازقة.

أحبّ من الناس المتطرفين

أحبّ من الناس المتطرفين.

أحبّ القادرين على الهبوط الى لجج الحياة والصعود الى أعاليها.

أحبّ الذين يميلون بكليتهم الى وحدانية الامور فلا يقفون مترددين بين نقيضين.

أحبّ النفوس الطافحة بمرام قويّ ثابت وأهوى الارواح البسيطة التي لا تقبل طبيعتها التركيب ولا يدخل على جوهرها الانقسام.

أحبّ المتطرفين المتحمسين الملتهبين بشعلة نزعتهم، المضطربين بوجدان قلوبهم، المستسلمين الى عواطفهم، المنصرفين عن معترك المبادى، الى مبدأ خاص، المتحولين عن اختلاط الافكار الى فكرة أولية مجردة ترتفع بهم الى ما وراءَ الغيوم وتنحدر بهم الى اعماق البحار

قد خبرت المعتدلين، ووزنت مقاصدهم بالموازين وقست مانيهم بالمقاييس، فوجدتهم جبناءَ يخافون الحقَّ ملكًا والباطل شيطانًا فيحتمون بأَواسط العقائد والقواعد التي لا تنفع ولا تضر، ويتبعون السبل الهينة التي تقودهم الى صحراء مقفرة خالية من الرشاد والضلال، بعيدة عن السعادة والشقاء.

انما الحياة صيف يترنم بحر أشواقه، وشتاء يتباهى بعزم عواصفه، فمن يعتدل بتكييف حياته وتبويبها ليجعلها في مأمن من نشوة الصيف وهول الشتاءِ كانت أيامه بلا عز ولا جمال، ولياليه بلا سحر ولا أحلام، وكان هو نفسه أقرب من الاموات الى الاحياءِ بل كان من المحتضرين الذين لا يقضون ليرتاحوا في أحشاء الارض ولا يعيشون ليسيروا في نور الشمس.

ان من يعتدل في دينه يقف حائرًا بين خوفه من العقاب ورغبته في الثواب، فاذا ما مشي في موكب المؤمنين توكأ على عكازة، واذا ما ركع مصليًا انتصبت فكرته ضاحكة منه.

ومن يعتدل في دنياه يبق حيث ولدته أمه، فلا يتراجع الى الوراء ليعلم الناس أمثولة بتقهقره، ولا يخطو الى الامام ليرشدهم الى محجة أو مأثرة، بل يظل جامدًا حائرًا محدقًا في ظله مصغيًا لطرقات قلبه قابضًا على أنفاسه.

من يعتدل في حبه لا يشرب من كاسات الحب حلوًا مبردًا ولا مرًا حاميًا بل يبلل شفتيه بعصير مذق فاتر تستقطره البلاهة من مستنقعات الضعف والارتياع.

ومن يعتدل في مناصبة الشر ومناصرة الخير لا يصرع شرًا ولا ينجد خيرًا، يكتفي بأن يصون ما سال من عواطفه بما جمد منها، فيصرف عمره على شواطئ الامیال وهو كالمحار حجري الظاهر مخاطبي الطوية لا يدري اي متى ينتهي مدّ الحياة أو متى يبتدئ جزرها.

ومن يعتدل في طلب المعالي لن يبلغها، بل يغمس فشرتها بطلاءٍ لماع لا يجف حتى تمحوه نسمة من الريح أو موجة من النور.

ومن يعتدل في السعي وراءَ الحرية لا ولن يرى سوى آثار قدميها بين التلول والمنحدرات فالحرية كالحياة لا تبطئ ليلحق بها العرج والمقعدون.

ومن يعتدل في رغائبه يريد حياة اما طويلة رفيعة. أو قصيرة ثخينة. فتأتي رغم ارادته إما طويلة ناشفة أو قصيرة فظة. ولو كان من المتطرفين لجعلها مديدة بما يلازمها من الاعمال والمآتي. ضليعة بما يعانقها من الحلا والحب والحرية.

* * *

قد سمعت المعتدلين العاجزين يقولون «القناعة كنز لا يفنى» فمقتتهم روحي وانصرفت عنهم قائلة «كيف يتحول القرود الى بشر والاقزام الى جبابرة وهم قانعون بضعفهم وتفاهتهم؟».

وسمعت القرود والاقزام يقولون «رأس الفضائل الاعتدال» ففرقت منهم روحي. وحولت وجهها منهم قائلة «هل يستطيع هؤلاء المخاليق ادراك حقيقة الامور وهم محدقون باواسطها أفليس للامور رؤوس وأذناب؟»

وسمعت ذوي العقول المفلوجة يقولون «عصفور بيدك خير من عشرة على الغصن».

فتضجرت منهم روحي وقالت مغضبة «ان هؤلاء البلداء لا يستحقون الحصول على نصف عصفور حتى يبروا أقدامهم راكضين خلف عشرة عصافير، أفليس السعي وراء الاسراب الطائرة هو الجد في سبيل الحياة، بل القصد من الحياة، بل الحياة نفسها؟».

أحب من الناس المتطرفين.

أحب ذاك الذي صلبه المعتدلون ولما لوى عنقه وأغمض عينيه قال بعضهم لبعض «لقد تخلصنا من المتطرف المقلق» ولم يدروا ان روحه كانت في تلك الساعة تسير متغلبة على الامم وعلى الاجيال.

أحب ذاك الذي ترك سلطان أبيه وصولته، واستبدل الحرير بالاطمار، والرفعة بالذلة، وسار منفردًا الى غاية الوحي والتشويق، وبينا المعتدلون

يسخرون به ويستغربونه كانت أصابعه الدقيقة تجمع بين ما ظهر من الوجود وما خفي منه.

أحب الشهداء المشغوفين المستميتين المسترخصين كل شيء الا الغاية القصوى، المستصغرين كل أمر الا الغرض الاسمى.

أحب الذين أحرقوا ورجموا وشنقوا وقضوا بحد السيف من اجل فكرة امتلكت عقولهم أو عاطفة اشعلت قلوبهم.

أحب من الناس المتطرفين، فما رفعت كأسي الى شفتي الا لاذوق طعم دمائهم ودموعهم وما نظرت من نافذتي الى الفضاء الا لارى وجوههم وما اصغيت للعاصفة الا لاسمع باهازيجهم وتهاليلهم.

عبد المسيح حداد

في بيت الميت

عند ما مات طانيوس المرظل بيت الفقيد مقصد المعزين أسبوعًا كاملا ليل نهار وقد خيف أن يكون بلاء أهل الفقيد من كثرة المعزين أكثر من فقدهم المرحوم ولكن هي العادة السورية في هذه الاحوال تأخذ مأخذها وهو التقليد يجري مجراه ولو تقطعت القلوب وتفتت الاكباد وتحطم إناء الصبر. أهل الميت يسمعون تعازى من افواه المعزين كأنها أمثولات تعلمهم قائلوها من جملة الصلوات التي تقال كل يوم وإنى أنا كاتب هذه الحكاية أشعر بكل ما فىّ من العواطف مع الفاقدين ليس على من يفقد بل على جلادتهم في استماع فلسفة التعازى.

الا أنه من نعم المولى ان الاصطلاح في التعزية أن يكون وقتها قصيرًا جدًا فالمعزى يبقي قبعته بيده واذا كان في الشتاء يظل لابسًا سترته العليا وما الداعى الى هذا الاختصار ميل من القوم الى التخفيف عن أهل الميت بل كثرة القادمين حتى يضيق عنهم المكان واذ ذاك يخرج فوج ليعطي مكانا للفوج القادم جديدًا.

أما أهل الميت فجلوس بلا حراك وأذان بلا السنة وعيون تنظر أحضانها وشفاه تتمتم كلمتين لكل قادم وكل مودع وهما «ورأسك سالم» جوابا على التحية في التعزية لدى الدخول والخروج وهي «عوضنا الله بسلامة رؤوسكم» والمرحوم طانيوس المر كنت أعرفه معرفة خارجية فلم أزره

في بيته بحياته ولكن صديقي بطرس كروانى جذبني جذبًا لنأخذ خاطر أهل الفقيد قائلا لى ان التعزية واجبة على كل عارف ولا فرق نسيبًا كان أم صديقًا أم من المعارف.

وهكذا كان، ذهبنا وكان حضرة صديقي أبرع مني في الكلام فقد دخلت الى بيت الميت وانا كالجنين في عالم التقاليد فقد هممت بالقاء التحية التي أقولها في كل الاوقات إلا ان صديقي بطرس رفع كفه ووضعه على فمي فجعلني أبلع «نهاركم سعيد» ثم همس باذني أن اقول «الله يعوضنا بسلامتكم» فقلت وجلست كاني من اهل الميت على ما وصفت وأزيدهم بعدم التمتمة لان المسألة لا تعنيني وبنظر الاشباح من كل جهة لان حضني كان مملوءًا بسترتى المطوية وفوقها قبعتي وقد احمر وجهي خجلا لانى كنت الوحيد النازع عنه سترته.

بعد سكوت خمس دقائق فتح بطرس فاه بالكلام فقال.

«قبل أن مات اسكندر الكبير عرف أن آخرته قد اقتربت وأن أمه ستحزن عليه حزنًا عميقًا فدعاها اليه قبل موته وقال لها وصيتي إليك يا أماه أن تأدبى مأدبة بعد موتي وتدعى اليها كل الناس وعند ما يجلسون الى المائدة قولى لهم إن من لم يذق حزنًا على حبيب له فليمد يده وياكل وهكذا كان. فبعد وفاته أدبت مأدبة ودعت اليها جميع الناس ولما جلسوا الى المائدة قالت لهم ما أوصاها ابنها اسكندر أن تقوله فلم يمد أحد يده للطعام، فعرفت إذ ذاك أن كأس الموت دائرة على الجميع ولهذا تعزت في مصابها الجلل».

سمعت هذه الموعظة فكبر قائلها بعيني وقلت في نفسي يا ضيعان ما تعلمته في المدارس والله ان بطرس فاقني بأسلوبه المعزى وقال أحسن موعظة تقال في محلها، وكأني نسيت نفسي أني موجود في هيكل الصمت فقلت لرفيقي «أحسنت والله بهذه التعزية إنها لحكمة منزلة».

أما الحاضرون ولم يكونوا كثارًا لان زيارتنا لاهل الميت كانت بعد أسبوع وقد بدأت حركة التعزية تقل فقد سمعوا الموعظة الجميلة كأنهم لم يسمعوا شيئًا البتة وقد عجبت لامرهم فقلت في نفسي لعلهم طمطمانيون لم يفهموا معنى الذى قيل أمامهم.

ولم يكد ينهى بطرس كلماته الدرية حتى وافى البيت فوج مؤلف من ثلاثة رجال؛ ولان المكان واسع والزوار قليلون بقينا في أماكننا بل بقى بطرس جالسًا واضطررت أن لا أتحرك لانه هو الزنبرك لهذه الزيارة.

ولما جلس القادمون جديدًا فتح أحدهم فاه بالكلام وفيما هو يهم ليتكلم حزنت على نفسي وقلت يالله ما اجهلني فاني لا أفهم شيئًا من العادات والتقاليد ولم أمرن نفسي على الكلام اللازم في كل حين — أما المتكلم فبدأ بقوله.

«هذا حال الدنيا. الموت محتم على كل الناس لا مهرب منه. كان اسكندر الكبير قد فتح الدنيا بأسرها وهو في الثلاثين من عمره...».

وفيما هو يخبرنا عن الاسكندر قلت في نفسى. موعظة ثانية تأتينا وقد حتمت على أن أقصد المكتبة العمومية بعد هذه الزيارة لاطالع حياة ذلك الرجل العظيم الذي كل تاريخه مواعظ لازمة للبشر في حالات المصائب وقد تحولت الى اصغاء تام لاسمع المتكلم فلا تفوتني الموعظة الثانية ولكن شد ما كان فشلي عند ما سمعت منه نفس الموعظة التي أخبرها بطرس ولهذا استأت في داخلي أيما استياء.

عندئذ هم رفيقي بالنهوض لانه رأى فوجًا آخر مؤلفًا من قادمين اقتربا من الباب فكبست على ركبته وهمست في أذنه اني أريد أن أبقى حتى نخرج كلنا معًا. فسايرني بطرس مضطرًا ودخل القادمان فتليا افشين التعزية وجلسا. وما هي الا لحظة حتى فتح كبيرهما فاه بالكلام فسمعته يقول.

«ما هان علينا موت المرحوم ولكن أمر الله لا مرد له هكذا قدر وكان فسبحان الدائم. يحكى ان اسكندر ذا القرنين شعر بدنو أجله . . .».

هنا تنحنحت قليلا فلاحت مني لفتة الى صديقي بطرس فرأيته يخط وجهه ابتسامة ولكن في الحال أدرت وجهي عنه الى ناحية المتكلم لاسمع حكاية اسكندر ذا القرنين وبعد سماعي جملتين من حديثه بدأ وجهي يخط ابتسامة عريضة وللحال خوفا من ان تنتهى الابتسامة بضحكة ونحن في هيكل الحزن والخشوع نهضت ونهض معى رفيقى فقلت.

«بالاذن بلا قطع حديث حضرة المتكلم ونهاركم سعيد جميعًا» وخرجت وتبعنى بطرس ولما صرنا خارج البيت أمسكني صديقي مستوقفاً وقال والسم يقطر من وجهه:

«ما نفعك ونفع علمك اذا كنت لا تفهم ان في بيوت أهل الموتى لا يقولون عبارة «نهاركم سعيد» وقد أفهمتك عند ما دخلنا ان لا تلفظها فبلعتها فلماذا نسيت هذا الامر عند ما خرجت»؟

فقلت له دعنى من عتبك يا بطرس واخبرني أين قرأت القصة التي قلتها في بيت الميت فقال انه سمع جده يرويها في مأتم شيخ القرية. فقلت وأين قرأها جدك فقال لا بد انه سمعها من جده. فقلت له اذا فى مرة ثانية أضبط التاريخ وقل هكذا: «حدثنى جدى عن جده عن جده حتى تصل الى معاصر الاسكندر الكبير». فضحك بطرس وصفح عنى وقال وهو يصافحنى لياخذ سبيلا غير سبيلى.

«اضحك بسرك فاننا لم نكمل الساعة في بيت المرحوم والا لكنا سمعنا حكاية اسكندر الكبير لا أقل من عشرين مرة».

فأجبته ولعلني قلت الصواب: «لو كنت موضع اهل الميت لقلت للناس المرحوم استراح من هذه الدنيا ومن مواعظكم».

وودعت بطرس وسرت في طريقى فالتقيت بجماعة عرفت منهم واحدًا ولما رآنى دنا منى مسلما وأخبرني انه ذاهب ليأخذ بخاطر آل المر فأخبرته انى آت من تعزيتهم اللّٰه يساعدهم. فاعاد «اللّٰه يساعدهم» وزاد «ويعينهم» وقد اخبرته كيف انى دخلت بيت الميت ولم أقل عبارة تعزية اعزى بها المساكين لانى لا أفهم الاصطلاحات فضحك منى وقال «أهى مسألة فلسفة. احك قصة فيها مغزى وعز بها الجماعة» فقلت وما عساك أن تحكى أنت؟

فبدأ يخبرني قصة اسكندر ذى القرنين ولكنى قاطعته قائلا انى أعرفها وأشرت له ان يلحق بأصحابه ليعزوا الجماعة وليساعدهم اللّٰه — ويعينهم — ويرحمهم.

Eng. tr. : Martin Sprengling. "The Arabic Drama" The New Orient : I. The Near East, 319-24

ميخائيل نعيمه

الرواية التمثيلية العربية

(وضعها المؤلف توطئة لروايته «الآباء والبنون»)

حنق البعض على الغرب لاعتقادهم بأن المدنية الغربية نفثت في حياتنا الجميلة الطاهرة، الراتعة بأمن تحت أجنحة الملائكة والقديسين، روح فسق وخلاعة وكفر. وتغنى الآخرون بعظمة الغرب فصاحوا بنا — هيا نعبد الغرب وكل ما خلقه الغرب!

اما نحن فنرى الأفضل ان نقف على الحياد بين أولئك وهؤلاء، تاركين لهم حق تسوية خلافهم بالمدى والفؤوس اذا ارادوا، بشرط ان لا يعارضونا اذا تجاسرنا ان نعترف ولو بفضل واحد للغرب — وهو فضل آدابه على آدابنا.

ما تعوّد البعض ان يدعوه «نهضة أدبية» عندنا ليس سوى نفحة هبّت على بعض شعرائنا وكتّابنا من حدائق الآداب الغربية، فدبت في مخيلاتهم وقرائحهم كما تدب العافية في اعضاء المريض بعد إبلاله من سقم طويل. والمرض الذي ألمّ بلغتنا اجيالاً متوالية كان شللاً اوقف فيها حركة الحياة وجعلها، بعد عزها السابق، جيفة تتغذى بها أقلام الزّعانف المستعبدين وقرائح «النظّامين» والمقلدين. أما اليوم فقد رجعنا الى الغرب، الذي كان بالامس تلميذنا، لنقتبس عنه امثولة جعلناها حجر زاوية «نهضتنا الادبية». وتلك الامثولة هي ان الحياة والادب توأمان لا

ينفصلان، وأن الادب يتوكأ على الحياة، والحياة — على الادب، وانه — اعني الادب — واسع كالحياة، عميق كاسرارها، ينعكس فيها وتنعكس فيه. أدركنا — بفضل الغرب — ان نظم الشعر ممكن في غير الغزل والنسيب، والمدح والهجآء، والوصف والرثآء، والفخر والحماسة. لذلك أطربتنا نغمة بعض شعرائنا الحديثين الذين تجاسروا ان يتعدوا هذه الحدود المقدسة. وانتقلت الينا — بفضل الغرب كذلك — الرواية، او ما يدعونه بالانكليزية (نوڤل) وبالافرانسية (رومن). وكنا اسبق الناس اليها. فوجدنا فيها مجالاً واسعا لوصف الحياة والتأثير على العقول والقلوب بواسطة القلم، وادركنا ان النثر لا ينحصر في صف الكلام المسجع، والاكثار من الالفاظ الشاردة المدفونة في بطون المعاجم، وتحبير المقالات المملة في موضوعات مبتذلة. فقام بيننا بعض من جرّبوا ان يمثلوا حياتنا اليومية في روايات وطنية.

وهذه خطوة الى الامام.

لكن «نهضتنا الادبية» لا تزال في الاقمطة، وما نطقت به حتى اليوم ليس سوى لثغ طفل لا يزال مقيّد اللسان، محدود العواطف، ضعيف العضل. وقد لا يحق لنا ان نلومها على هذا الضعف. لكننا لا نكتم ان رجاءنا بمستقبلها يضعف عند ما نراها قد أهملت بابًا كبيرًا من ابواب الادب لو خُير الغرب بينه وبين بقية الاساليب الكتابية لاختاره دونها. نحن نعني — الرواية التمثيلية.

الرواية التمثيلية رافقت الآداب الغربية منذ نشأتها حتى هذه الساعة فأصبحت ركنًا من اركانها. واقام لها الغربي المعاهد التمثيلية (التياترو) فاصبحت هذه جزءًا من حياته اليومية كالمدرسة والبيت والكنيسة. في التياترو تجد نفسه الجائعة المثقلة باتعاب العمل وهموم الحياة راحة وتعزية وقوتًا. من أوحال معيشته التي يشابه صباحها مساءها ويومها أمسها ترتفع

روحه الى عالم تجول فيه العواطف البشرية بين جميلها وقبيحها، وضعيفها وقويها، وشريفها ودنيئها. يرى بعينه على المسرح بشرًا مثله غائصين في معركة الوجود يكشفون امامه اسرار قلوبهم ومخبآت ضمائرهم فيجد في هذه الاسرار وبين تلك المخبات قسمًا من الذات التي يدعوها «انا» ويستعين ببعضها على اصلاح نفسه والاضافة الى خزانة اختباراته. يضم المؤلف والممثل قواهما — الاول بافكاره والثاني بصوته وحركاته — ليخترقا حرمة انفراده الذاتي. فيدخلان زوايا قلبه و يمسّان كل اوتاره ويفتشان بين طيّات ضميره ويحركان دولاب افكاره — وبالاجمال يوقظان فيه كل قوى الوجود فيشعر انه كائن حي فربَّ كلمة تقع في اذنه يحتضنها للحال عقله وتختمر بها روحه، او ربَّ حركة من يد الممثل ينتفض لها قلبه، او رُبَّ مشهد يهزه بكليته كما تهز العاصفة شجرة من جذورها. لكن هذا التأثير في السامع والناظر لا يمكن احداثه الا اذا كانت الرواية مشهدًا حيًّا من مشاهد الحياة الحقيقية وكان الممثل قادرًا على فهم افكار المؤلف وغايته وتفسير هذه الافكار وتأدية تلك الغاية الى السامع بواسطة الصوت والحركات. فلذلك يتوكأ المؤلف على الممثل، والممثل على المؤلف وغير خفي ان افضل الروايات في يد ممثل ضعيف تضيع كل قوتها ورونقها، وبالعكس — فالممثل الحاذق يلبس احيانا ابخس الروايات حلة جمال وقوة. ولذلك رفع الغرب شأن الممثلين كشأن المؤلفين فأجزل عطاهم بالمال واحاطهم بالشهرة في الحياة، وطيب ذكرهم بعد الموت.

فماذا فعلنا نحن؟

نحن لا نزال ننظر الى الممثل نظرنا الى «بهلوان» والى الممثلة كعاهر، والى التياترو كمقصف، والى التمثيل كنوع من القصف واللهو. شعبنا لم يدرك بعد اهمية فن التمثيل في الحياة لأنه لم يرَ بعد روايات تمثل أمامه مشاهد من حياة يعرف الفها وياءها، لم يرَ بعد نفسه على المسرح. واللوم

عائد على كتابنا لا على الشعب. فجلُّ ما قدمناه حتى الآن الى الشعب من الروايات التمثيليه ينحصر في بعض روايات معربة اكثرها من سَقَط المتاع وكلها غريبة عنه، بعيدة عن اذواقه، قصية عن مداركه. انا لا أشك قط في اننا سنرى عندنا، عاجلًا او آجلًا، مسرحًا وطنيًا تمثل عليه مشاهد حياتنا القومية. انما يقتضي لذلك قبل كل شيء ان يحول كتابنا انظارهم الى الحياة التي تكر دولهم كل يوم، الى حياتنا بعُجَرِها وبُجَرِها، وافراحها واتراحها، وجمالها وقباحتها، وشرها وخيرها، وان يجدوا فيها مواد لاقلامهم — وهي غنية بالمواد لو دروا كيف يبحثون عنها.

يبشرنا الانقلاب الذي طرأ مؤخرًا على آدابنا بقدوم تياترو وطني ولو كانت العقبات في طريقه لا تزال كثيرة. من هذه العقبات وهم اجتماعي لا يزال راسخا في عقول الكثيرين، هو ان التياترو يفسد الاخلاق الطاهرة — لا سيما اخلاق البنات والنساء. رحمتك يا ربي! ومنها فقرنا الى الكتّاب الروائيين والروايات التمثيلية الوطنية. ولكن اكبر عقبة صادفتها في تأليف «الآباء والبنين» — وسيصادفها كل من طرق هذا الباب سواي — هي اللغه العاميه والمقام الذى يجب ان تُعطاه في مثل هذه الروايات. في عرفي — واظن الكثيرين يوافقوني على ذلك — ان اشخاص الرواية يجب ان يخاطبونا باللغة التي تعودوا ان يعبروا بها عن عواطفهم وافكارهم، وان الكاتب الذي يحاول ان يجعل فلّاحًا اميًا يتكلم بلغة الدواوين الشعرية والمؤلفات اللغوية يظلم فلّاحه ونفسه وقارئه وسامعه، لا بل يُظهر اشخاصه في مظهر الهزل حيث لا يقصد الهزل ويقترف جرمًا ضد فن جماله في تصوير الانسان حسبما نراه في مشاهد الحياة الحقيقية. هناك امر آخر جدير بالاهتمام متعلق باللغة العامية — وهو ان هذه اللغة تستر تحت ثوبها الخشن كثيرًا من فلسفة الشعب واختباراته في الحياة وامثاله واعتقاداته التي لو حاولت ان تؤديها بلغة

فصيحة لكنت كمن يترجم أشعارًا وامثالاً عن لغة اعجميّة. وربما خالفنا في ذلك بعض الذين تأبطوا القواميس وتسلحوا بكتب الصرف والنحو كلها قائلين ان «كل الصيد في جوف الفرا» وأن لا بلاغة او فصاحة او طلاوة في اللغة العامية لا يستطيع الكاتب ان يأتي بمثلها بلغة فصحى. فلهؤلاء ننصح ان يدرسوا حياة الشعب ولغته بامعان وتدقيق.

الرواية التمثيلية، من بين كل الاساليب الادبية، لا تستطيع ان تستغني عن اللغة العامية. انما «العقدة» هي اننا لو اتبعنا هذه القاعدة لوجب ان نكتب كل رواياتنا باللغة العامية اذ ليس بيننا من يتكلم عربية الجاهلية او العصور الاسلامية الاولى وذاك يعني انقراض لغتنا الفصحى ونحن بعيدون عن ان نبتغي هذه الملمّة القومية. فأين المخرج؟

عبثًا بحثتُ عن حلٍ لهذا المشكل فهو اكبر من ان يحله عقل واحد. وجلُّ ما توصلت اليه بعد التفكير هو ان اجعل المتعلمين من اشخاص روايتي يتكلمون لغة معربة. والاميين اللغة العامية لكني اعترف باخلاص ان هذا الاسلوب لا يحل «العقدة» الاساسية. فالمسألة لا تزال بحاجة الى اعتناء اكبر رجال اللغة وكتابها.

والمشكل الآخر الذي وقفت امامه حائرًا سائلًا هو ضبط كتابة اللغة العامية بطريقة تزيل الالتباس والابهام وتؤدي اللفظ المقصود. تركت امر «اللهجة» التي تختلف كثيرًا باختلاف المقاطعات والامكنة الى فطنة الممثل وحذاقته لكنني احجمت تهيبًا عن ان اضع لاجل هذه الرواية وحدها اصطلاحات لضبط الكلام العامي. ونحن بحاجة ماسة الى هذه الاصطلاحات اذا احببنا ان نقترب من الشعب ونهذبه باقلامنا. العامة تستعمل حروفا لا وجود لها بين حروف الهجاء المعروفة مثل (O. E. g) الافرنسية وتلفظ القاف في اكثر المحلات كالهمزة. فيجب ان نضيف الى لغتنا بعض اصطلاحات تقوم مقام هذه الحروف انما يجب ان تكون هذه الاصطلاحات

عمومية كي لا يحدث تبلبل وتشويش حيث نقصد اتفاقًا ووحدة. فمن يقوم لنا بهذه المهمة؟ لو كان عندنا مجلس ادبي او شبه اكاديمي لألقينا على عاتقه هذا الامر.

اما ولا اكاديمي لنا فهل تصدق الاحلام وتحمل الغيرة على اللغة العربية وادابها بعض ادبائنا في الشام ومصر على تأليف هيئة دائمة تعتني بترقية اللغة والمحافظة عليها وتكييفها بموجب الزمان والاحوال؟

افضل ألاّ اقول شيئًا عن اشخاص الرواية او الرواية نفسها سوى اني حاولت ان الج فيها طرفًا محدودًا من موضوع حيوي كبير في حياة الامم جمعاء — وحياة شرقنا على الاخص — ذاك هو الخلاف الابدي بين الآباء والبنين والتباين الدائم بين القديم والحديث. واذا لم يكن نصيبي منها سوى دفع بعض كتابنا الأوفر مقدرة مني في معالجة موضوعاتنا الاجتماعية على تأليف الروايات التمثيلية فقد نلت غايتي.

اذا شئنا ان نرفع آدابنا من المستنقعات التي تتمرغ فيها فعلينا ان نسعى من الآن لوضع اساس متين للمسرح العربي بتربية اذواقنا التمثيلية وتعزيز الرواية الوطنية، حتى اذا نهضنا كانت «نهضتنا» نهضة جبّار افاق من نوم طويل لا نهضة عاجز فتح عينه ليرى الموت امامه.

عباس محمود العقاد

١٨٨٩

الراحة

أبونا ادم رجل سبط القامة، عريض الألواح، جثل الشعر، في لون بشرته أدمة، وعلى محياه سيماء الطيبة والسلامة، ولنظراته دلائل الامانة والجهامة. ولم أدركه أنا ولكنى صادفته في المنام، وعرفني به وحى الدم. والدم كما يقولون جذاب، والعرق دساس. فلما صادفته ذكرت موجدة طالما وجدتها عليه كلما راجعت سيرته في الجنة. فقلت له يا أبانا يغفر الله لك! ما أقل ميراثك واكثر وراثك!! أقطعوك الجنة بما رحبت فلا صنتها عليك ولا حفظتها لبنيك بعدك. ثم خرجت منها فما تزودت من ألطافها وأطايبها ولا احتقبت من تحفها وعجائبها، عزاء لابنائك الضارسين بالحصرم الذي أكلت، والمنغصين بالثمرة التي جنيت. وتركتهم في ظلمات الحياة يعمهون، وعلى وجه الارضين والبحار يخبطون، فلا يهتدون. فهلا اذ كنت في الفردوس كان لك بطيباته المحللة، غناء عن تلك الشجرة الممنوعة!! وهلا اذا أكلت منها تذكرت بنيك فقطفت لهم من ثمار الفردوس ما يتنسمون منه رائحة تلك الدار التي كنت فيها. ثم أورثتهم الحنين اليها. وكان مطرقا وكانما هجت في نفسه ذكرى منسية، فاغرورقت عيناه بالدمع ورأيته يغالب نشيجه ويتنهد ثم مد الى يده وقال: قدك يا بني قدك! ولا تعجل باللوم على أبيك، فوالله ما الزلة في الاولى والآخرة الّا زلة

أمكم حواء سامحها الله. وما نسيتكم علم الله يوم الخروج، يوم المعصية والحرمان. أواه. وما كان أحلى تلك المعصية ثم ما كان أمرّ ذلك الحرمان كنت أمشي في ذلك اليوم وأتلفت أسفا على ما أودع ووجلا مما أنا قادم عليه. وكانت حواء تمشي الى جانبي ذاهلة مستعبرة. والنساء يا بني يفعلن الأفاعيل وهن بعد لا يملكن فيها غير الذهول والبكاء. فبينا انا أمشي واتعثر، وابطىء الخطوة استزيد بها الدقائق، وقد كان لنا ثم مقام الابد لو لا ما فرطنا... اذ عاينت على قدى خطوات جوهرًا وهاجا قد صفت حوله الطير وحفت به الاملاك، وهم ساهون عنه غير مقبلين عليه — ذلك جوهر الراحة يا بني ومن آفته أن من يحرزه لا يحس به ولا يقدر قيمته. فاوضعت اليه فالتقطته ولم يشعر بي أحد.

قلت: وأين ذلك الجوهر يا أبتاه! أهو معك الآن؟

قال: مهلا اني خشيت أن أظهر حواء عليه فترزأنا به كما قد رزأتنا بالنعيم كله. فسترته بيدي وما كادت تمس الارض قدمي حتى اسرعت فخبأته في حرز حريز وقضيت وا آسفاه ولم اطلع احدا من أبنائي على موضعه. وهذا سر لا إخالكم وقفتم عليه. فلا غرو أن قام منكم في الزمن الاخير من ينتسب الى القردة دونى، ولا بدع أن تيأسوا من الجنة وتولوا بوجوهكم عنها...

قلت: بل قد وقفوا عليه. ولا ادرى من ابن. ودروا انك التقطت جوهرًا من الجنة وأنه جوهر الراحة. فطفقوا يبحثون عنه في اليقظة والمنام وكلما ظنوا أنهم ثقفوه اذا هم أبعد ما كانوا عنه — اذا التمسوه في المجد فهناك البوار والعطب، واذا ابتغوه في الامل لم ينقض لهم أرب حتى يحد لهم ارب، واذا أراغوه في اللهو فعاقبته الندم، أو نشدوه في البطالة ففي البطالة السأم... تائهين على غير هدى ضاربين في مناكب الارض سدى يبدأون ويعيدون، ويعيدون ويبدأون، وهيهات ما يوعدون،

أفلا كفيتهم الآن هذا النصب، وعوضتهم عما تجشموه من الكرب في سالف الحقب؟

قال: لا تطمعوا أن تجدوه حيث أنتم كادحون. فانما قد دفنته تحت التراب. في مكان لا يراه من ينظر السماء ولا يرى السماء من ينزل اليه... ولكنكم متى حللتم جوف الارض واطرحتم كل أمر لكم في ظهرها، فهنالك الراحة السرمدية.

قوة الارادة

خطر لي أن أبتدع في التجارة بدعة حسنة فاخترعت أن أتاجر بالاخلاق النافعة للمصريين. فاقتديت باولي الخبرة والنظر البعيد من التجار اذا عزموا الاتجار بسلعة من السلع في بلد من البلدان، يتوخون حاجة السوق ويستقصون عادات أهل البلد ثم يقدمون على بصيرة من عملهم وأمل وطيد من الرواج والنجاح. فتوخيت حاجة السوق في مصر وتقصيت عادات المصريين وفتشت عن الخلق الذي ينقصهم أكثر من أي خلق سواه فعلمت أنه قوة الارادة فعولت على أن يكون اشتغالي بهذا الصنف من الاخلاق.

وراقني هذا الخاطر فمنيت نفسي رواجا سريعًا وربحا جزيلا وأنني سأكون أنفق تجارة وأكثر عائدة من المتاجرين بيننا بالوطنية والدين لأن حاجتنا الى الوطنية أقل من حاجتنا الى الأخلاق ولا سيما قوة الارادة وفي مصر كثير من الوطنيين والمؤمنين ولكن قل فيها من كملت عليه نعمة الاخلاق فغنوه فيها عن المزيد. وذهبت أحصي أرباحي ومكاسبي في السنة الأولى فالسنة الثانية وفي السنين التالية فضاق بها الحصر ولم يستوعبها الحساب، وسرني أن أحلم بأنه سوف لا يكون في الاثني عشر

مليونا الذين يسكنون وادي النيل مصري واحد إلا لديه مقدار كبير أو صغير من تجارتي فقلت انها والله التجارة التي لا تبور.

واكتريت الدكان في أوسع احياء العاصمة وأحفلها بالسابلة والقطان وزخرفته أيما زخرفة فصفحته بالبلور وغشيت جدرانه بالذهب وصنعت رفوفه من خشب الهند ونقشت عليه لوحة من أجمل ما خط الكاتبون كتبت عليها «هذا دكان قوة الارادة. يعطيك على نفسك سلطانًا لا حد له» ثم جلست على بركة الله أشمر للتعب والعملة واخففهما عني بما أرجوه من المنفعة لي وللناس.

فكان أول من سنح لي في صباح أول يوم فتحت فيه الدكان رجل سكران قد تخالعت أعضاؤه من الوهن واحمرت عيناه من السهر وانعقد لسانه من الخمر فوقف قبالة الدكان يترنح ذات اليمين وذات الشمال وأوشك أن يميل على ألواح البلور فيحطمها ويكدر علينا صباح الاستفتاح بطلعته المشؤمة. ولو كنت ممن يتطيرون لاغلقت دكاني لساعتي وجزمت بالفشل ولكنني تصبرت ولبثت ألاحظه وهو تارة يحملق الي وتارة يتهجى العنوان حرفا حرفا حتى أتى على حروفه بعد شق النفس ثم قال لي وكأن روحه تصعد مع كل كلمة!

أأنت صاحب الدكان؟

قلت نعم.

قال أنت بعينك؟

قلت أنا هو بعيني لا سواي...

قال وتبيع قوة الارادة؟

قلت من جميع الاصناف والاثمان.

قال ولنا أيضًا تبيعها؟؟... لا تؤاخذني فاني أحب أن أستفهم؟

قلت أجل. لك ولكل من يشتريها.

قال: فانا اسهر كل ليلة كما ترى واسكر وأقامر وأجيء في هذه الساعة فيثقلني النوم ولا أحب أن أنام. فهل عندك صنف من الارادة أتسلط به على النوم ويقوني على السهر ليل نهار؟

قلت: ليس هذا من الاصناف الموجودة ولو وجد لما بعناه. ونحن باعة الأخلاق لا نقل في الأمانة لصناعتنا والحفاظ بذمتنا عن الصيادلة. وقد تعلم أنت ان الصيادلة لا يبيعون كل دواء لكل طالب ولكن عندنا أصناف أصلح لك من هذا الصنف. فهل لك فيها؟

قال: أرنيها

فسردت له أسماء الاصناف التى فى الدكان وأريته كل صنف منها في علبته ولم آله تفصيلا لفوائدها وترغيبًا فيها وبسطت له أسماء الارادة المانعة. وخواصها منع الناس عن مقارفة العادات الضارة. من التدخين الى المقامرة ومن الكذب الى الوقيعة. وتختلف المقادير والاثمان، باختلاف الادمان والأزمان.

وأصناف الارادة العاملة وخواصها إيلاء الناس عزيمة وصبرًا على تذليل مصاعب الأعمال وتحقيق هامات الأنفس وأرخصها قضاء المرء واجبه، وأنفسها قضاؤه واجب أمته ونوعه. وهى أغلى من الارادة المانعة لأن القدرة على اداء الواجب أندر من القدرة على اجتناب المحظور. واعلى من هجرك ما تؤاخذ به فعلك ما تحمل عليه. وعددت له أسماء نفر من عظماء الرجال الذين دفعتهم قوة الارادة ودفعت بهم أممهم الى ذروة من الشرف تتقاصر عنها الذرى. وأطنبت في الوصف والتحسين وهو يصغي الىّ بما بقي فى حواسه من الانتباه، فأطمعني اصغاؤه في أن يكون أول تجربة ناجعة وأصدق اعلان عن الدكان. ورأيته يطرق مليا ثم قال: ولكن من يضمن لي جودة الاصناف ويكفل نقاوتها من الاخلاط والأوشاب.

فقلت في نفسي سبحان الله! هذا الذي يذهب كل ليلة الى الخمار لا يسأله أيسقيه سما أم خمرًا، ويغشي موائد القمار يخسر كل ليلة صحته وماله ثم ينساق اليها بغير سائق لا يريد أن يشتري قوة الارادة الا بضامن؟ ولكني جا ربته وقلت له: لا خوف عليك من هذه الجهة فسأعطيك علبة نموذجا فجربها وسل من شئت من التجار. ولك بعد ذلك الخيار.

* * *

انصرف السكران بالعلبة ذلك اليوم وعاد اليَّ في اليوم الثاني مفيقًا صاحيًا فجلس بتؤدة وأدب وقال لي: لقد تعاطيت أمس علبتك ولم أعاقر ولم أقامر ولا أدرى أبفضل العلبة ذلك أم لنفاد المال مني. وكنت اذا نفد المال مني اقترضت، فلم أقترض أمس، فلا أدري أيضًا أكان ذلك قوة في الارادة أم حياء من الرفض وكنت لا أستحي فلا أدري والله كان حياءي خلقا جديدا اكتسبته منذ تعاطيت قوة الارادة أم لتكرار الطلب واليأس من الاجابة.

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم * ومن اكثر التسال يوما سيحرم

على انني سألت التجار تاجرًا تاجرًا فاستغربوا اسم الصنف ولونه ورائحته ومعدنه واتفقوا على أنهم لم يسمعوا به لا في الشرق ولا في الغرب. ما عدا التاجر فلان فقد عرفه وفحصه قليلا فرده اليَّ مشمئزًا وهو يقول: خذ يا شيخ! فقد سئمنا هذا السخف والتدجيل! وهل فرغ الناس من سلطان الهموم فيسلطوا عليهم قوة الارادة أيضا؟؟ واذ كانت عوائق الدهر تحرمك شطرًا من ملذات الحياة وأنت تحرم نفسك الشطر الباقي فأنت لا شك الذي يقال فيه أنه عدو نفسه... فخل عنك هذه الأضاليل ولا يغرنك ما تقرأ من العناوين وما تسمع من المواعيد فلو كان في هذه التجارة خير لما غفل عنها الناس الى اليوم، ولم ينسها دهاقين التجار الازمان المتطاولة لتكون بدعة من بدع هذا الزمان المنكود.

فأسكت هذا المهذار وندمت على التفريط في العلبة وكان أعجب ما عجبت له كلام ذلك التاجر لعلمي بأنه ممن يميزون أمثال هذه الاصناف ويحسون بنقص السوق فيها. ولم يكن بيننا مجاورة أو مشاركة. فخفي عني غرضه من تبغيض الناس في بضاعة ليس بيني وبينه منافسة عليها. ولكنني وقفت فيما بعد على سبب ذلك، وهاك بيان ما وقفت عليه:

* * *

رأى فلان المذكور هذه التجارة المستحدثة فقدر لها الربح الطائل والرواج السريع ورأى أنه ليس أيسر عليه من تقليدها شأن الاعلاق النادرة. تزييفها كثير والغش فيها جائز، وذاك لأن عارفيها معدودون ولأن جاهليها يحكمون عليها باللون والرونق وليس بالثمرة والجوهر. فقرر بينه وبين شيطانه أن يستفيد من هذه الفرصة ويختص بذلك الربح فما وني دون أن فتح له دكانا تجاه دكاني وتأنق في تزويقه وتنظيمه، وكتب عليه «هذا دكان قوة الارادة الصحيحة. يعطيك سلطانا لا حد له على ملذات الحياة».

فتح الدكان واستأجر له دلالا سليطا يفتأ سحابة النهار يصرح بصوت كقصف الرعود أو قرع الطبول: يا طالب الارادة الصادقة، حي على الغنيمة قبل فواتها! يا عشاق العزيمة الماضية، هلموا الى أعظم معمل للعزيمة الماضية. هيا الى أرخص سلعة سعرا وأسرعها فعلا وأصدها على الطواري، أثرا. ارادة لا تتكاءدها عقبة ولا تصدها عن غايتها طلبة. فمن اشتهى السكر فصدته عنه مرارة الراح فليشتر من هذا الدكان فيستعذب تلك المرارة ويعاف عندها كل حلاوة. ومن صبا الى الشهوات فاشفق من عقابيلها ومغباتها زودناه بقوة ارادتنا فاصبح لا يحفل بالعدل والملام، ولا يبالي بالضيم والسقام. ومن تورط في القمار ثم تهيب خشية الاملاق

والدمار، ومخافة الفضيحة والعار، فعندنا ما ينزع منه تلك المخافة، ويضحكه من هواجس تلك الخرافة. وعندنا لكل مريد ارادة، ولكل ارادة شهادة. فالبدار البدار! قبل غلاء الاسعار فاليوم بدرهم وغدا بدينار.

فما شككت في أن المسكين معتوه قد خسر رأسه وسوف يخسر رأس ماله وتوقعت له الخراب الجائح القريب، إذ من أين له أن يزاحمني في تجارتي وأنا مبتدع التجارة وهو المقلد. وأنا أبيع ارادة الجد والعمل، وهو يبيع ارادة اللهو والكسل. ولكن سرع ما أخطأ حسابي وارتد علىَّ تكهني. وما اراعني الا الجماهير على ابوابه يتكوفون وبضائعه في كل واد تسير، بحيث لم تخل منها المدينة والقرية والبيت والحانوت، والحانة والنادي ولم ينته الشهر ففتح دكانا جديدًا الى جنب دكانه ودار الحول فكان له في الحي خمسة دكاكين وأصبح أعظم تاجر في الديار.

أما أنا فقد أعطيت في اليوم الأول تلك العلبة لذلك السكران فكانت أول واخر ما صدر من دكاني. ومرت أيام وأيام وتلتها شهور وشهور، وتمت ثلاث سنوات مجرمات وأنا بتلك الحال أراقب التلف يدب في بضاعتي واعاين السوس ينخر في ارادتي — وما الارادة الا كالسيف يصدؤه الاهمال ويشحذه الضراب والنزال — فدهشت وغضبت، ثم صبرت وتعللت، ثم يئست وسلمت فأقفلت الدكان وطلقت التجارة، وها أنا ذا أسأل عن الحكمة لأودعها الدفاتر والمفاتيح.

عيسى عبيد

مذكرات حكمت هانم
(مذكراتي قبل الزواج)

اول مارس سنة ١٩١٩

جلست ازاء المشربيات المشرفة على الشارع بجوار نينه وهي مطرقة صامتة تنظر الى بعينين تغمرها شفقة الامومة الممزوجة بمسحة من الحزن المحتبس الساكن.

مسكينه نينه! يحزنها أن تراني غير متزوجة في العشرين بينما ترى بنات معارفها يتزوجن في الثالثة أو الرابعة عشر وتود أن تراني متزوجة سعيدة ولكن هل السعادة في الزواج؟ هل هي سعيدة في حياتها الزوجية وهي تكاد تحتضر غيرة من ضرتها؟ هل صديقتي احسان هانم سعيدة مع زوجها محمد بك... ليتني استطيع افهامها بانني راضية عن حالتي الحاضرة ولا ارغب في تغييرها.

١٠ مارس

زارتنا اليوم امرأتان لم تسبق لنا معرفة بهما. احداهما نَصَف قصيرة ممنطقة بمئزر ثمين ومقنعة بنقاب شفاف ينم عن وجه رزين مهيب بدأت تخطه تجعدات الشيخوخة والاخرى «بنت بلد» سافرة ملفوفة بملاية بالية قاتمة. فلم أكاد أراهما داخلتين حتى فهمت القصد من زيارتهما ولم انتظر

اشارة نينه بل ذهبت تواً الى غرفتي لارتدي أفخر ثيابي المنزلية وانظم شعرى وأطلي وجهي الشمعي الذابل بمسحة من المسحوق الابيض والاحمر لاروق في عين الزائرتين وما بدأت أفعل حتى دخلت نينه مبتسمة مسرورة قائلة «البسي يا حكمت... أم حسن بك جت تشوفك».

فتكلفت عدم المبالاة وقلت بلهجة جافة يتخللها الكبرياء «ومين ده الاخرى كمان» غير أنها لم تسمع عبارتي اذ خرجت مسرعة حتى لا تتركهما وحدهما وشعرت وانا انظم شعري بحرارة ملتهبة تسري في عروقي لم اعهدها في نفسي جعلتني افتكر رغمًا عنى عما سببها:

— هل يسرني الزواج وكنت أجهل امبال قلبى! ام خفت بدافع الغريزة النسائية ان لا اظهر لهما جميلة بقدر ما أريد.

حاولت تصوير المشاعر الدقيقة التي خالجتني ولكني عجزت لعدم تعودي التعمق في التفكير وتساءلت مرارًا لماذا اود ان أظهر لهما جميلة ا ليقولا عني «حلوة زي البدر» او ليسمعاني كلمات الاطناب الموهة السخيفة الصبيانية. لا هذا ولا ذاك ولكني كنت خاضعة على ما أظن لسلطان عامل الفضول الذي يدفع الفتاة الى حب الوقوف على العالم المجهول.

وما كدت ادخل على الزائرتين حتى قابلتاني ببشاشة ولطف لا سيما بنت البلد فكانت تكثر من كلمات التمليق المنمقة الكاذبة وساد السكون عقب مجيئي اخذت في خلالها المرأة النَصَف تنظر الي باهتمام وفراسة وخيل الي ان انظارها الحادة العميقة قد جردتني دفعة. فخجلت من نفسي واطرقت الى الارض ولحظت الخاطبة حالنا ولتؤثر في حكم ام العريس اسرعت فقالت لى «تعالي يختي أشوف مناخيرك اللى زي النبقة وحنكك الشهد» ثم التفتت اليها وقالت بصوت طبيعي كأنها تقرر حقيقة ملموسة «مين اللي يشوف حكمت هانم ويقول انها كانت السنة اللى فاتت

تلعب ويا البنات في الحارة... ده زغار خالص يا ست أم حسن».
فأجابتها السيدة برقة «ما هو باين عليها يختى» ولا شك انها لم تقل ذلك الا من باب المجاملة لأني قرأت على ملامحها عدم التصديق.

وكانت الخاطبة تنظر نظرة خفية الى نينه بعد كل عبارة من عبارات بلفها الساذج الثقيل كأنها تريد ان تقول لها ارأيت مقدار الخدمة التي اسديها اليك فلا تنسى ان تكافئني عليها عند الحساب ونينه تجيبها اجابة صامتة يائسة باطراق رأسها الى الارض.

واخذت اراقب السيدة فوجدتها ما زالت تتفرس في كل قطعة من تكاويني وشعرت في هذه المرة أيضًا بأن انظارها الحادة تكاد تتغلغل في جسمي فاضطربت وزاد اضطرابي عند ما سمعتها تقول.

— والنبي اسقيني كوبايه مايه يا بنتي.

ولم يكن بها ظماء ولكنها تبغي معرفة كيفيه سيري ونقل قدمى فقمت وحاولت ان أمشي برزانة ولطف لاظهر لها جمال تقاطيعي وانسجام خطواتي ولكن اخذني الاضطراب لعلمي ان انظارها الحادة تتبعني فتعثرت في سيري ثم خيل اليَّ انى توقفت فجأة عن السير وما كدت آتيها الشراب حتى اعتذرت بحجه اني موجعة الرأس ولزمت غرفتي وأنا أضحك فتغيظت من نفسي وسمعت السيدة بعد برهة تقبل نينه وتقول لها بتكلف «تبقي تشرفينا يا هانم» ونينه تجيبها «نتشرف ما نستغناش».

ما معنى هذه المجاملات الباردة... الم ارق في نظرها؟ ام وجدتني كبيرة على ابنها؟

١٥ مارس صباحًا

انتابني اليوم الضجر وكثيرًا ما تداهمني نوباته فلا اعرف لها مسكنا سوى الصعود الى سطح المنزل حيث اسرح الطرف في ذاك الفضاء المترامي

مستنشقة النسمات الرطبة المنعشة ولكن قلما يفيدني هذا الدواء فاعمد الى المطالعة غير اني لا اتلو عدة صفحات حتى يتبين لي انيلم افهم شيئًا مما قرأته فاترك الكتاب يائسة ملبدة الذهن موجعة الرأس واظل فريسة ذاك الداء الخبيث الذي يتسرب بسرعة الى قلبي ويغمر صدري بالسويداء القاتمة القتالة.

اذكر اني اسررت يوما الى خالتي فطومة بما يخالجني من الضجر وينتابني من الصداع ولا أزال اذكر قولها الموسوم بالشفقة الغبية.

— يا ستي ما تعملي زار وترضي الاسياد.

١٥ مارس مساء

لم يفارقني الملل وقد بدأت أشعر رغما عني ان حياتي أصبحت كئيبة سقيمة جوفاء وبدأت أتمنى تغييرها. ولقد تمر بالفتاة مثل هذه الظروف النفسية فتجعلها تتطلع بشغف الى تغيير نظام حياتها والانتقال الى حياة أخرى تبدو لها مزدانة بالالوان الارجوانية المتماوجة الخلابة... واظن ان ذلك ما يزيدنا رغبة في الزواج افكر في الزواج فيتجلى لي ما جره من الشقاء على صديقاتي وبنات جنسي فتساورني الاراء المتضاربة المتناقضة وينتابني ذاك الشعور الغامض الذي يحس به الانسان عند ما ينتقل من حال اعتادها الى حالة جديدة لم يألفها ولكن بدل أن تسري في نفسي هزة الخوف والوجل من المستقبل أشعر بلذة مثملة تجتاح كل جسمي فكرت كثيرا في ذلك وخيل الى أن أسبابها ترجع الى تفاؤل المرأة الشرقية. فان عقائدنا الدينية وأخلاقنا الموروثة قضت على روح اليأس والتشاؤم المتمشية في نفوس الغربيين وجعلتنا نؤمل بالغد مستسلمين بعذوبة الى العناية الالهية. فكم امرأة شرقية تغمغم مبتسمة وهي في أشد حالات الشقاء.

ربنا كريم ... بكره تتعدل... الصبر طيب...

اليست هذه كلمات تدل على تفاؤل جميل يمنحها العزاء وقوة الامل والثقة بالمستقبل؟

٢٥ مارس

جلست وأم محمد الدادة جاثمة تحت قدمي ملازمة الصمت وهي امرأة ثرثارة تستدعيها نينه ساعات الملل والضجر فتقص عليها قصة عنترة أو أبي زيد الهلالي أو نوادر جحا اطالع رواية زينب تأليف الدكتور محمد بك هيكل واني لغارقة في تتبع احساسات تلك الفتاة القروية المصرية التي تجللها مسحة شعرية عربية يندر وجودها في فتياتنا الاميات واذ بفطومة تقود صديقتي مارى نعوم.

ماري نعوم فتاة سورية كانت رفيقتي في مدرسة الراهبات وحافظت على صداقتنا القديمة وتعرف أن زيارتها لي تسري عنى كآبتى. فتكلمنا فى موضوعات شتى وساقنا الحديث الى الكلام من حرية المرأة.

فاخذت اندد بهذه الحرية التى افسدت اخلاق كثيرات من الفتيات الاجنبيات وأكبرت تقاليدنا الشرقية التى حافظت على طهارة اخلاقنا وهي تدافع عن تقاليدهم بحرارة وغيرة مفندة أقوالى زاعمة ان حاسة الحب في الفتاة السافرة المحررة من ربقة التقاليد القديمة ضعيفة جدًا وانها بعكس ذلك قوية حادة في الفتاة المحجبة وقالت تأييدًا لزعمها أن الحجاب في حرمانه المرأة الشرقية من معاشرة الرجل والوقوف على اسرار المجتمع الانساني الموبوء يحافظ على سذاجتها ويقوى فيها ملكة الخيال ولا شيء يولد الحب ويقويه كالخيال. فهي تنظر الى هذا العالم الغامض المجهول نظرة بريئة متفائلة تنظر له بمناظر الخيال لا بعين الحقيقة المجردة وهذا ما يسهل على الشبان خداعها فاذا تظاهر لها شاب بالحب واسر في أذنيها كلمات عذبة رقيقة تصدقه لانها ساذجة النفس طاهرة القلب.

وزادت على ذلك قولها: ان الفتاة العصرية المطلق لها حرية الاختلاط هي التي تخدع الشاب قبل ان تتركه يخدعها لأنها تكون مالكة زمام عواطفها تقودها وتسيرها كما تشاء ولا تخضع قط لسلطان تلك العواطف العمياء.

اخذت افكر وأنا اخط هذه الاسطر في أقوال صديقتي الشاذة وأحاول تكذيبها وتخطئتها. نعم انها مخطئة وقد أفسدت الحرية الموهة مخيلتها كما سممت عواطفها فهل يمكن ان ترمي تقاليدنا الشريفة القديمة بمثل تلك التهمة الباطلة الشنعاء؟

٢٨ مارس

نينه اليوم مسرورة لزيارة والدي لنا. اه! لماذا لا يطاوعني القلم فاكتب كلمة بابا مكان والدي؟ لماذا لا استطيع ان أدعوه بهذه الكلمة المحبوبة كمناداتي والدتي بيا نينه؟ لماذا لا أكلمه بلا تكلف واسر اليه ما يجول في صدري كما افعل عادة مع نينه... لماذا؟ لماذا؟

السبب اني لا أحبه لانه اناني يثير في نينه المسكينة آلامًا قتالة فكان آخرها زواجه من فتاة اصغر مني سنًا ثم هو لا يحبني ولم يتعهدني قط بشيء من العطف الابوي ولم يمنحني قبلة واحدة. انه لا يعبأ بي وأهمل وجودي الى درجة تؤلم احساسي وكرامة نفسي.

واليوم بعد غياب أسبوع عن المنزل حياني بفتور «ازيك يا حكمت» ودخل حجرته حتى دون ان ينتظر اجابتي. فسكنت الى حجرتي لاخفي شدة تأثري.

٣٠ مارس

جاءت زكية الخاطبة فاختلت بنينه.

أردت بعد برهة دخول الحجرة لاقف على نتيجة زيارتها فسمعت نينه تبكي والدادة تحاول تعزيتها بقولها:

— ياختي بتعيطي ليه. . . خلى العسل في زياره لما تجيله أسعاره. . .
دي حكمت صلاة النبي عليها تقول للبدر غيب واقعد مكانك.
فادركت اني لم أرق في عين ام العريس.

أول ابريل

وقع شجار هائل بين المعلم مسيحه والشيخ عبد ربه فقد انفجرت مرة اخرى بشكل مريع تلك العداوة القديمة عداوة الحرفة والمنافسة المستحكمة بين هذين البائعين واشترك في الشجار أفراد عائلة كل منهما حتى سالت الدماء وانجلت المعركة عن اصابة الشيخ عبد ربه بجرح بليغ في رأسه من حجر رمي به وبكسر درسين من فك المعلم مسيحه من اثر ضربة «روسية».

وكان قد خاف العقلاء من تجار الحي والجيران نتيجة عداوة هذين الرجلين المتباينين الاديان لئلا ينسب اعداؤنا عداوتهما الى التعصب الديني فتداخلوا بينهما مرارًا لحسم النزاع وحملهما على المصافحة الا ان كل مرة كانوا يصطدمون بقوة عنادهم الغبى وما وضعاه شرطًا لصلحهما.

فقد كان احدهما المسلم يطلب مصرًا نقل المعلم مسيحه حانوته الى حي آخر بحجة انه يأخذ منه عملاءه ويذيع عنه اشاعات مضرة بسمعته ورواج بضاعته وكان التاجر القبطي يطلب عين الطلب لاقدميته وكلاهما يرى في قبول هذا الشرط ثلمًا لكرامته.

وادى شجارهما في هذه المرة ايضًا الى تداخل البوليس ففتح لهما محضرا.

٧ ابريل

اصبحنا اليوم واذ بحركة غير عادية في الشوارع. شاهدت اناسا مختلفي السحن والازياء يسيرون زرافات وجماعات وتدل سيماؤهم على الفرح

والسرور يحملون من الاعلام المصرية مختلف الحجم وكنت اسمع اصوات بعيدة صادرة بلا شك من جوف المدينة وعبثا حاولت معرفة ما يهتفون به واذا بجماعة من الطلبة اخذوا في حيّنا يسيرون صفوفا منتظمة متراصة متتابعة يسير في مقدمتهم واحد منهم يحمل علما مصريا كبيرا رسم عليه الصليب يعانق الهلال وكتب تحت هذا الرمز الوطني «يحى الاستقلال التام» وكانوا يهتفون بكل قواهم «يحى سعد باشا زغلول يحى الوفد المصري».

ومما اثار قشعريرة في جسمي تمشت في جميع اعضائي حتى اسالت عبراتي نداءهم بحرارة وايمان واخلاص نداء الشهداء عند ما تفيض أرواحهم الطاهرة الى بارئها «نموت فداك يا مصر».

ماذا جد ياترى؟ أألغيت تلك الحماية التي يقولون ان اعلانها كان ضرورة حربية؟ ام اطلق سراح رجال الوفد المعتقلين فصرح لهم بالسفر الى مؤتمر الصلح؟ ولكن اتطلق انجلترا سبيلهم وتعدل عن سياستها التقليدية من خنق الشعور الوطني واخماد النار المتأججة في الصدور وهي التي لا تعبأ الا بالقوة؟

ظل الهتاف يتعالى والجموع في الشوارع تتزايد متفجرة من كل فج وصوب فاثيرت في نفسي رغبة شديدة للاشتراك في مظاهرة الامة. فطلبت من نينه السماح لي بالخروج تلبية لداعي الوطنية السارية في جميع أعصابي وعروقي الا أنها أبت بشدة خوفاً عليّ من الازدحام وخطورة المظاهرات واني لاحاول اخذها بالدعة والكياسة واقناعها بانه لا يصبني شيء مما تتوهم واذ بالباب يقرع قرعا حادًا قويًا متتابعا أجفلها وبعد قليل دخلت علينا صويحباتي حورية وسعاد ومحبات والاولى ابنة وزير مشايع للانجليز استبقاء لمركزه والثانية ابنة أحد الاعيان اما الثالثة محبات وسنها لا يتجاوز الرابعة عشر فهي ابنة ضابط وطني كبير كان يود ان ما اراقه من دمائه في مجاهل السودان لاخضاع بعض قبائلها الثائرة يعود بفائدة

على وطنه المهضوم الحقوق وكانت ترتدي مئزرًا من الاعلام المصرية الجميلة الخلابة وعلى صدرها نفس الرمز الوطني: «صليب يعانق هلالا» جئنا نبشرك يا حكمت فقد نلنا اعظم انتصار على الحكومة الانجليزية اذ اننا ارغمناها لاول مرة على اجابة مطالبنا.

فسألتهن هل نلنا الاستقلال فاسرعت سعاد الى اجابتى وعلى سيمائها ابتسامة حلوة مسكرة لا انساها ابدًا «اننا سنعتبر انفسنا مستقلين لا تربطنا بانجلترا علاقة ما» وتتداخلت هنا محبات الصغيرة مدفوعة بحرارة دماء ابيها الحربية الجارية في عروقها وقالت بهزة حماس ونبرة مرسحيّة فلتكن مصر ارلندا ثانية ولتفعل بنا انجلترا ما تشاء فنحن مستعدون ان نذهب جميعًا شهداء الحرية.

قالت ذلك ودفعت صدرها الاخذ في التكون والنضوج الى الامام كأنها تعرضه لرصاص الاعداء. آه! ما أجملك يا محبات في هذا الوقت. فماذا كنت فاعلة لو ان روحك الكبيرة الطاهرة فى رجل.

وهنا قاطعتنا زغاريد فطومة وام محمد وكانتا تتسمعان ما نقوله واخذت فطومة ترقص رقصة قروية مدفوعة بهزة الوطنية وتتغنى هاتفة بأناشيد مبهمة صعيدية لم نتمكن ان نفهم منها غير عبارة «استجللنا يا بنات» وكانت تتردد كثيرًا في مقطوعاتها.

أثار رقصها ونشيدها ضحكنا وسكن من تهيج صويحباتي الا ان حورية كانت ترمقها بنظرة عميقة ذكية محاولة الوقوف على قرارة نفسها الغامضة متسائلة عما اذا كانت هذه المرأة الامية الجاهلة تدرك معنى الجملة التى لم تحسن حتى النطق بها او أنه التأثر العصبي قد سرى منهن اليها بحكم العدوى ثم ما لبثت أن سألتها برقتها المعتادة «يعني ايه استجللنا يا خالتي فطومة» فاجابتها الاسيوطية بداهة وقد فهمت قصدها. «واه! يعني زعطنا الانجليز من مصر».

فابتسمت حورية تلقاء ذلك وقد تجلى الايمان الوطنى في وجهها الاسمر المشرب باللون الوردي الجميل.

حقيقة ان الوطنية متى تسربت الى العامة واستقرت في نفوس الطبقة الامية المنحطة الجاهلة لهي وطنية سامية خالدة لا تموت ولا تقهر.

ونينه خلال هذه المدة كانت تغلق الابواب والنوافذ فلاحظتها محبات الصغيرة وأدركت ما يجول في خاطرها فقالت: ما تخافيش يا نينه الوزارة المصرية متضامنة مع الشعب المصري في طلب الاستقلال التام فلم يعد الوزراء المصريون يشايعون الانجليز.

ما كادت تقول القطعة الاخيرة من عبارتها حتى ندمت اذ رأت حورية قد اصفر وجهها ونكست برأسها قليلا الى الارض بعد ان القت عليها نظرة عميقة نظرة الم وعتاب. فان هذه الفتاة الوطنية المسكينة ما زالت تتألم سرا من ابيها ايام تمسكه بوظيفته مدعيا تأيدا لخطته او ليوجد عذرا امام ضميره يبرر به عمله انه انما يضحي راحته وكرامته ويقبل تحمل اعباء المسؤولية في الظروف الحرجة المملوءة بالمحن حبا بالمصلحة العامة وخوفا من ان تقضي انجلترا على البقية الباقية من قوميتنا.

فتأثرت سعاد واخذتها الشفقة على حورية واسرعت تقول متداركة خطأ محبات ان وزراءنا مصريون قبل كل شيء ولكنهم خدعوا فقط بحسن نية انجلترا ورجعوا الآن جميعا الى حظيرة الأمة.

فشكرتها عندئذ حوريه بنظرة.

* * *

طلب الى صويحباتى ان ارافقهن وكانت تنتظرهن العربة على الباب مزدانة بالاعلام الجميلة ونينه التى كانت تعارضني في النزول رأيتها تدفعنى الى ذلك.

وما كدنا نصل الى الشارع حتى استرعى نظرنا منظر موثر للغاية. فقد رأينا الشيخ عبد ربه يعانق المعلم مسيحه قائلا بنشوة فرح اختلجت لها عضلاته نحن اخوة يا معلم مسيحه لا يحق لنا ان نتشاجر ورأينا القبطي يقبله ويضمه الى صدره كأنه يعانق أخًا له لم يره منذ سنين عديدة.

واجتمع حولهما جمع غفير يصفق لهذه العواطف الوطنية المنجلية بابهى مظاهرها والمثيرة في النفس نشوة طرب واعجاب وكان القوم يهتفون بكل ما فيهم من قوة: يحى الاتحاد.

التفت عندئذ الى رفيقاتي فوجدت الدمع يترقرق فى أعينهن الطاهرة.

ركبنا العربة فاخذت تجتاز بنا الشوارع الوطنية ووقفت بنا زهاء ساعة كاملة في ميدان عابدين لتعذر المسير وكان الميدان على سعته محتشدًا بطلبة الازهر وطلبة المدارس العليا والثانوية يحيط بهم أبناء الشعب قاصدين بيت زغلول والباسل للهتاف لهما.

وشاهدنا الاجانب يحيون هذه المظاهرات البريئة السلمية برفع قبعاتهم والسيدات من وطنيات وأجنبيات يصفقن ويلوحن بمناديلهن من شرفات المنازل ويلقين الزهور والورد على المتظاهرين وكنا كلما مررنا بنساء وطنيات «بنات بلد» يستقبلننا بزغاريدهن أو بلفيف من الشبان يحيوننا بهتافهم «تحى السيدات المصريات» «تحى امهات المستقبل» ورفيقاتي يجبنهم «تحى الشبيبة المصرية. نعيش أحرارًا أو نموت كراماً» اما انا فبادئ لم اكن أستطيع مجاراتهن في الهتاف لشدة خجلي ولكن سرعان ما تلاشى هذا الخجل ودب الحماس في عروقي.

والامر المدهش ان هذا الخروج عن تقاليدنا لم يقابل بالاشمئزاز والاستهجان من جماعة المحافظين المعممين بل كثيرًا ما كانوا يشجعوننا بالتصفيق والابتسام واحيانا كثيرة بالهتاف. ان ثورتنا هذه ستؤثر

بلا شك تأثيرًا قويًا في تقاليدنا وتؤدي بنا الى التطور السريع في نظام الاجتماعية.

وكنا نشاهد عربات النقل تحمل نساء وطنيات من الطبقة المنحطة ينشدن اغاني وطنية جديدة ويرقصن الرقص البلدي على الدفوف وامتلأت الشوارع بالقروين الوافدين بلا شك من الضواحي او القرى المجاورة للقاهرة يتقدمهم طبول وزمور وجمال مزينة كما تزان عادة في مظاهر الأفراح اما قطرات الترام فكانت تكللها فروع من الاشجار وسعف النخيل مكتظة بالطلبة واضطر بعضهم لأن يعلو سطحها مجازفا وهم يهتفون للاستقلال والاجانب ومما ملأ النفس ثقة وايمانا ان فصيلة من الجيش المصرى تمكنت من الخروج من ثكنات العباسية للاشتراك في المظاهرة فهتفنا لها مع الجميع «يحى الجيش المصري» فاجابتنا بشجاعة المصريين المعهودة «تحى الامة المصرية... مصر للمصريين».

اما جنود الاحتلال فكانوا يسيرون مجردين من السلاح وشغفت بقراءة ما يجول بافكارهم ومشاعرهم فاخذت اتفرس في وجوههم فرأيت البعض واظنهم من الاحرار الكارهين سياسة دولتهم الاستعمارية يقابلون انفجار وطنيتنا بعين الرضاء والتسامح وآخرون استفزتهم مظاهراتنا البريئة السلمية فاخذوا يبسمون لنا ابتسامة السخرية والاحتقار وعينهم مفعمة بالحقد والغدر واقترب أحدهم من عربتنا في ميدان باب الحديد ونظر بوقاحة الى مئزر محبات المجلل بالعلم الوطني وقال ساخرًا بعربية مكسرة «يحي وطن... يحي وطن»... فثار غضب محبات ابنة الجندي المحارب وغلى في عروقها الدم العسكرى فهمت ان تصفعه على وجهه تأديبا له لو لا تداخلنا وايعازنا الى الحوذي بمتابعة السير.

* * *

ختمت مظاهرات اليوم بماساة محزنة مؤلمة دبرتها يد خفية هالها ما رأته من مظاهر اتحادنا وقوة وطنيتنا الحية الخالدة فأوعزت الى بعض الجنود الانجليزية باطلاق الرصاص على المتظاهرين لحملهم على الخروج على النظام والقانون فيتاح لهم حينئذ مصادرة المظاهرات المذكية للوطنية بحجة حفظ الامن العام. فاستعد بعض الجنود لذلك ودخلوا حديقة الازبكية واوصدوا ابوابها واخذوا يطلقون الرصاص من وراء السور فاصيب ثلاثة من الجنود المصرية وهاج الجمهور وماج وكادت تتحول مظاهرتنا البريئة السلمية الى ثورة دموية هائلة لولا تداخل بعض العقلاء من كبار المصريين.

وكنا وقتئذ بجوار شبرد وشبرد وشارع كامل مكتظ بمئات من السيارات والعربات والرصاص يمر فوق الرؤوس وبدل أن تخيفنا هذه القوة الغشومة وتشتت شملنا الهبت نفوسنا فابينا الرجوع واصررنا على المرور أمام الحديقة وكانت فصائل من الفرسان الانجليز أسرعوا بالمجيء ومنعوا المرور من هذه الجهة ليقطعوا أوصال المظاهرة وكانوا يضربون بالرصاص كل من يتجاسر على مخالفة اوامرهم ولقد كنا أول من أعرض عن هذا الامر. فاوعزنا الى الحوذي أن يمر دون أن يبالي بهم وما كاد يتقدم عدة أمتار بالعربة حتى صاح به ضابط انجليزي بالوقوف فلم يفعل فلم نسمع بعد قليل الا والرصاص يصفر في الهواء مارًا بقرب اذاننا فالتفتنا اليهم حينئذ وهتفنا بكل ما فينا من قوة... فليسقط الظلم ولتحى مصر حرة مستقلة...

٨ ابريل

عرفت اليوم لماذا أطلقت انجلترا سبيل رجال الوفد الاربعة المعتقلين فانها ارغمت على ذلك بسبب هياج الامة اذ أن سياسة الشدة التي تستعملها عادة لخنق الشعور الوطني واخماد كل حركة ثورية ترمي الى الاستقلال أدت هذه المرة الى انفجار قوي هائل هدم دفعة ما علق في

اذهان بعض أهل الغرب من أن الشرق نائم الف حياة الذل والاستعباد.

فان مصر الساكنة المستسلمة بحكم طبيعة بلادها ذات السهول المنبسطة الخالية من الجبال والمفاوِز التي تحمى من بطش الدولة الحاكمة كل من يلتجيء اليها من الثوار مصر الوديعة هبت دفعة واحدة مطالبة باستقلال بلادها والغاء الحماية الباطلة.

ان تساهل انجلترا بعد الشدة جعلني اعتقد رغما عنى ان الاستقلال يؤخذ أخذًا لا يمنح منحًا وان امة تطالب بحريتها يجب أن تضحي دماء أبنائها الزكية في الحصول على تلك الحرية.

اه: يا الهي! نحن امة وديعة محبة للسلم والسكون أمة نظام وعمل ولكنها وطدت العزيمة ووطنت النفس على استرداد حريتها وحقوقها واستقلالها مهما كلفها ذلك من الضحايا. فلا ترغمنا يا الهي على مقاومة الشدة بالشدة ومقابلة الشر بالشر.

٩ ابريل

انى أشعر بوطنية ملتهبة في عروقي تدفعني الى عمل مجيد أريق له دمائي ولكن ما هو ذاك العمل الذى يعود بفائدة على الوطن.

١١ ابريل

لا أدري لماذا مر اليوم بفكري كتاب كنت قرأته منذ زمن عن النهيلست. فقد فكرت في الادوار التي قامت بها المرأة الروسية للحصول على حرية وطنها وما تحملته في سبيلها من آلام النفي والسجن والمرض والبرد والجوع فثارت في نفسي عواطف الشفقة والحنان وأعقبتها عوامل الاعجاب وحب التضحية.

١٢ ابريل

ان رغبتي في التضحية تزداد يومًا عن يوم كما ان ميلى الى التفاني في خدمة! وطني ينمو ويتعزز ففكرت ان اكوّن حزبًا نسائيًا متطرفًا وأضم اليه مثيلات حورية وسعاد ومحبات وغيرهن ليكون ذا قوة هائلة في وجه من تحدثه نفسه من ذوي الأغراض السافلة والمطامع الدنيئة على خيانة الوطن فان الخطة التى يجب أن نترسمها في كفاحنا ضد انجلترا المقاطعة والتخلي عن مقاليد الامور. . . كل مصري يخالف ذلك والحماية لم ترفع ويعترف لنا رسميًا باستقلالنا يرتكب أفظع الجرائم لا يبررها حسن نيته. ولقد خدعنا مرة بحسن نية انجلترا وشريف مقاصدها فلا يجب أن نخدع اخرى. والمؤمن لا يلدغ من حجر مرتين —

١٣ ابريل

صادفت فكرتي هوى شديدًا في نفوس صديقاتي واخذنا في درس المشروع من كل جهة واعداد ما يلزم له من المال والمهمات.

١٤ ابريل

أن حياتي لم تعد كئيبة جوفاء اذ عرفت كيف استخدمها وبطريقة تنمى مواهبي والسعادة كما قال أحد الفلاسفة تنحصر في عمل الواجب واغناء المواهب واستثمارها.

١٥ ابريل

جاءت زكية الخاطبة فاختلت بنينه وبعد برهة جاءت نينه وعلى سيمائها امارات الفرح الا أني لاحظت أنها تخفي بعض الاضطراب والالم.

— جالك عريس يا حكمت. . . بس كبير شويه عنك. . . يطلع ابن خسين. . . لكنه غني وموظف كبير في الحكومة. . . فكرك ايه؟

قالت ذلك وامسكت لترى تأثيروقع كلامها على نفسي الا أني لم احرك ساكنًا ولبثت شاخصة فيها جامدة وأنا اليوم بعيدة الفكر عن الزواج لانه يعرقل مشروعنا الوطنى وقد تدفع زوجى حقوقه الموهومة الى التداخل في أعمالي وهذا ما تأباه علي وطنيتي الا اني لا أدري كيف اجبت والدتي «ألامر امرك يا نينه» هل كان ذلك شفقة مني عليها او رغبة في ابقاء سعادتها لها وهي التي تتألم من بقائي بلا زواج للآن.

ولم اكد أجيبها بذلك حتى أقبلت على تعانقني وتضمني الى صدرها.

آه يا نينه! اني لن أطعن قلبك الرقيق الحساس طعنة تؤلمه وتدميه.

فاذا كان يسرك زواج ابنتك هذا السرور سأتزوج ارضاء ذلك.

١٦ ابريل

لم استطع النوم ليلة أمس. انتابتني افكار متناقضة متضاربة. أتألم لزواجي من شيخ بحاجة الى ممرضة اكثر منه الى زوجة وقد منيت النفس ان أتزوج من شاب يحبنى واحبه وأخذت أسكن المي بتعليلي: «وماذا يهم سواء ا كان زوجي شابًا او شيخًا ما دام قلبي خاليا من الحب وللشيخ مزايا لا تنكر فعواطفه تكون هادئة عميقة واخلاقه كريمة وسيرته مستقيمة لا يثير في الأسرة تلك العواصف التي يثيرها عادة الشاب بنزقه وسوء سلوكه وبما انه يكون قد اقتنع بالحياة فلا تحدثه نفسه على الطلاق فاعيش انا واطفالى عيشة رضية واثقة بالغد وترفرف علينا السعادة.

ولكن رغم هذا التفكير فان ألمي لم يسكن ولم أشعر الا والدمع ينساب على وجنتي وأخذت الزفرات تتصاعد رغما عني حتى كادت تقلع روحي كل ذلك ونينه في الغرفة المجاورة لاهية فرحة تعد مع أم محمد معدات الفرح.

١٧ ابريل

قام في نفسي تنازع جديد. فان هذا الزواج يخيفني ويهز في جسمي قشعريرة باردة مثلجه كتلك التي تعتري من ينظر من رأس قمة عالية سحيقة وكلما تصح عزمتي على رفض الزواج تترآى لي نينه المسكينة وهي تضمني الى صدرها فرحة مسرورة وأشاهد ابتسامتها الحلوة قد تحولت الى كآبه قاتمة حزينة وجال الدمع في عينيها الجميلتين.

اه! يا نينه! لا أستطيع ان أزيد شقاءك. فسأجلب شيئًا من السعادة لك انت التي جهلتها طول حياتك.

محمد تيمور

١٨٩٢—١٩٢١

عزيز عيد

اذا سألت الطفل في كُتّابه أو اليافع في مدرسته أو الطالب في معهد علمه أو الرجل في بيته بين زوجه وأولاده أو الشيخ الذي لحقه الكبر وأرعشه الهرم من هو أكثر الممثلين كفاءة وأتعسهم حظا لقالوا لك جميعًا: عزيز عيد. فهو الرجل الذى حيّاه الفن بأسراره واختصه اللّه بتلك المواهب الطبيعية ولكن الدهر رماه بسهامه القاتلة وأحاطه بالبؤس من كل جانب فمشى في طريقه مشية المفجوع يبحث عن الخطة التي تدنيه من غايته فلا يستجلي غير الصواعق ولا يسمع غير دوى الألم يدب في قلبه مقطعًا نياطه ممزقًا البقية الباقية فيه من أمل ورجاء. فاذا رأيته بعد ذلك وقد انحل من عقدته وانتبه من رقدته وقام لتأليف جوق جديد غير عابئ في سبيله بما حملته الأيام تراه مشرق الجبين ضاحك الوجه يبتسم ويقفز ويصرخ ثم يمثل فلا يعيش جوقه غير أشهر معدودة ويرجع عزيز لألمه القديم فيسير في طريقه مطأطئ الرأس ناعس الأجفان ترتسم على وجهه الشاحب صورة اليأس والتعاسة. فحياة عزيز عيد حياة مضطربة عجيبة مملوءة بحوادث التمثيل وغرائبه. ولم يعرف عزيز في حياته عيشًا أبلج الوجه فان لاح له فجر الأمل لا يلبث أن يتطرق الى قلبه اليأس على أن الرجل ليس له مطمع للثروة والغنى ويكفيه من العيش شيء زهيد وكل ذلك حبًا في الفن وتحقيقا لأمله الكبير الذي يخشى أن يموت عزيز قبل تحقيقه

يريد عزيز أن لا يساير أهواء رجال الفن في مصر مختطا لنفسه شرعة أخرى يصل بها لما يرمي اليه من يوم احترافه للتمثيل فلمّن استهدف للممكن وجا غيره فما مثله إلا كالدوحة الشماء تلاقى غضب العاصفة لشموخها ويسلم الحشيش الذي يميل اينما اتجهت الريح الهوجاء. وعزيز لم يصادف بعد في طريقه رجلا يميل لرأيه ويمشي على أثره وان صادفه يومًا كان ذلك الرجل خالى الوفاض فارغ الجيب لا يمد عزيز بغير البضاعة الفنية والاخلاص في القول والعمل وعزيز يحتاج لشيء آخر. للمال الذي بغيره لا تنفع قدرته الفنية ولا يتحقق أمله الكبير

(نشأته. أمله الكبير. عيوبه. مميزاته)

لا نعرف عن نشأة عزيز شيئًا كبيرًا وسيان عندنا ان كانت ولادته في ربوع الشام أو في أرض النيل ويكفينا أن مآثره الفنيه لم تظهر في غير بلادنا ففيها فاتحة أمره ونأمل أن تكون فيها خاتمة عمره فاذا أردنا أن نكتب أبتدأنا بأول سطر من حياته التمثيلية بيد انه قيل لنا انه كان موظفًا في مصرف من مصارف القاهرة. وقيل أنه كان يمثل في جمعيات ألّفها بعض الغواة في مصر وقيل وقيل ولكن الأهم من كل ذلك أنه احترف التمثيل من يوم أن دعاه اسكندر افندي فرح لتأليف جوقه الذي ظهر به بعد انفصال الشيخ عنه ومن ذلك اليوم تثبتت أقدام عزيز عيد على المسرح وأصبح بقاؤه موصول ببقائه ونفسه متعلقة بأخشابه وستائره. وظل عزيز عيد من ذلك العهد يتقلب على الجمر ويتقلق على جنب الضجر يبحث عن غايته التي كانت تجول في رأسه فتضيق حيلته وتضيع وسيلته فما هو هذا الأمل الكبير الذي يثور في قلب عزيز والذي يصعب عليه تحقيقه والذي لا يقوم به غير اللين من غير ضعف القوى من غير عنف. وما هي مميزات عزيز وما هي عيوبه التي تنتحر من أجلها آماله وتذهب أدراج الرياح؟

*

(أمله الكبير)

عزيز عيد يحب التمثيل كما يحبه أبيض ورشدى ويغار عليه كما يغاران عليه ولكنه ينظر اليه من وجهة أخرى فالتمثيل في نظر الجميع كالروضة التي تترنح معاطفها وتتناغى أطيارها ولكن عزيز يرى أشجار تلك الروضة وأزهارها وطيورها كلها غريبة عن أعين المصريين ولهذا يود ممثلنا الكبير أن يقوم بيده وفأسه يقطف هذه الأزهار ويقلع هذه الأشجار ويشتت شمل هذه الأطيار ثم يزرع عوضًا عنها أشجارًا لا تنبت إلا في تربة مصر ولا تزدهر بغير زهور مصر ولا يسكنها غير البلبل والكيروان وعصفور الجنة والقمرى والحمام واليمام. فرشدى وأبيض يمثلان الأنواع العديدة من الروايات وسيان عندهم ان كان جو رواياتهم بلاد الهند والسند أو اليابان والصين أو فرنسا وانكلترا. أو كانت موضوعاتها عامة توافق ذوق المصري والأجنبي أو خصيصة بذوق المصري. ولكن عزيز يرى أن الروايات المصرية المصبوغة بصبغة البلاد والتي تدور حوادثها في مصر والتي يحلل فيها المؤلف النفوس المصرية مفقودة معدومة لا أثر لها في بلادنا ولهذا يود ممثلنا الكبير من صميم قلبه أن يكون أول القائمين بهذه النهضة فان انفرد بجوق يرأسه ابتدأ بتمثيل الڤودڤيل ليمتلك به قلب جمهوره ثم يسير به في طريق الكوميدي المصرية وان انضم لجوق من الاجواق الكبيرة اشترط على رئيسه أن يسمح له بتمثيل الروايات التي تروق في عينه ليتسنى له أن يمثل الڤودڤيل ثم الكوميدى المصرية. وكم مرة جلست معه نتجاذب أطراف الحديث فكان يقول لي وهو يبتسم (لقد عاكستني الظروف فلم انجح ولكني سأعيد الكرة وأبدأ بالڤودڤيل الافرنسى حتى اذا شعرت بميل الجمهور اليه قدمت له رواية من نوع الڤودڤيل المصري ثم رواية بين الڤودڤيل والكوميدى فاذا

استحسن الجمهور عملي أخرجت له الكوميدى المصرية وبهذا أكون قد وصلت لتحقيق ذلك الأمل الكبير بل ذلك الخيال الغريب البعيد) فالناس جميعًا ترمى عزيز عيد بتلك التهمة الشنعاء تهمة اخراج القودڤيل الافرنسي المملوء بالالفاظ القبيحة والعبارات المخجلة ولكنهم لا يعلمون أنه يود أن يتدرج بهم من القودڤيل الافرنسي الى القودڤيل المصري ومنه الى الكوميدى المصرية. ولعل هذا السبيل الذي يسلكه عزيز عيد هو السبب في خيبته وتدهوره. ولو رآه الجمهور وهو جالس يقول (اني رجل كبير الأمل لا أخشى أن يقتلني ذلك الخيال الذي تراه عيني في كل ساعة واني على ثقة من خروجي من كل ذلك صفر اليدين لا أملك أبيض ولا أسود ولكني أريد أن ترى عيناى قبل أن يغمض الموت أجفاني ذلك الخيال قد تحقق ولا يهمني بعد ذلك ان تراني الناس على فراش موتي فقيرًا بائسًا لا أملك ما أسد به رمقي) ثم يتنهد ويقول (ولكن ما حيلتي والجمهور لم يرعني سمعه ولم يكف عنى — فانا ضحية ذلك الجمهور الذي لا أريد إلا خدمته خدمة خالصة من الطمع والأنانية). أجل لو رآه الجمهور وهو يقول ذلك وعرف أن الرجل المسكين أصبح فريسة ذلك الهم الذي قرح قلبه لأقبل عليه وساعده على تحقيق أمله الكبير.

(عيوبه)

فما هي عيوب عزيز عيد بل ما هي الأسباب التي تقف في سبيله تمنعه عن أن يصل الى غايته؟

لو نظرنا لعيوبه نظرة المدقق لعرفنا أنه ذو عيوب أربع: (الأول) عدم ارادته وينتج من ذلك قلة ثباته في أعماله وعدم صلاحه لأن يكون مديرًا. (والثاني) جهله الطريق التي تصل به لغايته. (والثالث) تمثيله الأدوار التي لا تتفق مع طبيعته. (والرابع) ثقته بعد كل ذلك في ارادته

وكفاءته للادارة ولتمثيل الأدوار التي تروق في عينه ووقوفه على السبيل الذي يتحقق به أمله.

(عيبه الاول): أول ما نعيب على عزيز فقدانه ارادته وينتج عن ذلك كما قلنا عدم صلاحيته لأن يكون مديرجوق وقلة ثباته في اعماله فتجده أحيانًا يمثل في جوق أبيض ثم تراه انتقل الى جوق عكاشه ثم يغادر جوق عكاشه ويؤلف جوقًا يحمل اسمه ثم يحله بعد أشهر معدودة ثم يمكث مدة من الزمن لا تسمع عنه شيئًا ثم يعيد تأليف جوقه ثم يحله ثم يعود لأبيض ومنه الى عكاشه ومن عكاشه إلى جوق يؤلفه وهكذا يدور عزيز حول الدائرة التي رسمتها له الأيام حاملا معه أمله الكبير الذي يكاد أن يضيق صدره عن احتماله. وتراه في كل جوق من الأجواق هو عزيز عيد الرئيس الفني يعلم الممثلين ويبتكر المناظر والمواقف تراه غيورًا على عمله يجد ويعمل ويذهب ويجئ ويصرخ صرخاته المحبوبة من تلاميذه فهو على المسرح قوام كل مائل ومفزع كل ملهوف

ولكنه مفقود الارادة والصبر لا يتسع صدره لتحمل تلك الصدمات الشديدة التي تحول بينه وبين أمله الكبير ولهذا يغادر الجوق الذي يعمل فيه الى جوق آخر لا يكون نصيبه فيه خيرًا من نصيبه في الجوق الأول. ولو عرف عزيز أن لا درع كالارادة ولا حصن كالصبر لمكث في الجوق الذي يعمل فيه يقاوم ويغالب الى ان يصل لأمنيته ويقع على مطلوبه. وينتج عن ذلك حسن ظنه بالناس واعتماده على كل من يلبس له لبوس المودة والاخلاص. فاذا ما سأله مدير من مديرى الأجواق أن ينضم اليه ليعملا سويًا على خدمة الفن وعلى تحقيق ذلك الأمل الكبير تراه قد تردد قليلا ولكن المدير لا يلبث ان يطويه بحسن كلامه وكثرة وعوده فينضم عزيز اليه بلا قيد ولا شرط ويقف تحت لوائه الى أن يرى أمله الكبير تعبث به الأهواء وتزريه رياح الأغراض فيغادر الجوق الى جوق اخر — بل ليس

شيء في الوجود أسهل من إغراء عزيز عيد على ترك الجوق الذي يعمل فيه إذا أتيته من سبيل أمله الكبير ولهذا جبراً ونقول أن عزيز أكثر الممثلين كفاءة وأقلهم صلاحية لأن يكون مدير جوق

(عيبه الثاني): وثاني عيوب عزيز جهله الطريق الذي يصل به لغايته. يظن عزيز أن بتمثيله الڤودڤيل الافرنسي يملك أعنة الجمهور ويسير به في الطريق الذي رسمه لنفسه لتحقيق أمله ولكنه نسى أن هذا النوع من الروايات لا يوافق كثيرًا الذوق المصري وقد أثبتت له الأيام ذلك. فعلام يقدم لنا في كل مرة يثب فيها لتأليف جوق جديد (خلي بالك من اميلي، وعندك حاجة تبلغ عنها، يا ستى ما تمشيش كده عريانه) ولعل السبب الذى يدفع عزيز للتمسك بهذه الروايات هو ما يراه من اقبال الجمهور على الريحاني ولهذا لا يتحول عزيز عن البدء بالڤودڤيل ظنًا منه أن كل شيء يضحك يكون مدعاة لاقبال الجمهور ولكنه نسى أن الريحاني يقدم للجمهور شيئًا مصريًا بحتًا يسهل على الجمهور فهمه بل مجموعة من الحان السوقة يهذبها المؤلف ويؤلف لها كلامًا مسرحيًا يقدمه للجمهور في شكل جديد وما هي إلا ألحان (عصفوري يامه. ولا ملامه عليك يا عيوني) وهذا هو سر نجاح الريحاني أما روايات عزيز فكلها افرنكية يمجها الذوق المصري ويا حبذا لو ألهم الله عزيزًا أن يبدأ أعماله بروايات مضحكة مصرية بحتة (كدخول الحمام مش زى خروجه) حتى يظهر للجمهور ما يجرى في بيوته وفي شوارع بلاده وأزقتها فيقبل الجمهور عليه ويتسنى لعزيز حينذاك أن يسير به من الڤودڤيل المصرى الى الكوميدى المصرية وعندها يكون قد حقق أمله الكبير

(عيبه الثالث): وثالث عيوب عزيز تمثيل الأدوار التي لا تليق به وقد تمسك بهذا العيب الكبير من يوم تأليفه جوق الڤودڤيل. فقد كنا نرى عزيز قبل ذلك لا يمثل غير الأدوار التي توافق طبيعته وأمامنا أدوار

(شمبرال في القضية المشهورة) ودور (باسبارتو في الطوف حول الأرض) ودور (اللص في نتيجة الرسائل) ودور (صاحب معامل الشكولاته في العواطف الشريفة) دليل قاطع على صحة ما نقول ولكنه تحول عن هذا الطريق من يوم تأليفه جوق الثودثيل وعذره في ذلك أن الدور المهم لا يصلح إلا لمدير الجوق وهذا خطأ فادح. اتخذ عزيز من ذلك العهد سنة تمثيل الأدوار المهمة ولهذا حتم على نفسه تمثيل أدوار الفتى الأول (Jeune Premier) ومن كان له وجه غير جميل كوجه عزيز وجسم ضئيل كجسمه وصوت بين الضعف والقوة كصوته خير له وأولى أن يبعد عن هذه الأدوار ولكن عزيز يرى غير ذلك ومن البلية أن يكون الرأي في يد من يملكه دون من يبصره. وان قارن عزيز بين دوره في (خلى بالك من أميلى) ودوره في (دخول الحمام مش زى خروجه) أو بين دوره في (عندك حاجه تبلغ عنها) وبين دوره في (القرية الحمراء) لظهرت له الحقيقة ناصعة كالشمس ولتمسك بالأدوار التي تليق به

(عيبه الرابع): وعيبه الرابع وهو في نظرنا أكبر عيوبه هو اعتقاده بعد كل ذلك في قوة إرادته في كفاءته لأن يكون مديرا او لان يمثل كل دور مهم وفي اهتدائه الى السبيل السوى الذى يصل به لتحقيق أمله وينسب خيبته الى صروف الدهر وتقلبات الأيام. ولو عرف عزيز أن الحرب في الحياة سجال وأن الصبر والارادة والاناة والرجوع للحق واختبار الناس أبلغ فيها من كل مقال لا تجشم في حياته ما تجشم ولأصبح منفسح الأمل سعيد الحال. وليعلم أن الأمور بغتات فليكن على حذر وعليه بانتهاز الفرصة والتماس الحقيقة أما اذا بقى على حاله فانا نخشى عليه أن تذهب ريحه ويفشل وهذا ما لا يرجوه له كل محب الفن

محمود تيمور

١٨٩٤

السائح

لمحمد بك ناجع منزل جهة الازهر يعيش فيه مع والدته وداداته وبعض الخدم المخلصين لعائلته. دخله الشهري يقدر بمائة جنيه يعيش بها عيشة رخاء لا تذمر منها ولا شكوى. يبلغ من العمر الثامنة والاربعين، ملتح بلحية سوداء فيها مباديء الشيب المقبل. يلبس دائمًا الردنجوت الاسود واللون، والطربوش الواسع القصير. تلقى علومه في المدارس الابتدائيه وعلى أساتذة خصوصيين ولكنه لم ينل شهادة من شهادات الدراسة. ثم حضر بعض الدروس في حلقات الازهر فلم يستفد منها الا قليلا. ولما وجد أنه قد أشرف على الأربعين ولم يحصّل شيئًا من العلوم جعل يدرس علوم الدين على الشيخ مبروك الخزامي — عالم متقاعد يدرّس الفقه والتوحيد والعقائد في منزله بأجر زهيد. وبالرغم من مواظبة ناجع بك على تلقى هذه الدروس من أستاذه لم يستفد شيئًا جديدًا لشدة غباوته. ولكنه اكتسب في الفترة الاخيرة لقب «عالم» من أصدقائه وتوابعه، فرضى به كل الرضى. أهم مميزاته التي انفرد بها غرامه بقراءة قصص السياحات وكتب الرحلات القديمة. يجمع في خزانته المنزلية مجموعة من هذه الكتب بين قيّمة وحقيرة. كثيرًا ما يذهب الى الازهر لزيارة أصدقائه العلماء كما يدّعي. ويتردد دائما بعد ظهر كل يوم الى مكتبة

حقيرة بجوار الأزهر صاحبها أزهري فشل في دراسته. ولعل أحسن اوقاته التي يقضيها هو الوقت الذى يصرفه في تلك المكتبة

والمكتبة عبارة عن مكان متداعى الاركان رطبه، ليس به مقاعد للجلوس غير مقعد طويل من الخشب ملتصق بالجدار، مفروش عليه قطعة من البساط لا لون لها ولا شكل. أما الكتب المعروضة للمبيع فهي خليط من مخطوط ومطبوع اهمها كتب أولية يحتاج اليها الازهريون في دراستهم موضوعة كلها باهمال على رفوف خشبية يكسوها الغبار العتيق

يأتى ناجع بك الى المكتبة ويدخل بكل هيبة ووقار فيقوم الشيخ سلّام صاحبها ويتقدم ليقبل يديه ويقول له بكل احترام وهو ينظف بمنديله الأحمر الكبير قطعة البساط التي لا لون لها ولا شكل:

تفضل يا سيدي العلّامة

فيجلس ناجع بك وهو يقول:

— كيف صحتك يا شيخ سلام. الحالة ان شاء اللّه متيسرة

فيجيبه الشيخ سلام وهو يبتسم ابتسامة الرضى:

— الحمد للّه على كل حال

فيتحرك ناجع بك على مقعده قليلا ثم يقول:

— ارجو أن تأمر لنا بفنجان من القهوة السادة وكوبة من الماء البارد.

فيهرع الشيخ سلام الازهري ليأمر بما طلبه البك... وبالرغم من تغيّر الطقس وتحوله من بارد الى حار ومن حار الى بارد فان طلب ناجع بك لم يتغير منذ خمسة أعوام. وهو يصر على ان تكون القهوة والماء باردًا ولكن حينما يحضرون له ما طلبه لا يعبأ اذا كانت القهوة محلاة بالسكر أو خالية منه، والماء اذا كان مثلجًا أو غير مثلج. المهم أن يترنم بهذا الطلب كل يوم ثم يردفه بطلب آخر لا يتجزأ عن الاول فيقول وهو يتنحنح:

— كتبك يا شيخ سلام

فيحضر له الشيخ سلام من الرّف القريب ثلاثة كتب لا تتغير ولا تتبدل. وهي كتاب «الف ليلة» و «رحلة ابن بطوطة» و «عجائب الهند» فيتناولها ناجع بك ويرصّها بجواره بعد أن يخلع نعله ويتربع. ثم يأخذ في مطالعة الكتب وهو يشرب القهوة والماء البارد قائلا بين فترة واخرى:

— شيء عجيب... كلام جميل...

ويمر بعض الطلبة الازهريين ويصيحون بالسلام على الشيخ سلّام فيصيح ناجع بك من داخل المكتبة يرد السلام كأنه له

ويدخل المكتبة في بعض الأحيان الشيخ البسطاويصي النساخ، رجل يلبس الجبة والقفطان والطربوش. له عينان دائمتا الاحمرار خاليتان من الرموش وقليلتا شعر الاهداب، يداه دائما في الارتعاش مع انه لم يناهز بعد الخامسة والاربعين قذر الملبس ثقيل الدم ولكنه يدعي اللطافة وخفة الروح والرشاقة في الكلام ويتظاهر بالعلم فيتكلم بجهل فاضح في كل موضوع، يكلفه ناجع بك من وقت لآخر باستنساخ كتب الرحلات من دار الكتب العمومية ومن بعض الخزانات الخصوصية يدخل الرجل وينحني امام البك مقبلا يديه ثم يأخذ مجلسه في طرف المقعد بكل حشمة ووقار. ويبدأ التكلم عن الطقس والسياسة والاخلاق فاذا ما انتهى من ذلك يخبر البك بانه عثر على كتاب مخطوط في عجائب جزر المحيط الهندي مزين بصور ملونة كبيرة وثمنه خمسمائة قرش لا غير. فيحملق البك في وجه الشيخ البسطاويصي النساخ ويدمدم قائلا:

— ولكن خمسمائة قرش مبلغ كبير.

فيجيبه البسطاويصي وهو يمسح عينيه بمنديل قذر ممزق:

— هذا ما يطلبه صاحبه. ولكننا نستطيع تنزيل ثمنه الى النصف.

— المهم ان أرى الكتاب

— سأحضره لسعادتك غدًا ان شاء اللّٰه.

ثم يعود البك الى مطالعة قصة السندباد البحرى وهي القصة التي قرأها ما ينيف عن الخمسين مرة حتى كاد يحفظها. ثم يترنم قائلا:

— شيء عجيب، كلام جميل

فينكلم البسطاويصى النساخ مرددًا كلام البك

— بالطبع شيء عجيب وكلام جميل

فينظر اليه ناجع بك وهو يقول:

— آه لو يُتاح لي السفر في المحيط الهندى لازور الهند والعجم وجزائر البحور تلك الجزائر التى لم يطأها للآن انسان بعد مشاهير رحّالة المسلمين.

— وهل تنوى السفر يا سيدى البك؟

— يمنعني شيء واحد.. هو والدتي يا شيخ بسطاويصى. والدتى عجوز... لا استطيع ان اتركها

— ولكن اذا تيسر لكم السفر في حال من الاحوال هل ترغبون السياحة في المحيط الهندي؟

— بالطبع سأذهب حيث ذهب سائحو العرب المسلمين في القديم الغابر يوجد هناك جزر مملوءة بالخيرات لم يكتشفها لليوم أجنبي. اريد ارتياد هذه البقاع المجهولة ثم اعرج في طريقى على الهند والعجم لارى ما بهما من العجائب المستورة

— ما شاء اللّٰه. عمل جليل سيخلد اسمك في بطون التاريخ

— ولكن لا استطيع يا شيخ بسطاويصى ان اترك والدتي انها عجوز يعز علي فراقها

— ثم يعود الى مطالعته متمما السفرة الثالثة من قصة السندباد

* * *

وتمر الايام تلو الايام والاشهر عقب الاشهر وناجع بك لا يغير نظام حياته فيذهب عصر كل يوم الى مكتبة الشيخ سلام ويحدثه حديثه المعهود ويطلب منه ان يأمر له بفنجان قهوة سادة وكوبة ماء مثلج. ثم يأخذ منه الثلاثة كتب المعروفة

ولكن داهم القضاء الذي لا مفر منه والدته العجوز. توفاها اللّه وهي في الثامنة والثمانين من عمرها فاختلف نظام حياة ناجع بك بضعة أيام قضّاها في منزله تارة وفي القرافة أخرى. وصدرت الجرائد اليومية بعد تشييع الجنازة وهي طافحة باخبار الفقيدة الكريمة وتاريخ حياتها المفعم بجليل الاعمال الخيرية، ووصف الجنازة المهيبة التي سار فيها أعاظم رجال مصر وعلمائها الاجلاء. ولبس ناجع بك السواد على والدته وطهرت على محياه الغبي سيماء الحزن والألم. وفي الشهر السادس التالي لوفاة والدته ذهب ناجع الى المكتبة كالعادة ودخل بهيبته المعروفة وهو يسلم على الشيخ سلام قائلا كلمته المعتادة

— كيف صحتك يا شيخ سلام. ان شاء اللّه الحالة متيسرة.

وبعد ان طلب طلبه المعهود أخذ مجلسه على المقعد ذي البساط القديم وأحضر له الشيخ سلاّم المجلدات الثلاثة كالعادة المتبعة منذ نيف وخمس سنين. فشرع يقرأ قصة السندباد البحري وفيما هو يطالع بشغف اذ حضر الشيخ البسطاويصى النساخ. وبعد تقبيل اليدين والتكلم عن الطقس والسياسة وذكر اخبار الكتب النادرة في الرحلات تنحنح ناجع بك نحنحة استغرقت خمس دقائق ثم تحرك على مقعده حركات غريبة استوى بعدها مُظهرًا العزم وقوة الارادة وقال:

— يعز عليَّ ان اخبركما يا صديقاى بخبر رحيلي

فاندهشا الرجلان وصاحا معا بصوت واحد:

— رحيل سعادتك..!؟

فاجاب ناجع بك وقد زاده ذلك الاندهاش كبرا وعزما وقوة ارادة:

— لقد عزمتُ على القيام برحلة مهمة في بلاد العجم والهند وجزر المحيط الهندي

فدنا الشيخ البسطاويصي وهو يدعك عينيه المحمرتين الخاليتين من الرموش بيده الملوثة بالحبر قائلا:

— كلام أكيد يا سعادة البيك؟.. أم عزم اوّلي

فغضب البك وانتفخت أوداجه وأخرج ورقة رسمية من محفظته وقال:

— انظر. اليس هذا جواز السفر.

ثم مضت فترة صغيرة هدأ على اثرها وقال:

— ساذهب غدا لتوديع استاذى العلامة الشيخ مبروك الخزامي. وبعد غد سأكون في السويس.

فتكلم الشيخ سلاّم ومظاهر الحزن المتكلف بادية على وجهه قائلا:

— وهل تمكثون في السويس بضعة ايام؟

— اجل سأمضى هناك اسبوعًا بخصوص مسائل متعلقة بالسياحة. لقد علمت ان الشيخ كامل العلامة الشهير المقيم في السويس لديه كتاب جليل فيه وصف شامل لطرق البر والبحر في بلاد العجم والهند وجزر البحور فعزمتُ ان استعيره منه لأطالعه واستفيد بما فيه

ودنا الشيخ البسطاويصي النساخ مرة اخرى وهو ما زال يدعك عينيه بيده الملوثة بالحبر وقال بلهجة الذليل

— يسوءنا فراقك ياسيدى. واللّه ان قلبي قد امتلأ حسرة وأسفا. ولكن عودة قريبة إن شاء اللّه

فانتفخ ناجع بك وقال:

ستستغرق رحلتى ثمانية عشر شهرا

* * *

وفي الغد ذهب ناجع بك لتوديع استاذه العلامه الشيخ مبروك الخزامي فكان موقف جليل بين الاستاذ وتلميذه تلقّى فيه ناجع بك آخر درس من دروس النصح والارشاد والتقوى

* * *

ومرت أربعة أيام على هذا الحادث وذهب الشيخ البسطاويصى الى مكتبة الشيخ سلاّم وما كان أعظم دهشته حينما رأى في الركن المعهود ناجع بك متربعًا كالعادة وبجواره الثلاثة المجلدات المعروفة وهو يشرب من فنجان القهوة السادة تارة ومن كوبة الماء البارد اخرى. فدخل المكتبة وعلى وجهه مظاهر العجب ثم قال لناجع بك:

— كنت أظن أن سعادتك مقيم الآن في السويس

فنظر اليه ناجع بك بضايقة وقال باختصار:

— اجّلت سفرى اسبوعين لمسائل عائلية محضة. ولكن بعد الاسبوعين سأكون على ظهر الباخرة «آسيا» التابعة لشركة البواخر الانجليزية الشرقية

* * *

وبعد عشرة أيام من هذه المقابلة نشرت الجرائد اليومية في صحف الحوادث المحلية ما يأتي:

«على الطائر الميمون يا خير راحل»

سيبرح القطر حضرة صاحب السعادة العلامه المحقق والرحالة الكبير محمد بك ناجع عبد اللّه، عميد أسرة عبد اللّه، الشهيرة بعلمها وأدبها وشغفها بالسياحة، الى الاقطار الهندية والفارسية وجزر المحيط، منقّبا باحثا في أرجائها. فنرجو للرحالة الكريم قرب العودة ونهنئه سلفًا بما سيجنيه من

الفوائد الجمة من رحلته هذه التي نعدّها الاولى في نوعها. ونلفت نظر المصريين الى الاقتداء بالبك في عمله النافع الجليل»

* * *

وأقلعت الباخرة «آسيا» من السويس في الرابع عشر من شهر مايو سنة ١٩٢٠ قاصدة الهند

* * *

وبعد مضى ثلاثة أشهر من ذلك كان في ركن مكتبة الشيخ سلّام الأزهري ناجع بك متربعًا في مكانه يقرأ قصة السندباد البحرى ويدمدم قائلا بين فترة واخرى:

— شيء عجيب، كلام جميل

وبجواره الشيخ البسطاويصى يدعك عينيه مرددًا كلام البك بالحرف الواحد. ولكن لا تمضى فترة حتى يرفع ناجع بك رأسه من الكتاب ويقول:

— آه لو يُتاح لى السفر الى المحيط الهندى فأزور الهند والعجم وجزائر البحور

فيتكلم الشيخ البسطاويصى قائلا:

— ولكن سعادتكم كنتم على أهبة الرحيل منذ ثلاثة أشهر ثم عدتم فعدلتم

فيتأوه ناجع بك ويقول:

— آه كان يمنعني شيء واحد هو والدتي يا شيخ بسطاويصى، والدتى العجوز التى لم تكن تصبر على فراقى... أما الآن....

فيصمت ويعتريه العيّ في الكلام ولكنه بعد جهد جهيد يتكلم متلعثما وهو يقول:

— الآن شغل كثير... مفارقة الاحباب... جمع الايجارات. شغل كثير — كثير جدًا... الدائرة في حالة ارتباك والزّراعة في تأخر... الاطيان تحتاج الى سماد. وغير ذلك...

ثم يصمت قليلا ويعود الى الكلام قائلا:

— ولكن لا بد من السفر — لا بدَّ من الرحلة الى حزر البحور وبلاد العجم والهند. لا بدّ من ارتياد هذه البقع المجهولة المملوءة بالكنوز وسيكون ذلك قريبا ان شاء اللّه...

ملك حفني ناصف

١٨٨٦—١٩١٨

سن الزواج

بينت في مقالي الاسبق ما يجب مراعاته في الخطبة والزواج من حيث اتحاد مشارب الزوجين في الدين والاخلاق والمعارف على قدر الامكان ومعادلة البيئات واليوم أفرد موضوعي هذا لشرط آخر لا يقل عن هذه أهمية وهو السن الملائمة للزواج

«الشرق» كما قال لورد كرومر في احد تقاريره عن مصر «يتم فيه بلوغ كل شيء متقدما» وهذه حقيقة جغرافية لا ريب فيها. اذ بنسبة حرارة البلاد يكون نضج النبات والثمار ونمو الانسان والحيوان. هذا ناموس الطبيعة الثابت بغير نظر الى تفاوت درجة العلم والعناية وما يتخذ من التدابير لاغناء ذلك الشيء أو لتحسين الآخر مما يكون له أثر في البطء والاسراع. فبلوغ الفتيات في مصر يكون عادة في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة لجيدات الصحة بعكس فتيات أوربا والبلاد الباردة الاخرى فانهن ربما جزن السادسة عشرة أو الثامنة عشرة ولم يبلغن. وعليه فلا نقيس سن الزواج عندنا به عندهن لاننا كما نسبقهن في البلوغ يجب ان نسبقهن ايضا في الزواج فضلا عن ان فتياتنا أقرب الى السكينة وأبعد عن الطيش من اخواتهن الغربيات. واني لا أوافق بعض الاطباء الذي كتب في الجرائد مرة ينص على أن سن البلوغ يجب أن يكون هو بعينه

سن الزواج. اذ باللّه ماذا تفهم فتاة في الثانية عشرة من معنى الزواج وماذا تعلم من أمور البيت وماذا تعمل لو رزقت بأولاد؟ اني أكاد أتصورها تموت هي واياهم ان لم يكن في النفاس ففي التربية. وقد ثبت بالتجربة ان أكثر اللاتي يتزوجن صغيرات جدًا يصبن بأمراض الاعصاب (الهستيريا) وهذا هو السر في وجود (الزار) كثيرًا عندنا

ان الزواج ليس بالشيء الهين ولا هو بالهزل. تظن الفتيات الصغيرات والراشدات أيضا ان الزواج معناه ضرب الموسيقى ونصب السرادق ليلة العرس ولبس الحرير والماس والمباهاة بالاثاث والاوانى الفضية وغير ذلك من ضروب الفخر الكاذب والطنطنة الفارغة ليس هذا هو الزواج ياسيدتي الصغيرة بل هو ارضاء الزوج وحسن القيام على ماله وتدبير بيته ومؤاساة أهله وتربية أولاده ورئاسة خدمه فهل تستطيعين كل ذلك. لا اخالك تستطيعين.

تقص علينا جداتنا وأمهاتنا في بعض سمرهن انهن تزوجن ولم تنزل عليهن التمائم. فكن يهربن في (الحارة) ويبكين عند الجيران ويأتين من المضحكات ما يبكي فهل نريد أن نرجع القهقرى الى زمن أجدادنا؟ حرام عليكم أيها الآباء ظلم بناتكم وتكليفهن ما لا يطقن ولا يكلف اللّه نفسا الا وسعها. حرام عليكم أيها الآباء الاصغاء الى أماني النساء الجاهلات وزج بناتكم الصغيرات في سجون الزوجية الضيقة. حرام واللّه ان تتزوج البنية اليوم وترجع لبيت أبيها غدا. حرام على الام أن تقول «أريد أن أفرح ببنيتي» فتزوجها طفلة ولا تنتقي لها كفوًا بل تعطيها لاول طالب لها. ولعمري ان الزواج ليتطلب الروية والتأني والأم ملومة أكثر من الاب لانها جربت الزوجية بنفسها وسبرت غور مصاعبها وأتعابها الا ان حب الظهور متأصل فينا لدرجة اننا نرمي ببناتنا في المأزق الحرج كي يقال عنا عرس فلانة كان فخما وما أبهى العروس وغير ذلك من الترهات

*

والزوج قد يسر أولا من عروسه الطفلة لكنه لا يلبث ان يستاء وهي مظلومة لا جريرة عليها لانها بالطبع لا تفهم ولا تستطيع القيام بحاجات منزلها من نظافة وحسن ذوق وفي وضع الاشياء في مواضعها وهي لا تفهم معنى المسئولية لكنها مع الاسف مسئولة عن جميع لوازم البيت من طعام ولباس وغيرهما. وهي تنام مستغرقة من الغروب الى الضحى فاذا بكي وليدها لم تسمعه فيقتله البكاء ان لم تقتله هي بالتقلب عليه في النوم. والطفل يحتاج لسهر الليل والرضاعة أفتقدر الصغيرة على حمله طول الليل وارضاعه ومعرفة أمراضه وأوجاعه وحسن العناية به. يا قوم هذه احصائيات الصحة ترينا كل يوم بأجلى ما يرى كثرة موت الاطفال في مصر أو اصابتهم بما يعسر شفاؤه نتيجة جهل الامهات بلا شك والجهل في الصغر اكثر منه في الكبر فاذا قرن بما يستلزم الصغر من الضعف وعدم القدرة على تحمل مصاعب التربية كان أدهى

ومن نكد الدنيا على الفتاة قاصرة كانت أو رشيدة ان تتزوج من فتى صغير تابع لابيه وتكتفي من الزوج بأنه ابن فلان الغني فطالما سمعنا بان اختلاف الكنات أو سوء سير الفتى أدى الى طرده هو وزوجه من بيت أبيه فماذا يفعل ان لم يكن تعلم علما أو صنعة تساعده على المعيشة. لا جرم ان يذوقا وبالاً أو ينتجعا بيت أهلها وتبقى هي وهو وأولادهما عالة عليهم الى ان يشاء الله

ومما يشقى الزوجين أيضًا مختصًا بالسن ان يتزوج هرم شابة مفارقه بشابة في مقتبل العمر أو بالعكس فتى بعجوز فان مشرب الشباب يختلف عن مشرب الهرم فضلا عن ان النسل الناتج من أبوين بعيدي فرجة السن الواحد عن الآخر يأتي في الغالب ضعيفا أو لا يأتي بتاتا. وانك اذا نظرت هرما وشابة أو شابا وعجوزًا ممسكا احدهما بذراع الآخر كما قد ترى الفرجة في طريقك احيانا فانك لاول وهلة تستنكر هذا المنظر

وتحكم ان حقا وان كذبا بانها ابنته في الاول أو أمه في الثاني وما يوجه النظر فهو ليس طبيعيا. واذا كان اللّه سبحانه أحكم أمر الملاءمة في الطبيعة فلم يخلق الجبل الوعر في السماء الرقيقة الصافية ولم يبرأ النجوم الجميلة المتألقة في الأرض الخشنة القاتمة فلم نجمع نحن بين الاضداد ونخالف ذوق الطبيعة الصادق

الشابة تفكر في زينتها وحسن هندامها والتأنس بجمال الاجتماع بصديقاتها والهرم يفكر في علبة السعوط والثريد ودواء السعال فيا «أيها المنكح الثريا سهيلا ✻ عمرك اللّه كيف يلتقيان»

كذلك الشاب لا يلذ سمعه الشينات الكثيرة والياآت في موضع السين والراء ولا يحب زيادة مصروفاته في تركيب الاسنان المستعارة وصبغ الشعر وطلاء الوجه وغيره من لوازم سيدتنا أو (أمنا العجوز) كما كنا نقول في قصص الطفولة. أحب فتى مرة امرأة أعجبه شكلها فخطبها الى نفسها فقالت له أنت فتى وأنا عجوز لا أصلح لك فلم يقبل قولها وظنها مازحة وألحّ عليها في قبوله بعلا فلم تر بدًا من اجابته الى طلبه فلما دخل عليها ليلة العرس جلس يكلمها واذا بها خلعت أسنانها ووضعتها على منضدة أمامها فهلع قلبه الا انه بقي صامتا ينظر اليها ريثما تتم عملها ثم خلعت احدى عينيها وكانت صناعية من الزجاج ثم جردت رأسها من شعرها المستعار فظهر أصلع مخيفا وبينما هي تنزع القطن من صدرها هرول الشاب نحو الباب مسرعا فنادته لما ذا تهرب وقد كنت تدعي اني فتنتك بجمالي فاجابها يا سيدتي «نعم أهرب ويحق لي لأني رأيت أغلب أعضائك من الدكان وأخاف ان تكون حواسك كذلك أيضا» فهل يغبط الرجل على زوجة مثل هذه واذ لم يغبط فلما ذا تكره الشابة على تزوج الهرم. اللهم أنت خالق الخلق ومجدد الاعمار. تزعم الجاهلات ان زواج الهرم دلال في حياته وغنى بعد موته فهل ضمنت المرأة الطماعة ان المنية ستعدو عليه

اول. وهل تطيب الحياة الزوجية اذا كان الواحد يترقب الموت لرفيقه. وهل تصح معاشرة هذه التي تعد موت القرين ربحا. ان هذا الا ضلال كبير

— فعلى ملاءمة سن الزوجين يتوقف شيء كثير من الوفاق والمحبة والواجب ان لا تتزوج الفتاة الا متى صارت أهلا للزواج كفؤا لتحمل مصاعبه ولا يكون ذلك قبل السادسة عشرة. وتزويج الصغار لعب فيه شقاء للامة من عدة وجوه. عناء في الزوجية نتيجته دائما الشقاق أو الانفصال. كثرة وفيات الاطفال. ضعف النسل اصابة النساء بالامراض العصبية والامراض النسائية الاخرى

وزواج مختلفي السن اضعاف للنسل وشقاء للزوجين وقلب لنظام الطبيعة الدقيق

فمتى يلتفت لهذا الآباء والامهات ومتى تنقشع سحابة هذا الشقاء عن سماء بيوتنا ومتى ننظر للزواج بعين الجد والاهتمام. اللهم أرني ذلك اليوم فهو أمنية النفس وسبيل سعادة الامة وترقيها

مساوئ الرجال
الازدراء بالمرأة

لعل عدوي التشاؤم من النساء سرت الينا وانتقلت الى بعضنا بالوراثة من عرب الجاهلية الاولى أولئك الذين كانوا يئدون بناتهم خشية الاملاق او العار كما كانوا يزعمون وقد نسخ النبي صلى الله عليه وسلم تلك العادة المنكرة الا ان أثرها لم يزل باقيا فينا الى اليوم اذ نحفل لولادة الصبي ونستاء لظهور البنية في هذا الوجود وقد يعذر المتقدمون على اعتقادهم هذا لحاجتهم الى الرجال لكثرة حروبهم وغاراتهم اما نحن فلا عذر لنا الا قليلا. وفي ما عدا حفظ لقب الاسرة وما لها من

الضياع يتساوى الصبي والصبية في نظري لأن عدد جنودنا محدود ونحن قوم مسالمون نجتنب الحرب ما أمكن وترانا نقلد العرب ولا نحكيهم فهم يهبون الصبي من يوم ظهوره للحرب ويفتخرون بدخوله في غمارها أما نحن فاذا دخل أحد أبنائنا الجندية يكاد يقتلنا الحزن وأعرف أمهات فقدن أبصارهن من شدة البكاء على أبنائهن المجندين

ذلك كان زمان الكثرة والشجاعة أما اليوم فزمن السياسة والصناعة. ها هي دولة الانكليز يربو عدد نسائها على رجالها وقد سادت أمما كثيرة رجالها ضعف الاناث فيها وها نحن بحمد الله يزيد رجالنا عنا عددًا فاى خير جلبنا وأي شر دفعا عن بلدنا المفدى وحنكة وزير واحد أطيب أثرًا من مائة الف مقاتل ويقظة من قليل خير من نوم الكثيرين

هذا بيان لا بد منه لتفنيد رأي القائلين بعدم الاعتداد كثيرًا بالبنات

المرأة المصرية مسلوبة الحق مظلومة في كل أدوار حياتها. نراها يتشاءم منها حتى وهي جنين فاذا ظهرت مولودة تستقبلها الجباه مقطبة والصدور منقبضة والثغور صامتة ترى القابلة وهي تحملها منكمشة لا تبدى ولا تعيد كأنما كان لها بعض الذنب في ولادتها انثى. نرى اقارب النفساء وصديقاتها يكثرون لها الهدايا اذا كان مولودها ذكرا ويقللون منها عددا وقيمة اذا أتت بانثى نرى كل من نقل الخبر يطفح اليأس من عينيه ولسان حاله يقول ناقل الكفر ليس بكافر فاذا انقضت ستة أيام كان سابع أيام الصبي عيدا توقد فيه الشموع نهارًا وتجلب أنواع الحلوى وتعزف الطبول وآلات الطرب أما الصبية فيكتفى لها ببعض النقل ويحسب تفضلا

كذلك حالهما في التربية والتعليم فان نصيب البنت قليل عندنا حتى أن من كعبت وهي في المدرسة تعد شاذة ولست أعجب من جهل

الامهات أكثر مما اعجب لقوم متنورين تربوا تربية عالية ينادون بقصر البنت على تعليم القراءة والكتابة والطبخ والغسل كانما العلم خلق لهم وحدهم في حين أن اللّه سبحانه وتعالى لم يكلف به طائفة دون أخرى فكانهم يجرحون عواطفنا علنا بقولهم لنا نريدكم خادمات منازل فقط لا سيدات مهذبات. وكيف يأبون علينا حقنا الطبيعي في مشاركتهم الحياة ويطلبون الدستور

وليس حالنا في سن الشباب بأدعى للطمأنينة في الطفولية فاننا لا نزيد عن المساجين شيئًا الا بالاسم فقط فبينما تجد الفتى حرًا في كل شيء ترانا يحجر علينا حتى في استنشاق الهواء النقي حتى في اختيار لون الثوب الذى نلبسه واذا سمح لنا ببعض المشي أو التنزه رمانا المارة بكل معيبة وأخجلونا ببذاءتهم وهم أحق بالخجل من وقاحتهم وفحشهم

واذا تزوجنا لم نزدد الا ضغطا فيقوى الرجل ويستبد. تكتم حرية الزوجة الى درجة تميت نفسها وتعدمها الاحساس والحياة. ارأيت أطغى من ذلك الرجل الذي يمنع زوجه من رؤية أمها وأهلها لغير جناية حدثت منهم؟ ارأيت أطغى من ذلك الذي يمنع الزائرات من دخول بيته ويحجب امرأته عنهن خوفا من أن يفسدنها عليه أو يعلمنها شيئًا جديدًا يأباه جموده واعتسافه؟ يتحكم فيها وفي صحتها وفي مالها وفي وقتها وفي حريتها وفي كل شيء ويأبى عليها أن تسأله سؤالا بسيطا عن شغله بحجة أنها لا تفهمه! أو عن نفقاته معتذرًا بأنه لا مدخل لها في شؤونه! وهل يحتقر الرجل المرأة أكثر من ان يجلس لطعامه وحده ولا يدعوها لمشاركته فيه فاذا فرغ منه تأخذ لقمة من هنا وأخرى من هناك كما يفعل الخدم؟ تظل واقفة واذا غاب ليلا يتحتم عليها السهر الى أن يحضر ثم اذا مرضت يأنف أن يناولها جرعة من الدواء ويستنكف من البقاء معها قليلا فيترك لها المنزل بما فيه وليس أصعب على المريض من أن يرى

نفسه مهملا متروكا يظهر احتقار الرجل للمرأة جليا في افعاله وتصرفاته. اذا حزن يوما لا يكاشفها بما يؤلمه واذا نوى الشروع في عمل يعدها غريبة عنه فلا يخبرها. يخرج من البيت ولا يعود اليه الا لأمر ضروري فموانسته واسراره نهب للخلان. أما زوجه فلا يعدها الا طاهية أو خادمة وأطن أن الرجل لو لا بقية حياء فيه لما هوى منزله ولو لا أن أكله في الفنادق يكلفه كثيرًا لما ذاق طعام بيته

أي ازدراء للمرأة وعبث بحقوقها أشد من أن تخرج كلمة من فم الزوج ساعة غضبه فتفرق بينهما وتشتت ملتئمهما واي امل لها في مستقبل مظلم لا تدري متى ينهار بنيانه؟ ان الدين لا يسمح بتعدد الزوجات وبالطلاق هكذا من غير شرط كما يفعل الآن رجالنا وانما جعل لهما شروطا وقيودًا لو اتبعت لما أنّ منها النساء البائسات

زار أغلب رجالنا اوربا والبلاد المتمدنة ورأوا بأعينهم كيف يحترم الرجل الاوربي امرأته حتى انها مقدمة عليه في كل مجتمع فعادوا ينادون بوجوب تعليم المرأة ويصرحون في كلامهم بانهم من أنصارها وأنها واجبة الاحترام ولكن لا يلبث كلامهم أن يذهب مع الهواء. الا انهم اذا اجتمعوا بسائحة افرنكية أو امرأة غربية تلطفوا لها كثيرًا فساعدوها في النزول من عربتها وامسكوا لها حقيبتها ورفعوا الطرابيش اجلالا لها في حين أن أحدهم يستنكف ان يركب مع امرأته في عربة واحدة واذا سافرت أو انتقلت الى محل آخر تركها ونفسها كأنه لم يكن هو صاحب الافكار الحديثة القائل بمساعدة المرأة واذا ازدحمت الطرقات في مولد أو موكب مثلا رأيت الرجال يدوسون النساء ويضربونهن بالمناكب كأنه زحام الحشر فهل هذا مبلغ احترام النساء عندنا أي سبة للمرأة العفيفة أنكى أو أشد ايلاما من أن يحوطها زوجها بالرقباء والحشم كلما انتقلت خطوة كأنها غير أمينة على نفسها أو كأن العفة ملاكها الرهبة لا الرغبة

وهل يزدري الرجل عواطف المرأة باكثر من ان يجالس خليلته امامها كان شعورها ميت ويريدها ان لا تغضب فهل قدّ فؤادها من حجر صلد؟

لا أنكر ان لنا عيوبا يجب اصلاحها وان بعضنا لا يستحق كثير احترام ولكن أيؤخذ البريء بذنب المجرم وهل يصح تطبيق القانون الا على من ثبت ادانته؟ وفي اعتقادي أن الرجل لو خفف قليلا من كبريائه وعلم أن امرأته مساوية له في جميع الحقوق المشتركة وعاملها معاملة الند للند أو على الاقل معاملة الوصي لليتيم لا معاملة السيد للعبد لما رأى منها هذا العناد الذي يشكوه ولاطاعته حبًا فيه لا خوفا منه ولا يجهل ان الاستبداد يأتي بعكس المراد.

ما جعل اللّه لرجل من قلبين في جوفه فكيف ورجالنا على هذا الاستبداد يأملون صلاح الامة وتربية أبنائها على حب الاستقلال والدستور. اما واللّه لو أرانا رجالنا عناية واحترامًا لكنا لهم كما يحبون فما نحن الا مرآة تنعكس علينا صورهم ولنا قلوب تشعر كما يشعرون. فان أرادوا اصلاحا فليصلحوا من أنفسهم والا فلينظروا ماذا هم فاعلون

مي

١٨٩٥

لوتي الراحل الباقي

(هل تحسُن ترجمة كتبه؟)

أردت أن أحتفي بذكره احتفاءً خاصًا، انا التي طالما عشتُ في الصفحات الجميلة من كتبه وطالما استسلمتُ لسحر بيانه. فما اهتديتُ الى خير من أن أحمل كتابه عن مصر «موت آنس الوجود» فأقرأه في مكان خصّه في هذا الكتاب، بفصلٍ فتّان. فمضيتُ إلى دار الآثار المصرية، جلستُ طويلاً على مقربة من قاعة المومياتِ وطالعتُ فصوله بهدوءٍ وتأمّل، من النبذه الأولى وموضوعها أبو الهول والاهرام تلك الرموز العظمى التي راعه لونها الورديّ في ضوء القمر، «التي بطلت عبادتها منذ مئات والوف الاعوام وما زال الناس من جميع الاجناس وجميع الازمان يقصدون اليها ويطوفون حواليها مجذوبين بما فيها من ضخامة وأسرار». حتى أتيتُ على الفصل الاخير عن أسوان وهيكل أنس الوجود. فقرأت بعدئذ كلامهُ عن قاعة المومياتِ في دار الآثار، وهو الفصل الرابع من الكتاب، وكنت ادّخرته خاتمةً لجلستي هذه مع لوتي الراحل الباقي

ليس أتفه — على ما يرى لوتي — من زيارة في النهار لهذا المتحف المصري الذي ينعي عليه هندسته البنائية، فضلا عن عرض

اولَئك الموتى الأجلاّء لجميع الانظار بهيئة غير جليلة. لذلك أراد ان يزوره في الليل وحده بل برفقة مدير المتحف في ذلك الحين. وأن يتجوّل في هذا المدفن الوسيع يرى ما يرى منه على نور المصباح الضئيل. فتخيفه مرّةً نظرات العيون المحدجة كأن التماثيل تنفث في روعه وحي خاطرةٍ آتية من اعماق الاحقاب وطورًا ترعبه الجفون المسبلة كأنها تأبى رؤيته، وتنكر عليه اقتحام ناديها ساعة تنطلق الاشباح من الشخوص والذخائر لتتبادل فيما بينها ما جنته في سكينة النهار من خلاصة الذات البشرية الكبرى...

وكأنّي بلوتي في هواه وطلبه المومياة عند انتصاف الليل يقرب كثيرا من بلقيس التي ردّت على سليمان اذ قال لها «مُلكي عند قدميك. بماذا استطيع أن أرضيك؟» ردّت بقولها: «أريد أن أخاف! كيف أتعرّف الى لذة الخوف؟»

ذهب لوتي يطلب هناك لذة الخوف، لذة التفرد بما لا يناله سواه، ورعشة فنية يستعين بذكرها فيما بعد لتسلية ضجره الطويل الذي طاف به جميع الاقاليم وجميع البحار فلم يزدد الا ظهورًا وثباتا وتمدّدًا.

* * *

كتب لوتي هذا الكتاب سنه ١٩٠٧ وأهداه الى مصطفى كامل الذي كان مثله «ابنًا معنويا» لمدام جوليت آدم. أخوان بالروح ابنان لأمٍ واحدة، ولكنهما ككثير من الاخوة مختلفان كل الاختلاف من حيث نظرتهما الى الحياة. كان لمصطفى كامل غاية معينة يجري وراءها، ويسعى لها، ويبذل في سبيلها شبابه وقوته وذكاءه دون مراعاة لبنيتهِ الضعيفة. فهدمتهُ الحياة القوية. على انه ترك وراءه شرارة الوطنية وحب الراية الحمراء البهجة الخافقة في جوّ الوادي الاخضر

اما لوتي فقضى حياته الطويلة وغرضه الصميم — هو يقول ذلك في كل كتاباته — معالجة سآمته الدائمة. لا شك ان تلك السآمة كانت فطرية في غريزته. ولا شك كذلك انه كان يغالي فيها ويفرط في مجاراة «الزيّ الفكريّ» الرائج يومئذ في أوربا حيث كانت طائفة من الأدباء والشعراء تحسب الضجر والسامة والملل من ضروب الاناقة النفسية والاجتماعية. وظلت تلك الطائفة على ذلك حتى جاءَت الحرب الكبرى فنفضت عن كثير من الرجال هذه الأنوثة العليلة. وعنوان غرض لوتي من الحياة تجده ملخَّصًا في مطلع كتابه عن «ازياديه» حيث يقول: — «عند ما يتناولني الهواء الرطب كصبٍّ من مثلج الماء، وترتدي الطبيعة هيأتها المغبرة المسترحمة، عندئذ أَهبط الى ذاتي ولا أَجد في داخلي غير ذلك الفراغ المقزز وسآمة العيش الواسعة». «يجب أَن نتبِّل على أَحسن ما نستطيع طعم الحياة التافه»

وعلى ذلك يمضي «متبِّلا» طعم أَيامه ولياليه على أَحسن ما يستطيع. والذين يساعدونه على التتبيل سيكافئهم (؟) بأَن يجعلهم موضوع كتاب جديد يمرِّن فيه مقدرته الشعرية العظيمة وفنه الساحر في الوصف والتحليل. ويشرح على صفحاته فلسفة سآمته — فلسفة القنوط الأنيق والموت والفناء. ذلك باسلوب هو من أَبلغ وأَعذب وأَروع ما عرفته الفرنسيس من أَساليب البيان

والنتيجة المنطقية لهذا المزاج العليل وهذه «العقلية» العصبية، هي كره المدنية الحاضرة ونبذ كل مستحدث ومبتكر. لوتي يعيش في الماضي، في التذكار، في التلفّت. فلئن كان سميرًا شيقًا في ساعات معيَّنة من العمر، فهو أَسوأ أَستاذ لمن يريد ان يحيا وأَضرّ مرشد لمن يحفل بالحاضر وينشد المستقبل في أَنوار الرجاء وحرارة الايمان

هاك ما يقول في فصل «موت القاهرة» — «بين فتيان المصريين

مسلمين واقباطًا المتخرجين في المدارس كم من ذي فكر ممتاز وذكاء وقّاد! وإذ ألقي على هذه الارض المضمّخة بذكرى المجد القديم نظرة الغريب الواصل البارحة، أراني مدفوعًا الى أن أصيح في وجوههم بصراحة خشنة ولكن بعطف أكيد فاقول: — «قاوموا قبل فوات الوقت! قاوموا ليس بحدة ولا بشراسة ولكن بازدراء وامتهان صنوف التجارة الدنيا، هذه الاغارة المفسدة التي تفيض عليكم بعد ان ينقضي رواجها عندنا فتنبذها! حاولوا الاحتفاظ ليس بتقاليدكم ولغتكم العربيّة الحَرِية بالاعجاب فحسب، بل احتفظوا بجمال مدنيتكم وبسرّها وبترف مساكنكم المكرر المصون. انكم لمسؤولون عن كرامتكم القومية. لقد كنتم شرقيين (واني ألفظ باحترام هذه الكلمة التي تتضمن ماضيًا ذا حضارة مبكرة وعظمة جَليلة) ولكن حذار! فلن تمضي أعوام حتى يصنعوا منكم سماسرة شرقيين وهمكم الوحيد ارتفاع سعر الاراضي وغلاء القطن»

هذا دعوة لوتي الى الاحتفاظ بجميل الموروث وكرامة اللغة. ولكن كيف يهملون تحسين أراضيهم وسعر أقطانهم والاقتصادُ اساس الاستقلال القومي في هذا العصر وفي كل عصر؟ وهل تستعبَد الشعوب ان لم يكن في ماليتها عجز؟ ثم إن نحن لم نستفد بمنافع مدنية الغرب فعلى اي مدنية نتكل؟ وباي المنافع نأخذ؟ لقد كانت المدنية العربية نبيلة عظيمة وصلت بين حضارة الماضي والحاضر فشغلت تسعة قرون بطولها، بينما حضارة اليونان والرومان معًا لم تشغل زمنًا أطول. ولكن هل هي تكفينا اليوم ان نحن اعرضنا عن جميع الاساليب الجديدة التي اهتدت اليها عبقرية الانسان فحققها حذقه في حياته اليومية؟ السنا نسدّ أمامنا آفاقًا واسعة بالتعامي عما في مدنية الغرب من جمال وجلال؟ ثم أليس هذا الانقطاع لذكرى الماضي كفيلاً في ان يستعبدنا الذين يتمتعون بكل ممكنات الحياة وكلّ مبتكرات الاكتشاف والاختراع؟

* * *

وقد ارتأى بعض كتابنا الافاضل تعريب كتاب «موت أنس الوجود» وكتب لوتي الاخرى عن الشرق الادنى. وهو رأي وجيه صائب. لو قصر على الاعتراف بأدب لوتي الرائع والاقرار بالجميل نحو تلك النفس الكبيرة التي انالت الشرق وأبناء الشرق قسطًا وافرًا من عطفها ومحبتها. بل من شغفها واعجابها. فكانت مرآة سحرية نبصر فيها نفوسنا فنبتسم بافتتان وشكر. على ان الامر أبعد من ذلك. وفي نقل كتاب أو كتب لوتي خطر على شبيبتنا متعدد الوجوه. فلوتي واحد من كتّاب الغرب يقرأه دون سواه القارىء العربي فيحسب رأيه في الحياة وسير العمران الرأي الاعلى. وذاك خطأ. ولوتي ضجر ملول يضرب ببراعة فائقة على وتر شديد الاحساس من اوتار النفس الانسانية، وتر السآمه واليأس وبطلان العمل والجهاد، والشك في كل عاطفة وكل ايمان وكل اخلاص. ويسوّغ لنفسه أي شيء ليتسلى ويلهو. ونحن في حاجة الى اهمال هذا الوتر المفني القوة. نحن في حاجه إلى إهماله وتحريك أوتار النشاط والتجدّد والامل وحب الحياة لأنها الحياة. ومن عيوب لوتي الكبرى نظرته الى المرأة فهي نظرة غير نبيلة. المرأة عنده اداة لهو وسرور، ونحن نريد لرجالنا الشرقيين من هذه الجهة نزعة أعلى وأشرف. نريد أن يشمل الرجل عندنا المرأة بعطفه، ويرفعها الى افقه ليرتفع بها. ان يستوحيها ويوحي اليها فيتعاونان على حياة يعلمان ان اللهو والسلوى بعضها لا كلّها. وعندي ان الرجل مهما سمت عبقريته ووفر علمه فهو ناقص أبتر ان لم ينظر الى المرأة النظرة النبيله التي تُعيّن لها في الاسرة والمجتمع مكانه كريمه

ولوتي ندّاب كثير النواح والشكوى والتذمر فيؤذى من لا المام له بآداب الغربيين او من كان قليل الالمام بها. كما كان قبله شديد

الاذى روسّو ناصب المناحات الكبرى ببلاغته العميقة الملهبة وشكواه الحزينة المؤثرة. ولوتي فوق كل شيء لا مثل أعلى له ولا غاية سامية في الحياة. ونحن اليوم أطفال في الحياة الفكرية لا يمكننا ان نهضم كل غذاء لان قوى التمييز والملاحظة والاختيار لم تكتمل عندنا. وشبيبتنا اليوم تحتاج الى ان تقودها غاية عظيمة والى ان يستحثها أمل عظيم — او على الاقل وهم عظيم. ومرحبًا بالوهم إذا هو دفع الى العمل وحرّض على النشاط، وأوحى حبّ الحياة وتقدير ممكناتها.

اقول ان شبيبتنا لا تحتاج الى كتب لوتي بل الى كتب اساتذة أقوياء يكيفونها ويستحثونها على الرجاء ويبثّون في نفسها اليقين. فترجمة كتب لوتي «صديق الشرق» خطرة لمن لا يعرف ان يتسلّى بسحر لوتي تسلية ويعجب ببيانه دون ان يحسب قوله درسًا وامثولة. وبعد — وقد قلت ما اعتقد في هذا الباب — فان نفسي لترحل مجتازة البحر والبر لتصل الى ضريح لوتي. فتجثو هناك مصلّية، وتضع عند زواياه طاقة الأسف والتحنان والشكران للصديق الذي أحبّ من بلادنا كل شيء وكلّ أحدٍ. الصديق الذي لم تكن تملأ هاوية نفسه غير عطور الشرق، ومعانى الشرق، وتلك الأصداءُ المرفرفة الهابطة من أعالي المآذن مرددة «لا إله الا الله!»

طلمات وأشعة

(مقدمات الكتاب)

. . . وقفت عند كوة الحياة لا أدري لماذا اقف ومن ذا أوقفني هناك. واذا بالناس في السبيل يمرون. فأخذت أتفحص الوجوه منهم والحركات لعلى أعثر على ما يجعلني مختلفة عنهم وهم مختلفين عني، ولعلي أدرك ما هذا الذي يطلب مني رغم حداثتي وحيرتي وجهلي وقلة اختباري.

فصرت أعجب بالناس وأغبطهم على ما لديهم وليس لي ان أفوز بمثله، وأتعزى بمظاهر الكآبة عندهم لتكون تلك المظاهر صلةً. ولو واهيةً، بيني وبينهم على أني لم أزدد الا شعورًا بحيرتي وعجزي. لم ازدد الا شعورًا بأني خيال لا ضرورة له ازاء تلك الأقوام الفرحة الضاحكة — مع ان هذا الخيال يطلب منه شيء كثير لا يدري ما هو. فظننت لحظة اني وصلت الى قرارة اليأس وأني شربت كأس المرارة حتى الثمالة ثم أوحي الى بأن هناك وجودًا غير ملموس يدعى السعادة. وشعرت باحتياج محرق الى التعرف اليها والتمتع بها. ففهمت أنه ليس أقسى على النفوس في انفرادها وسكوتها وعجزها من تلقي ذلك الوحي العنيف والشعور بذلك الاحتياج العميق...

ولما انتهى دور الوقوف في الكوة وجدتني بين الجماهير ووجهي مرقص الحياة. جاهلة من ذا يسيرني واياهم وبأي دافع هم يسيرون. فتناولني حينًا دوار الاختلاط بالجمع الكبير، الا ان الشخصية العامة لم تستول عليّ فتغرق في قدرتها عجزي. بل بقيت انا تلك الصغيرة الضعيفة الحائرة وسط المعضلات والرزايا. ولم يفتأ ذلك الوحي المعذب يهمس فيّ سورته، وذلك الاحتياج المتوهج يضرم فيّ ناره ففهمت أمرًا آخر وهو انه حيث تكون العاطفة متيقظة مرهفة فهناك النزاع الاليم والاستشهاد، واذا رافقتها الأنفة وشرف السكوت على مضض الحروق والكروب فهناك مأساة الصلب تتجرد مع الايام...

ودرجت في التيار المكتسح الملايين فبلغت جوانب الميدان الفسيح الذي تلجه الأفواج من جميع المناهج. حتى اذا أعتها الايام والاختبار تغلغلت فيه شيئًا فشيئًا. في ذلك الميدان تقيم الحياة مرقصها ليس في قصرٍ واحدٍ كما ظننت قبلاً، بل في مئات الالوف من القصور والمنازل والأكواخ وما بينها من الصحاري والواحات والجبال والوهاد والبحار.

وما كنت اخاله ألحاظ نور تناديني وجدته مزيحًا من مشاعل الانتصار، وأضواء الأفراح ولمعان الاسلحة، وشموع الجنازات ووقود التدفئة ومسارح النذور ونباريس الاجتهاد والعناء. والنشيد الذي حسبته أهزوجة طرب وحبور كان خليطا هائلاً من صراخ الصرعى وعويل الهلكى واستغاثة الغرقى وأنين المحرومين واسترحام المتوجعين، وتهليل الفرحين والسعداء والمستفلحين، وابتهال الاتقياء والزهاد والمصلين وزفير الحفظة والشماتة، وصعق التحريض والتهديد والاستنزال، وحمد القناعة والشكر والرضوان — وألوف الوف الاصوات المؤلفة نشيد الحياة الرائع المستديم

والقدرة الخفية التي اوقفتني في الكوة ثم دفعت بي الى السير وأوصلتني الى هذا الميدان، هي التي سوتني والذين جعلتهم حولي يصفقون ويلطمون. فتذمرت مع الضعفاء وانتصرت مع الاقوياء، وتواكلت كالطفيليين وتنشطت كالنبلاء فعرفت كيف يعز الناس وكيف يذلون كيف يجوعون ويشبعون، كيف يؤلمون ويتألمون، كيف يستبدون. ويظلمون. عرفت عبودية المساكين وحسدهم ولجاجتهم واستقلال الاغنياء واناقتهم وجفافهم. عرفت ان لكل امرىء غما وان هش وبش، وان لكل عاتق حملاً وان تقوم وانتصب، وان لكلّ من أسرى الحياة اطماعًا ومطالب وشكايات: فواحد يبتغي الفوز بالحذق والجهود وواحد يكد ولا ينال شيئًا وواحد لا يتعب ولكنه ينال كل شيء، وواحد يصيح بأنه ذو حق ونصيب وليس له الكفاءة والاجتهاد اللازم للظفر بذلك الحق والتمتع بهذا النصيب. وبينا جلبة الأصوات تتعالى من كل صوب يطغي المد جارفًا الجماهير والانظمة والجهود والمطامع فيحتضنها من الحياة العباب الرجاف كما يحتضن الخضم الزاخر ملايين القطرات التي لا تعد ولا تحصى — وتظل الحياة محيية مرقصها حيث تتابع الاشباح والصور واللغو والحركات والانوار والظلمات...

وها انا ذي أسير في أطراف مرقص الحياة معانية ما يعانيه مساجين الوجود جميعًا، يبرّح بي واياهم الشوق الى السعادة وأتلقى مثلهم ذلك الوحي المتجدد بوجودها. وعند كل خطوة خيبة وكمد، وعند كل خطوة أمل وجذل، وعند كل خطوة روعة حيال هذا السيل الحيوى الذي يتدفق مرغيًا مزبدًا الى حيث لا يدري. وعند كل خطوة استفهام لا جواب له عن معنى الحياة وغايتها، عن معنى الألم وغايته، عن معنى الطرب وغايته. وعند كل خطوة سؤال للكون لماذا وجدت النفس الانسانية كالنحاس المجوف ترجع لكل صوت يقرعها صدًى رنانًا عميقًا وجيعًا...

نشيد نهر الصفا

[عين زحلتا قرية لطيفة يعرفها الذين اعتادوا الاصطياف في جبال لبنان، وألطف من القرية نفسها غابات الصنوبر التي تحيط بها وأجمل من هذه وتلك منظر نهر الصفا المتدفق عند قدم الجبل، وعلى بعد أمتار قليلة منه يركض نهر القاعة

كل من النهرين يسرد حكايته الابدية على الاشجار المصغية اليهما بحللها السندسية. ويظل النهران في اندفاع وشكوى، وروح الوادي تئن في اثرهما الى أن تلثم مياههما مياه البحر العظيم]

هنا سالت صور الكون الهيولية وذابت ذرّاتُ الاثير.

هنا اجتمعت بلابل ارفيوس لتعيد ذكرى أوريديس ذات القلب الكسير،

هنا تنهّدت العطور، تنهداتها الغرامية، وتحوّلت الوردُ الى أشعّةٍ سحرية،

هنا اغتسل قوس قُزحٍ، فترك في الماءِ من الوانه ألحانًا فضيّة،

ومن دماءِ الاحلام المتجمدة استخرج قوس قزح ألوانه السرمدية،
هنا بعث الافقُ بأسراره الى الارض مع خيوطٍ من الاثير ذهبية،
هنا نامت الاشباح بين أجفان ينات المياه، فامتزج النور بالظلام وتلاشت اليقظة بالمنام
هنا ناحت حمائم الشعر وغنّت أطيار الانغام،
هنا لثمات النسيم شوق وهيام
ومداعبة الموجة للموجة تبادلُ نظرةٍ وابتسام.
وجمود الشاطئ حقد على فتور الليالي ومعاكسات الأيّام.
هنا ارتعاش الاوراق على الغصون تحيّة همت من مقلِ الكواكب وسلام
وعايُل الافنان ودلالها بجوى ملك الوحي والالهام،
هنا ليله انوارٍ وفجرُ ظلام وألغاز ملامس وألوان وأنغام.
حينما يمرّ الفجر على قمم الجبال يرى صورته في هذه المرآة البلوريّة — يرى رمز الشبيبة مع ما يتبعها من الآمال النضرة كالازهار، والاميال المتنقلة كالاطيار. ثم يأتي الغروب ساكبًا في اعماقها مرارة أحزانه مع ما يرافقها من النظرات المتحوّلة، والابتسامات المتغيبة والجباه الكئيبة، والشفاه المتحركة بالصلوات، الساكنة بالتأملات

هنا عيدان الاشجان تبكي، تبكي بقلب جريح. وفي كل لحظة يخيل انها تسلّم نَفَسَها الاخير بشهيق فيه من اللوعة والكتمان والتجلّد بقدر ما فيه من المجد والعظمة من البسالة وعزّةِ النفس الابيّة.

لكنَّ المياه لا تموت ولا تحيا، بل تعيد ذكرى الماضي وتهمس بنبوّتها في المتسقبل، وتكرر أصوات الافراح وتردّد آهات الاتراح

هنا لغز من الغاز الحياة وليلة من ليالي الزمان. وأنا لغز أمام هذا اللغز، وليلة ازاء هذه الليلة. أهيم وحيدةً على الشاطئ الحزين، انظر ولا أرى، اسمع ولا افهم، ابحث ولا أجد، استعلم ولا اعلم...

فؤادي يخفق مع فؤاد النهر الخفيّ، ونفسي قيثارة الاحلام والالحان. لكنني لغز حيّ تائه في ظلّ الغصون، ينظر مستفسرًا الى لغز آخر فلا يجد فيه إلّا صورتهُ، فيودّ تمزيقها وسحقها وان أحبّها!

* * *

عند احتضار النهار ذهبتُ الى رأس النبع وجلست على صخرة قائمة في وسط المياه المتسلسلة من صدر الصخرة الكبيرة. جلستُ وأرواح الخيال تتنشق الأريج العطري المعانق لشعور بنات المياه. وآلهة الاهوية الاربعه يتلاعبون بدقائق الشفق سابحين على امواج الظلام. وحول اشباحهم تلتفّ اكاليل البنفسج وقلائد الياسمين، وفي ثغورهم يلمع فتيت النجوم. بينما أبكار الشعر تسرّ لاخواتها خفايا اليأس والرجاء تحت أشجار الصنوبر وعذارى الطرب تستخرج من عناقيد «باخوس» خمرًا تسكر به الالهه. ومن سكر الآلهه يولد الشعراء والانبياء

على هذه الصخرة حيث أنا احلم غلهً بما شربَتهُ مشاعري من رحيق الخيال العلوي كان يجلس الامير بشير الشهابي الكبير. كثيرون بعده وقبلي جلسوا هنا وفؤاد كلّ منهم منقبض تهيبًا وخشوعًا أمام أنفاس الطبيعه وأصوات الخلود. ما يجول بخاطري الآن كان يجول بخاطرهم لأنّ الافكار تتشابهُ في المصدر وفي النتيجة رغم تشعّبها وتفرّعها، والرغائب الكثيرة اللاصقة في أعماق النفس البشرية هي هي في كل آنٍ ومكان

جميعنا طرح السؤال الذي ألقيه الآن على المياه المتراكضه:

هو سرّ الاسرار الغامضة الذي يرجعه صدى الهياكل المشادة في قدس اقداس البشرية: من أين والى أين؟ من أين والى أين؟؟

من أين تأتين أيتها المياه والى اين تذهبين؟

... من أين أتينا والى أين نذهب؟..

المياه تتدفق اثر المياه مهلّلة مكبرة، وقد رَفعت أصواتها في الغناء والنحيب، ودمدمت العناصر فيها أسرار الفيض الالهي، ورفرفت على جوانبها أجنحة الخلود . .

من أين والى أين؟

ثقل دماغي بأفكار لا أُدركها، وضاق منى الصدر لهموم لا أَعرف ماهيتها، فنزعتُ عن ساعدي ساعة وُضعت في اسورة ذهبية ونظرت اليها قائلة: — «أيتها الساعة! انت رمز الوقت الجارى في نهر الزمان فيسير قاصدًا بحر الابدية. ها انا اغطسك في هذه المياه. . . عسى ان تحفظي في حياتك المعدنية أثرًا لرموز معنوية». ثم جمعت بعض الحصى الملونة الجميلة الراكدة في أعماق النهر، قائلة: «أيتها الجواهر! سأحملك معي الى وادي النيل لتذكريني بالعواطف الكثيرة التي تلاطمت في فؤادي امام نهر الصفا. . . أنت ذكر الابدية التي حييتُ فيها لحظة»

واذ رفعت عينيّ الى الافق رأيت مقلة الزهرة ترقبُ يد ملك الظلام الراسمة على رداءِ الليل صوَر الهيئات السماوية

فغادرتُ رأس النبع مردّدةً: أنهر الصفا! من أين والى أين؟

* * *

أنهر الصفا! جئتكَ تعبة الروح والجسد معًا

قرأت خلاصة الاحوال الحاضرة فدوى في مخيلتي هدير المدافع، وتمثلت لناظري صور الحرب المخيفة. ثم قصدت الاجتماعات فملأ اذني ضجيجها التافه، وضجرت نفسي من معانيها السطحية ومراميها الخبيثة. عجبت لبلاهة الانسان وركاكة امياله وفتور همته اذ ذاك سمعتُ اسمك الموسيقيّ فاحببته لأنّ فيه جمالًا وعذوبة وسلامًا لقد احرقت قدميَّ الرمالُ الحارة، ومزقت يديَّ أشواكُ الحياة، فجئت أستخلص من أعشابك بلسمًا لجروحي.

تعلقَ بأهدابي غبار المادة محاولاً إخفاءَ الجمال المعنوي عن عينيَّ، فاتيت أغسل أهدابي بمياهك المقدسة

جئت لأرطّب يديّ وعينيَّ برضابكَ العذب

ثَقُل فؤادي عليّ، فأسرعتُ لابعث به معك الى روح البحر العظيم الذي يناديك من عمق اعماق زرقته البعيدة.

أنت ابن الغيوم، وألعوبة الحرارة الهوائية، وضحكة المادة الدائمة، وقهقهة الجوّ بين الهضاب والاودية. أنت قبلة الشمس للبحر. انت أنشودةُ الجبلِ في الوادي. انت الروح الصغيرة المسرعة الى احضان الروح الكبيرة.

أنت عميقٌ كأسرار الجنان، عذبٌ كنظرات الولهان، وفي اسمكَ ألوان وألحان،

أنت تهلمم بي، أيها النهر، فخذني معك بعيدًا عن الحياة وضوضائها، خذني معكَ... ولكن ما هي نسبتي اليك؟

انت مجموع سوائل لا وجدان لها، ولا قلب يخفق بين اجزائها. وانا... انا شيءٌ اخر. أنتَ لغزٌ بين البحار والآفاق، وانا لغز بين الحياة واللانهاية. انا اعرف اني لا افهمكَ، واشعرُ بجهل الانسان وشقائهِ، أما انت... ما لنا ولك؟

سيري، أيتها المياه، سيري واتركيني. أسقي النباتات والاعشاب، ضعي لآلىء في ثغور الورود، رطبي صدر الارض الملتهب، ترنّمي في وحدة الوادى، اسردي حكايتك التي لا تنتهي، اندبي هلالي، اصرخي اهمسي، انشدى انحبي، اطربي احزني. كل هذا ننسبه اليكِ، نحن ابناءُ النشوة والكآبة

سيرى، أيتها المياه، ودعيني ابكي. لقد تلبّد جوّ فكرى بالغيوم القاتمة، وقلبي — ما لكِ وله! — منفردٌ حزين...

عند قدمي ابي الهول

الأفق واسع واسع والليل عميق عميق، وانوار المساكن وأضواء الشهب في احشاء الدجى جراح وحروق. وأصوات المدينة تحدّث عن اوصاب المدينة جاهلةً ما عداها لذلك جئتُ ناديكَ انشد الأختلاء وراء تلالٍ فصلت بين عمران البشر الضاجّ المقيّد وعمرانك المستقلّ في حضن السكوت غير المتناهي

تتتالى على البسيطة شعوبٌ ودول تأتي بالاديان والشرائع واللغات والعادات، وتتبارى في محق عمل الاجيال زلازل وبراكين وصواعق وأوبئة وثورات وزعازع وطوفانات وانت هنا رابض امام اهرام انتصبت في وجه الفضاء تنقض احكام الفناء. والهياكل تلقي بين يديك حديث الدهر بالفاظ الحجر والصوّان وتعزّزه بصور الارباب والملوك والكماة. وكأن ما نزل بها من العاديات بعض تلك الصور المنيلة خطابها بلاغته وروعته

هاهنا تربض فريدًا على وثير الرمال في مملكتك الفيحاء مملكة الكتمان والجلال والايماء، وعظمة القياصرة حديثة النعمة دميمة حيال عظمتك المجرّدة الرفيعة. والانسان المتطاول الشغوف بهتك الاستار يدخل ايوان وحدتك السنيّ. ولكنك في غيبوبتك غير منظور لهذه الاشباح الفانية، وغير ملموس لهذه الايدي الذبابية المتنقلة على مخالبك ومنكبيك تلهيًا واستقصاء.

غير ان الانسان ليس بالمتلهّي المستقصي فحسب، بل هو خصوصا الذنف المتألّم. يتناوله من الكون قهرًا دوّار الفواجع والنوائب فيدركُ ان الثبات العام منسوج من الوجل والاضطراب، وان البقاء الظاهر مصنوع من التغير والتحوّل. يدرك مأساة الكفاح بين الحرية

والقدر. يدرك ان عجاجات القوى تضيع جزافًا في شلّال الذرارى والانسال الجارف الآلهة والمحاربين والشارعين والقديسين والانبياء والقتلة والقتلى سواسية يرى التعاسة على طريق العروش، والصوالجة والتيجان تختلط بقيود المجرمين. يرى الاعراس والجنازات والمواليد والوفيات يتخللها العوز والبطر، والمرض والعافية، والخيانة والامانة، والدعوى والتطيّر، والضلال والهدى. وازاء ما يفطرّه ويعذّب سواه يظلّ الكون على ما هو، والخلائق والاشياء تتوثّب فيه وتتولّد كالمياه الرهوة الرجراجة. وكلّ ما خال منها وشيكًا كان نهايةً تعقبها بدايةٌ وانقاضًا تستوى عليها الأسسُ.

واذ يزفر طالبًا للحوادث تفسيرًا يقال لهُ «هذه هي الحياة!» «ما هذا الاّ الحياة» «لا تكون الحياة الاّ كذا» نعم، يا أبا الاهوال الساهي، ازاء الهبة والحرمان، والوفاء والغدر، والبياض والسواد والفخار والمذلة، والغلبة والانكسار. ازاء كل مسرة وكل توجع، التفسير واحدٌ لا يتغيرّ! اننا نفسّر الحياة بالحياة، ونداوى داء الحياة بصل الحياة، ونهرب من الحياة لنجدنا والحياة وجهًا لوجهٍ.

* * *

وانا صورةٌ من ملايين صور الحياة نهضت أتفهّمُ الحياة كما نهض جميع اولئك المساكين وكما وقفتَ قديمًا على طريق طيبة تلقي الاسئلة على العابرين وقفتُ أسألُ ابناء السبيل عن معنى الحياة. فقال أحدهم «هي صدر الام»

فالتصقتُ بصدر امي فاذا انا منه في عشّ دفءٍ وحرارة وحصن مناعة وأمان، لا ترعبني الرياح العاصفة والرعود الداوية، والبروق الملعلعة والسيول المتدفقة. ومرَّ يوم. فضاق بي صدر امي وعدتُ الى موقفي أسأل «ما هي الحياة؟»

فاجاب مجيب «هي الدين والتقوى»

فبادرتُ أمرّغ جبهتي على عتبة المذبح مخفيةً اداة التقشف والامانة تحت مزركش الاثواب وأقرع صدرى مستغفرةً عن آثام لم أرتكبها وذنوبٍ لم تخطر على بالي. فناجتني الصور الصامتة في أُطُرها وهمست لي الصلبان بنكال الحربة والمسامير. فمرَّ يوم. وصدر الهيكل الذى كان لينًا عَطوفًا انقلب كالمرمر صلابة وبرودة. وصارت الطقوس الدينية ترتيبًا مرسحيًا. وأرواح البخور التي كانت تنزل عليَّ فيض الوحي والالهام غدت مزعجةً كعطورٍ تنشرها ذوات الذوق الكثيف. فعدت الى مكاني من السبيل سائلة «ما هي الحياة؟»

فقال صوت الغرور «وهل هي للفتاة غير التيه والدلال والتظرُّف؟»

فمضيت أساجل مرآتي فتعشّقت صورتي فيها. ولم اكن أفارق تلك الصورة الا لأبحث عما يزينها ويحمّلها. وكان يبكيني مشهد الباكين فاصبحت وقد تذوَّقتُ لذة اللهو واللعب في نسل خيوط القلوب. ومر يوم. فاطلَّ شبح الملل في عينيَّ فعدت أسأَلُ ابناء السبيل «ما هي الحياة؟»

فعلا صوت الحضارة في صفير البخار وجلبة الآلات وقال «هي الثروة والجاه العالمي وابهة العمران»

فعدوتُ في سبيل هذه، سوى اني لم اصرف ساعة حتى تحجّر كياني. فعدتُ والضجر يقتلني أسأل «ما هي الحياة؟»

سألتُ طويلاً، وبكيت غزيرًا، وقنطت حتى طلبت الموت فانبثقت صورة من غور عنائي. لم تتكلّم وانما فهمتُ ان الحياة عندها. أرأيت، يا ابا الهول، النجوم راقصة؟ بلحظةٍ تململ ثابتُ النواميس فرقصت جميع النجوم حولي، وخشعت الكائنات سجودًا لدى من هو شفيعها عند ذى الجبروت، وتناقلت الموجودات صورة وجهٍ واحد — او فخرت بنسخ

خطٍّ من خطوطهِ وانتحال معنى من معانيه. واستحدثت جميع الاشرقة نورها من تألُّق عينين اثنتين، وصارت زرقة الجوّ وبهجة الربيع وطلاوة الامواج انعكاسًا مبهمًا ضئيلاً لتلك البسمة — تلك البسمة البطيئة الرقيقة النادرة. واستدعتني الالوهية الى عرشها فوضعت يدي ويد البارى على لولب الوجود وقمتُ واياه بادارة حركة الأكوان. فمرَّ يوم. فقُمعت ثورة النجوم وقدَّمت خضوعها للنظام الاوحد، وعادت لكل كائن اهميته في الخليقة. فرجعت أسأل العابرين «ما هي الحياة؟»

فقال صوت العلم الرزين «انا الحياة لأني أشرح الحياة»

فالقيت بنفسي في الخضمّ الزاخر أعالج العلم المادى تارة والفلسفة الروحانية اخرى. كم من علم خلقنا، أيها المليك، لنبحث عمّا لا يُعلَم، وكم من لغة ابدعنا لنشرح ما لا يُشرح! فهداني الجهابذة الى القوه التي يتمّ بها التفاعل الكونيّ بين الاجرام فلا تتفلّت من عناقها شمس ولا ذرة: الجاذبيّة. فسألتُ وما هي هذه الجاذبية، من رآها، من سمعها، من لمسها؟ أهي وسيط ينتقل على تموّج الاثير، ام هي سيال يتموّج بنفسه مستقلاً عن العناصر؟ فاجابوا «ذاك سرّ الحياة وهو مجهول»

الحياة! مجهول! لفظتان تمثلان الانفصال والاتحاد جميعًا

هذه الرمال التي تفرش ربوعك بطنافس ناعمة — منذ أربعة آلاف سنة يا حارس الصحراء منذ أربعة آلاف سنة والعلم يقلّب الذرة الواحدة منها ويديرها ويقسّمها ويجزئ تقسيمها. لقد نحرها بحثًا ودرسًا وقتلها تشريحًا وتحليلاً متلمّسًا علة تركيبها واللغز المتوارى وراء محلها. فسارت جهودهُ من مجهول الى مجهول ومن استفهام الى استفهام. وما زال مثلي انا الطفلة الغريرة يسأل «ما هي الحياة؟ ما هي الحياة؟»

كذلك طال استجوابي للسابلة فضحك كثيرون ومضوا لأنهم لم يفهموا. والقليلون الذين وقفوا وأجابوا ارهفوا فيَّ اللجاجة والحرقة والاسى.

* * *

يا وليد بابل ام السحر والتعاويذ، الى اى حقيقة رمز بك الرامزون؟ لماذا جعلوا بين كفيك درجات خفية تفضي الى سرداب امتد وتاه في مجاهل الاهرام؟ لماذا اودعوا قلبك مفتاح باب الغيب حيث كان العرافون يستمعون للالهة الهواتف؟ ولما ذا لا يعرف موضع اصغرك الاجوف منك سوى شفتيك المطبقتين على كرّ الاعقاب؟

تفترّ شفتاك دون كشفٍ واعلان، أتأكيدٌ هذه البسمة ام ايهام؟ أشفاق على دماء المفاداة وقد أُذيبت فيها الاوحال، ام لأنَّ ما هو كائن أقلص من ظلّ حصاةٍ حيال ما سيكون؟ هذا نيلك رضاب الطبيعة المحيي عُبدَ من منبعه الى مصبّه لما يظهره من اريحية ووفاء اتدرك معنى احراره الصيفي ومعنى خصبه؟ اتفهم معنى شكل هندسيّ تجلّت به اهرامك الخالدة؟ انت الذى تحتك الكلدان قبل ان يرسموا دائرة البروج، اتعلم ما اذا كانت هذه الاهرام منائر للصحراء ام مدافن للفراعنة، ام حصون دفاع، ام مستودعات كنوز، ام مجتمع عشاق، ام محفلاً فيه يدين اوزريس موتاه؟ اتعلم لماذا أُدرجت اوراق البردى واسرارها الهيرغليفية طيّ الاكفان مع المومياء في التوابيت والنواويس؟ اتعرف معنى سوسن الماء وزهرات عرائس النيل العائمة على النهر المقدس؟ نحن الجهلاء نعلم ان جميع هذه انما هي رموز الى الحياة المتحكمة فينا، وانت ألم يبقَ لك ما يكتسب ههنا لتحوّل نظرك وتسكت سكوتًا لا ينتهي؟

ام انت لا ترقب هناك سوى ما نرقب؟ أترصد حركة الاصبع الموجّه الابرة المغنطة نحو الشمال تجرُّ بعدها النُظم الشمسية وهيئات الكواكب؟ أم تستعرض مواكب الانوار والظلمات وجيوش الثوابت والسيارات، وجحافل الامكنة والازمنة؟ ام انت تتهجّأ اسم الحياة يخطّه قلم النواميس بحروف الشموس والمذنبات والسدم والعوالم؟ ام يذهلك تدفّق الفيض

الالهي من وراء حجب الوجود لينكوّن اثيرًا وهواءً ونارًا وماءً وهيولي؟ نحن مثلك نترقب ونتوقع ونترقب. فهل تعلم ما هذا الذى ننتظره وتنتظرهُ الآفاق المنحنية علينا؟ لقد سُجنّا في حالك الظلمات تخترقها خيوط النور حينًا بعد حين فنهبّ نحسبها مقدّمةً لتحقيق الرجيّة، وما هي غير السراب الخدّاع فيزيد الظلام حلكًا ونلبث في الانتظار متردّدين.

لقد دُفن نصفك في الرمال المغيرة على علاك وما زلت ترقب الشرق وتبتسم، ونحن تغزونا الكوارث وتفتك بنا الدواهي فنظلّ نرنقب ونرجو.

أصحيح ان لغزك لغز الدهور ام خلقك الانسان رمزًا له كما خلق آلهته على صورته ومثاله؟ لقد أعطاك من الثور الحاصرتين مكمن الغريزة الجوفيّة الرامزة الى السكوت، ومن الاسد براثن التحمّس والاستمامة الرامزة الى الجرأة، ومن النسر الجناحين المحلّقين في بعيد المدى الرامزين الى المعرفة، ومنه — من انسانيته — اعطاك الرأس مشيرًا الى التبصّر والارادة المدركة المتغلبة على الغريزة والانفعال والخيال. فكيف يحصر فيك جميع هذه النزعات التي تتجاذبه ولا يضف اليها ما بقي؟ لماذا لا يكون ابتسامك الدائم صورة الامل المتجدّد أبدًا فيه. أليس انه مثلك لانك مثله؟ اليس انه في اعماقه أبا هولٍ شاخصًا ابدًا في السموات العلى كلما طفر بفجرٍ وشروق لبث يتوقع بزوغ كوكب جديد وشروق شمس ساطعة

سلمى صائغ

حكاية هيفاء الديرانيّة

هي في الخامسة والثلاثين من عمرها، ذات عنقٍ بضٍّ جميل وذراعين مستديرتين وعضلات مريرة تتجلى فيها القوة الجبليّة ورواء الشباب الغض برّاقة العينين مطبوعة الذقن ذات شفاه سميكة بسّامة عن اسنان صحيحة لمّاعة

اسمها هيفاء، وهو من الاسماء البدوية الجميلة اخذه اللبنانيون فيما اخذوه عن اخوانهم العرب، ولم ينطبق اسم على مسمّى كما انطبق اسم هيفاء على قدّها الاهيف

غريبة هي الاسماء في لبنان، تقف على نبع من ينابيعه فتسمع امرأة تنادي اولادها باسماء عربية صميمة يا هيفاء! يا سعاد! او يا اسد ويا ضرغام: واخرى تصرخ يا بشير يا روكز يا اغناطيوس يا انور! صفحات تمرّ امام فكرنا فنذكر لبنان الاقطاعي ولبنان المتديّن... ثم لبنان المتحمّس لحرية الاتراك ودستورهم وقد يؤخذ الغريب اذا سمع على التوالي اسماء ادمون وروبرت وفكتور تلفظها الفلاحات بلهجة بقاعية او شمالية او شوفية فيقال له هذا اثر من مؤثرات الهجرة او دليل من ادلة امتداد النفوذ الاوربي على سواحل الشرق الادنى ولكن ما قولكم بذلك المهاجر الذى اعجب بمبادىء رئيس الولايات المتحدة فسمى ابنه روزفلت او بذلك الارثوذكسي الذى يعدّ بين ابنائه اسم كروباتكين

صدقوا انني لا امزح وليس فيما اقوله شيءٌ من الغلو البديعي فالحادثة حقيقية والولد لا يزال حيًّا يرزق واسمه ان لم يكن كروباتكين فهو اسم يماثله من اسماء العيال الروسية الشهيرة. رومانوف مثلا او سازانوف او ماكاروف اختاروا ما تشاؤون الى اين يحرّنا الاستطراد؟ لنعد الى هيفاء الديريّة او الديرانية كما كانوا يلقبونها في محلة الكلية الاميركية حيث خدمت سيدات بيوت عديدة ولم يكن تنقّلها ليشينها في نظر المتأمركات اللائي تعبّدن الى السكسون والسكسونيه ومن المعلوم ان ركنها الركين هو الثبات. ثم الثبات.. ولقد غفرنَ للديرانية هذه الهفوة لنشاطها العجيب وشغلها النظيف المتقن وقوتها البدنية الهائلة حتى كان يقال عنها انها تحمل اثقال البيت على ظهرها لذلك اجتهدت سيداتها العديدات في سبيل ارضائها والاحتفاظ بها

مسكينة هيفاء! يا ليتهم يعلمون سبب تقلبها ويعرفون ان في ذلك الجسم الجبّار الذى لا يعرف التعب قلبًا نسائيًا تاكله الهمّ فاصبح لا يسكن يومًا حتى يستفزّه القهر اشهرًا واعوامًا. فهيفاء تحمل همّ قلبها الاخرس وتتنقّل به من بيوت اسيادها في بيروت الى بيتها القديم المتداعي في القرية وبعد ان تشبع نواحًا وبكاء على حياتها المبتورة يحملها الضجر الى المدينة فتمكث شهرين ثم يعود بها شوق الاستطلاع الى القرية لعلّ من قادم من تلك البلاد النائية لعلَّ من رسالةٍ تنتظرها في بيت الكاهن الشيخ؟.. وهكذا على توالي الايام تمرّ السنون وهيفاء لا تسلو ولن تسلو

قلب فقيرة وحكاية فقيرة! نعم للفقيرات قلبٌ — كما لذوات القصور — تهيم وتشتاق وتتفجّع وتلتاع وتحنّ وتئن... كذلك لهنّ حكايات تبكي الاصلاد لو كان لها شعور ولكنها حكايات مهملة منسيّة ولعلّ الفقيرات من هذه الوجهة اقلّ شقاء من ذوات الحياة المبتورة اللائي يتسلى بهن الناس

في سهراتهم فيسردون وقائعهنّ ويضربون الامثال وبعد ان يشبعوهنّ صفعًا وجلدًا وصلبًا يعودون فيجودون عليهنّ بشيء من فضلات الشفقة كما يفعل الصبية الاشرار باعمى مسكين اذ ينهالون عليه ثم يطردون على اقدامه شظايا عكازه المحطمة...

هيفاء أميّة لا تعرف سبك الالفاظ ولا تجسيم المصيبة لانها لم تدخل الى ساحة الحياة عن طريق الروايات العصرية حيث العواطف المشتبكة والاميال المتطاحنة.

انها جاهلة ولكن ما ابلغها عند ما تصف وحدتها، وعذابها، وشوقها الى من يحميها، وحنينها الى ولد يدرج في الدار، وخوفها من الهرم الموحش يوم تلزم البيت المظلم حيث لا نار تدفئ ولا قلب يحنو ولا رفيق تستند اليه ولا ابنة تعطف ولا احفاد يمرحون ويلعبون ويضحكون

كم هي شديدة التعلق باولاد اسيادها وكم تقبّلهم وتدغدغهم فيطربون وترن اصوات سرورهم في جوانب المنزل. يجلسون مساء الى دروسهم فتاتي وجلس القرفصاء وتبدأ بشغل الشال الصوف الطويل فيكفّون عن الدرس ويضرعون اليها «دخيلك يا هيفاء احكي لنا حكاية» فتضع شغلها الى جانب وتاخذ بقصّ حكايات حسن الشاطر والسبع العجائز والاربعين لصًا وابنة السلطان

قيل لها يومًا يا هيفاء احكي لي حكاية

— حكاية من يا ستي؟

— حكايتك انت يا هيفاء

— . . .

— ما بالك احكي فاشاركك في همك.

واخذت تلك المرأة الضحوك تتكلم عن ماضيها وتصف خدمتها في بيروت ثم موت امها ورجوعها الى البيت ثم تعرّفها الى بطرس ابن حنا —

مختار الضيعة — وتعلقه بها وغضب ابيه وامّه وكل اهله واصراره على الزواج بها رغم (الكبير والصغير) كانت تتكلم وتضحك اذ تذكر مروره امام البيت واغانيه الجبليّة وقد تضمنت ما يريد افهامها اياه. ولجهله الكتابة كانا يتفقان على طريقة للتفاهم فصليب واحد على الحائط كان يعني ان تلاقيه الى العين، وصليبان الى الفرن، وثلاثة الى الكنيسة، وهكذا...

هنا اغربت هيفا في الضحك فلمعت عيناها واستدارت الغمزة في ذقنها وامتلأ البيت برنين طربها

ثم تكلمت عن هربه من بيت ابيه وارساله اربعة من (الجدعان) لاختطافها في (ليلة ما فيها ضوء قمر) وامتناع الكاهن عن تكليلهما وانقسام القرية الى حزبين وفوزها في نهاية الامر بداخلة المطران

— اذا لماذا هجرك بعد كل هذا التعلق؟

— لم يكن لنا بيت وقد حرمه ابوه فبقينا في بيت ابي ولكن اهله ما زالوا يضمرون لي الشرّ فتجمهروا عليه وزينوا له السفر الى اميركا حتى ينتقموا مني وكان قد ضجر من قلة الشغل فذهب وترك لي ابنًا صغيرًا بعد ان حلف لي امام (الايقونة) انه حال وصوله يرسل لي اجرة الطريق

هنا هبط صوت هيفاء الى قرار واطئ كئيب فكانت دموعها تتدحرج ببطء على خديها فتمسحها بطرف ثوبها وتتابع الحديث:

لم يتوفق في اول الامر فبقيت انتظر في القرية وانا اغسل لهذا واخبز لذاك واشتغل حينًا في معمل الحرير وحينًا في موسم القزّ الى ان جاءت الحرب فتصالحت مع اهله وسلمتهم ابني وذهبت الى حوران وبدأت اشتغل في الحقول وارسل لهم ما احصّله كي يطعموا لي الولد... ولكنّهم اكلوا اتعابي واماتوا ابني جوعًا

وصلت هيفاء الى هذه المرحلة من الحديث وشفتاها ترتجفان وصدرها

يرتفع ويهبط ودموعها تتسابق واوتار عنقها تتضخم والكلمات تخرج من فمها متقطعة متهدجة

— آه لا اريد شيئًا منك ياربي والهي الا ان ارى بطرس مرة واحدة فاحكي له قصة عذابي ثم اموت

— لماذا لا تتبعينه يا هيفاء؟

— كلما قصدت ان اسافر كان ياتيني منه مكتوب انه سيحضر ومنذ سنتين نقل من البلد الذى كان فيها وذهب الى بلد يبعد عن ذاك بالبر مسافة عشرين يومًا، ثم انقطعت اخباره...

— بالله يا هيفاء كفاك تبكين

دعوني ابكي.. دعوني اطقّ. كيف انساه ومحبته في قلبي حتى انزل الى القبر. يا ليتني متّ قبل ان ذهب وترك في قلبي هذه الحسرة

منذ سنة اتى رجل من المهجر ولما سئل عن زوج هيفاء قال انه متزوج منذ سنين وله عدة اولاد.

اما هيفاء فلا تزال تخدم من يعولها بامانة وصدق ونشاط عديمي النظير. في كل مساء تركع امام ايقونة يسوع فتصلي عن روح ابنها الطفل النقي ومن اجل رجوع زوجها عدة مسابح... واحدة لقلب يسوع. وواحدة لمار فرانسيس. واثنتين لأم الاله. وفي اكثر الليالى تنتبه سيدتها ليلاً على انين وتنهد عميقين فتنهض اليها وتهزها في فراشها قائلة:

— يا هيفاء يا هيفاء ما بك يا بنتي؟

فتفتح هيفاء الجبارة — المرأة التي تحمل البيت على ظهرها — عينيها السوداوين، وتزيل بيدها القويّة شعرها الفحمي المسترسل على خديها العندميّين وتقول:

— لا شيء... لا شيء... تعبانة يا ستي

بابل في سوريا

كنت اعدّ — على اصابعي — لئلا اغلط بالعدّ فيضيع الحساب عدد:

حزب الاستعمار الانكليزى

حزب الاستعمار الفرنسوى

حزب الاستقلال مع الوصاية الانكليزية

حزب الاستقلال مع الوصاية الفرنسوية

حزب الاستقلال مع الوصاية الاميركية

حزب الاستقلال التام الناجز بلا وصاية

حزب الضم

حزب الفتح

حزب التجزئة. والساحل. ولبنان الكبير. ولبنان الصغير. ولبنان الاصغر

قلت: أَنِي! يكاد نَفَسي ان ينقطع

فقال لي جليسي وكان ضليعًا في السياسة:

استقلالنا سناخذه تامًا. تامًا... لا رقابة ولا وصاية. نريد ان نستجلب من اوروبا اختصاصيين لتعليمنا طريقة الاحكام. اختصاصيين بالاجرة من اى صقع ومن اى قطر نريد من بلجيكا وهولانده وسويسرا واسوج والدانمرك

وكاد يقول حتى ومن داهومي

قلت في نفسي هذا حزب جديد اعدّه مع الاحزاب اما اسمه فسيكون حزب بابل او التبلبل او البلبلة

ما شاء الله...

*

ولم املك نفسي فغضبت غضب رجال الصلاح ونفثت من اعماق روحي نفثةً احملها منذ اربع سنوات وتكاد ان تقتلني

قلت له: ان الشعب الذى لا يعرف ان يقول لا اريد لا يحق له ان يقول اريد...

سنون اربع اذابت منا الشحم واللحم. أفنت الاعصاب، ودقت العظم ونحن وقوف نتفرج ولا نعرف ان نقول لا نريد

لا نريد ان تستبيحوا اموالنا

لا نريد ان تشلّوا تجارتنا

لا نريد ان تميتوا اطفالنا جوعًا.

سنون اربع واطفالنا تحشرج في الاقنية والمزابل وقد مسخها الشقاء فشابهت السعادين والقرود، بل بقايا عاد وثمود.

من هو طفل محمد مصطفى من البسطة وطفل يوسف توما من شنانعير؟ هما طفلاى انا بحكم الامومة التي حَوّلت اليافى قلبي وجعلتها اوتارًا حساسة رنانة. هما طفلاى انا وطفلا كلّ امرأَة شرّفتها الامومة. فاذا كنت وانا امٌّ لا اعرف ان اشفق على طفل جارى فقد سقط عني لقب الامومة الالهي

طأطأنا الرؤوس وعفّرنا الوجوه، بذلنا الاموال وفلذات الاكباد، ولكننا ما عرفنا ان نقول لا نريد. خفنا من المشنقة ومن النفي كأن الحكومة البائدة كانت قادرة ان تشنق او تنفى كل اهل بيروت والشام لو اجتمعوا في يوم واحد وصرخوا بصوت واحد لا نريد!

قابلت مرةً ضابطًا انكليزيا وضابطا افرنسيًا كانا ذاهبين الى قونيه في اوائل الاحتلال، قلت لهما: كل بقايا الجيش التركي موجودة في قونيه افلا تخافون غدرهم وانتم حفنة؟ فاجابني كلٌ بلغته — كأن كل واحد يترجم افكار الاخر —:

«واى مصيبة تحدث اذا قُتلنا في وديان الاناضول؟ الا تعلمين ان كل ضابط يقتل هو سلاح جديد يضعه الاعداء في يد الحلفاء؟»

هذه شعوب تقدر ان تقول نريد بحكم الله واوامره والعمران وشرائعه والتاريخ وآياته التي لا تقبل الرد والتحوير

وخفت ان يفسر سامعي هذه الكلمات على غير معناها فقلت له: استقلالنا اعطي لنا بحكم ظروف فاقت التصور. فالظروف الطارئة شيءٌ والتطوّر الطبيعي شيءٌ آخر على انه لو أُعطي او لم يعطَ فليشتغل كل منا لأجل هذا التطور

قال عهدتك تفكرين ضمن دائرة التدريس والتهذيب فما بالك...

فقاطعته وقلت انا كارهة السياسة واوحالها. ولكن هذه ليست سياسة يا اخي. هذا درس في الاخلاق

على ذكر اللغة العربية
اكرامًا لجامعة السيدات

انني لا اذكر مرة ما تفعله هذه العصبة النسائية في سبيل الوطن الا وتنتفض نفسي بعاطفة غريبة هي مزيج بين الاعجاب والحنو والشفقة. انني اعجب بسيدات تتوق نفوسهنّ الى عمل الواجب فتثب نابضةً مختلجةً تائقة صارخة وسط هذا النزاع بين الموت والحياة، يا هولاء انظروا فيّ الى بوادر الحياة!!

انني لاحنو واحنّ الى رفيقات يغرفن ماء البحر في صدفة معتقدات بكل ما في قلوبهن الطيبة من البساطة ان اقتراحهنّ في موضع اللغة العربية سيأتي بنتيجة في احياء هذه اللغة التي نقف امام حبها خاشعين، قلقين، حذرين كما يقف العابد امام المعبود!

وانني لاشفق على نفسي وعلى امتي عند ما انظر بعين الفكر الى البناء الذى لم تضع فيه الامة حجرًا واحدًا والى الاتربة والخرائب والجماجم القائمة امامنا كالجبال والتي لن تزاح ويقوم مقامها البناء الجديد الا بعد ان تصبح عظامنا رميمًا!

لنعد الى سيداتي والى اقتراحهن. وهذا رأيي على وهنه

علاقة الوطن باللغة او اللغة بالوطن؟ هذا تحصيل حاصل وانني لأُعجب كيف يمكن لكاتب ان يطرق هذا الموضوع. ففي دماغي الصغير — الذى هو قبل كل شيء دماغ امرأة — لا يمكن للقوّة المفكرة ان تفهم من المسائل الا ما كان بسيطًا، جليًا، واضحًا، لهذا لا اراني مدفوعة الى تحويل هذه القضية من بسيطة الى مركبة لاضيع في لوالبها وتعاريجها.

فالوطن واللغة في فكرى واحد لا يتجزأ والعلاقة بينهما صريحة لا تحتمل التاويل فلا وطن بدون لغة ولا لغة بدون وطن وليس من حاجة لاثبات ذلك بالمنطق

اما البحث في خير الوسائل لترقية اللغة فيعجبني جدًا وفيه اقول:

ان ترقية اللغة في امة من الامم هو عمل من الاعمال الكمالية تتفرّغ لها الامة بعد ان يكتمل نموّها. فنمو الامم يكتمل عند ما يسود النظام ولا يسود النظام في مملكة بدون ان تستوى احوالها الاقتصادية في مستوى راق. ومتى أَثَرَتْ الامم تفرّغ افرادها الى الكماليات فاوجدوا العلوم والفنون وكل ما نشاهده من المميزات في الامم الحية

فترقية اللغة امر كمالي يأتي الينا صاغرًا بعد ان تنتظم احوالنا الاقتصادية وتأخرنا الاقتصادى هو عقدة العقد لا يحلها الا الانتاج وزيادة صادراتنا على الواردات. وهذا النقص في الانتاج لم يسببهُ الاحتلال الاوربي ولا الهجرة الصهيونية الى فلسطين ولا تقسيم سوريا الى ادارات مركزية. هذا النقص في الانتاج سببه الكسل ثم الكسل ثم الكسل

فاقتصادياتنا تئن من الاهمال كما تئن لغتنا وكما يئن كل شيء في بلادنا

قلت ان ترقية اللغة هو من الامور الكمالية فاذا اردنا ان نصل الى الكماليات يجب ان نهتم بالاوليات. هل رأيتم رجلاً يشترى اثاثًا وتحفًا قبل ان يستاجر بيتًا ياوى واهله اليه؟

فاذا وصلنا الى ذلك اليوم السعيد الذى نتمكن فيه من الاهتمام بالكماليات نتصرف الى ترقية اللغة على الاسلوب الذى ستقرأه ايها القارئ — ولكن بشرط ان لا تضحك.

١ نقيم معاهد علم وطنية تُعَلَّم فيها كل العلوم الحديثة بلغتنا، وتفوق المعاهد الاجنبية الموجودة حاليًا في البلاد لتتمكن من مزاحمتها والقضاء عليها

٢ نقيم هذه المعاهد باموال الامة اذ لا يجب ان نمزح ونعتمد في هذا الامر على الاباء اليسوعيين ولا على عمدة الكلية الكرام. ولا ان نسترسل في المزاح — بل في الدلال — ونطلب من الحكومات الاوربية، افرنسية كانت في سوريا او انكليزية في فلسطين، ان تبني لنا المعاهد الوطنية

٣ نوجد مجمع علوم كبيرًا عدد اعضائه مئتان بينهم الاطباء والكيماويون والمهندسون والفقهاء والموسيقيون والفنّيون فيتفرغون لترجمة الوف المجلدات ونقلها الى اللغة العربية في كل فرع من العلوم الحديثة وذلك لنتمكن من تعليم اولادنا كل العلوم باللغة العربية

٤ تقوم الامة بنفقات هؤلاء العلماء. لا اوروبا. لان الغرب لا يعطينا قطعة نحاسية الا ويدخل معها الى نفوسنا ما يعادل وزنها من السم. فلكي لا نتشبع من السم الاوربي ولكي لا نتهم بنكران الجميل وجب علينا ان نترك مهنة التسوّل

هذه هي خير الوسائل لترقية اللغة العربية!! ولما كانت هذه الوسائل صعبة لا تنال اليوم وكانت الامة تريد شيئًا تضعه على النار — كما تقول العامة — فانا ادلّ الذين تاكلهم الغيرة على اللغة على طريقةٍ وهي ان يقاطعوا المدارس الاجنبيّة بان يتولوا تعليم اولادهم في بيوتهم فهذه احسن وسيلة يجبر بها هذه المدارس على الاهتمام بلغتنا

ولما كان لا يوجد فينا شخص واحد يقدم على هذا الامر فانني انصح لقومي . . . بالصبر و . . . بالسكوت فهو اولى .

هذا وانني اطلب من سيداتي اعضاء الجامعة ان لا يغضبن لكوني لم اقل ان ترقية اللغة مسألة بسيطة فكل شيء اهون من غضبكن يا سيداتي

حياتنا الاقتصادية

١

يحكم عالمنا الاجتماعي على المرأة بعدم التعرّض لما لا يعنيها والاقتصار على ما يعنيها . وهو يحكم حُكمه هذا بداهة دون تروٍ ولا امعان . فاذا سألنا بعضهم ان يحدّد لنا هذا «الذى يعني والذى لا يعني» لما قدروا ان يحصروا نظريتهم ضمن نظام شامل عام . والحقيقة هي ان مداخلة المرأة في امور المجتمع امرٌ لا يمكن تحديده . فهو نسبي على الاطلاق

حتم المجتمع على نساء المزارع ان يفلحنَ الارض ويزرعنها ويحصدنها وان يقطعن الخشب وينشرنه ويحملنه من الجبال البعيدة الى المدن والقرى وان يسقنَ قطعان الماشية الى مسافة بعيدة لورود الماءِ والمرعى . ولم يقل العالم الاجتماعي في هذه الاحوال انَّ بشرة النساء الطريئة لا تحتمل اشعة الشمس وان ايديهنَّ الناعمة لا تقوى على رفع الفأس

كذلك تبعت نساء الغزاة رجالهنَّ الى ساحات القتال لطبخ الطعام

وجلب الماء وشحن السلاح. وتاريخ الغزوات القديمة ملآن باخبار النساء اللواتي ما قيل لهنَّ مرة: «ابقين في الحيّ فبنيتكن النحيفة لا قبل لها بالاسفار المضنكة»

وهكذا نرى النساءَ في المجتمع كله خاضعات — ككل الكائنات الحية — لاحكام الظروف. فامرأَة الجندى تشحن سلاحه، وامرأَة الفلاح تغرس كرمه، وابنه الراعي تجوب البرارى امامها سائقة منَّات الانعام

حدّثني اديب عن سياحة له في نواحي الاردن قال:

«رايت مرة في صحراء خاوية مقفرة فتاة في الخامسة عشر من العمر تسوق منَّات من النوق فكانت على ظهر ناقتها كاحد كبار الفرسان بقوام منتصب كالرمح ووجه عزيز فخور اما ثوبها فكان شبه قميص مفتوح من العنق الى اسفل الصدر ينمّ عن تكوين لم ترَ العين ابدع منه. فعجبتُ من وجود الفتاة منفردة في قلب تلك البادية واقتربت منها اطارحها السلام واسائلها عن حالها فكانت تجيبني بحرية ولطف ورقة وكياسة لم ارها في امراَة غربية او شرقية»

وما يقال عن نساء البداوة يقال عن نساء الحضارة. فنساء الطبقة الفقيرة في بلادنا قد زاولن منذ زمان المهن الاولية — ولا اقول المهن الحقيرة فليس من عمل حقير على الارض — كالخياطة والكوى والرضاعة والخدمة في البيوت ثم نزلت نساءُ الطبقة المتوسطة الى ميدان العمل فكان منهنّ المعلمات ثم الممرضات والصحافيات وبعض الطبيبات ولا تزال دائرة العمل تتسع امام من تضيق بوجههنَّ اقتصاديات الحياة فلا يمرُّ علينا عشر من السنين الا ونرى النساء الوطنيات مهتمات بمسائل الاقتصاد مقتنعات ان الحرية الاقتصادية هي امّ كل حرية بشرية

نرى مما تقدم ان حكم العالم الاجتماعي على المرأَة وحصره اياها ضمن دوائر ضيقة ليس من الشرائع التي لا تزول قبل ان تزول الارض

والسماء فحالة المرأَة خاضعة دائما وابدًا لحالة الاقليم، ولحالة المحيط، ولحالة الظروف اى انها نسبية في كل زمان ومكان، تابعة لناموس التطوّر كل التقاليد، وكل الشرائع التي اتّبعها الانسان منذ وجد الى اليوم. وليس لكائن ان يقول «هذا يعني المرأَة وذاك لا يعنيها» اذ كل ما يهمّ الامة يهم المرأَة فكل الابحاث التي يطرقها الرجل معتقدًا ان الوقوف عليها يفيده ويفيد الامة يمكن للمرأَة ان تطلّع عليها وتدرس جزئياتها وتلقنها لاولادها وتباحث بها صديقاتها

ان العراك الناشب اليوم في العالم هو عراك اقتصادى، والامم تدافع عن اقتصادياتها — رجالا ونساء — بشدة تشابه الكَلَب، فلا ندرى لماذا تبقى المرأَة عندنا بمعزل عما يجرى حولها ولماذا ينفرد نصف الامة في هذا العراك بينما يقف النصف الاخر متفرّجًا وهو قادر ان يؤدى مساعدة كبرى لذلك النصف الذى يناضل وحده في ازمة تقصم الظهور وتقضي على الانفاس

اقول هذا ناظرة الى الوجهة المادية من هذه المسالة التي لها وجهة ادبية لا يحب اغفالها. ان باطلاع الرجل وحده على معلومات نافعة واحتفاظه بها لنفسه ظلمًا للولد عميمًا.

اقول ان الرجل الذى يحتكر المعلومات لنفسه — ان كانت هذه المعلومات نظرية او عملية — يمنعها عن ولده شاء او لم يشأ. ان حاضنة الولد ومهذبته ومرشدته ورفيقته هي المرأَة اولاً والمراة آخرًا. فلو سألنا كل رجل من رجال عصرنا عالمًا كان، او تاجرًا، او لغويًا، كيف تعلمت ما تعلمه لاجاب فورًا:

«لقد تعلمت على حسابي»

ان لرجالنا الذين يتعلمون على حساب نفوسهم فضلاً كبيرًا لو ندرى. لانهم يبدأون حياتهم كما بدأَها جدنا الاول وعند ما يصلون الى زمن

العمل يرون المسافة التي قطعها الغربي فينشطون للحاق به، وكم من زلة، بل كم من كبوة وهفوة يلاقون الى ان يصلوا — وغالبا لا يصلون قبل الخمسين — الى حيث وصل ابناء الغرب. فهم يختبرون في مدة ثلاثين سنة ما اختبره الغربيون في اجيال، على انهم ينسون جهادهم الطويل ويتركون اولادهم يتخبطون في مثل ما تخبطوا هم به، وبكلمة اخرى يتركونهم «يتعلمون على حسابهم»

وانها لهفوة كبيرة يعرف مقدار ضررها كل من تعلم على حساب نفسه علينا ان نسلم لاولادنا اختباراتنا ومعلوماتنا، اعني على اولادنا ان ياخذوا عنا خلاصة ابحاثنا طول العمر فيبدأون حيث انتهينا لا حيث بدأ رعمسيس ويكون جهادهم في الحياة خفيفًا، لذيذًا، منظمًا، لا مضنكًا، قاتلا. وليس من يعدّ الولد للعراك في الحياة مثل امه. فكيف تعدّه هذه الام للّحاق بابيه اذا كان بين رقيها ورقي زوجها بون هو نتيجة اختباره ثلاثين سنة ونتيجة حصرها في دائرة صغيرة من التافهات تعرفها الانعام بالسليقة

ولقد بدأنا نشعر بحاجة الى الامور الجدّية كما اصبحنا نملّ من الابحاث النسائية الضاربة دائما وابدًا على انغام الخيال ووصف الطبيعة وواجبات المراة التي سمعناها الوفًا من المرّات وكدنا نكره من اجلها الخيال، والطبيعة، حتى والمرأة

٢

هل رأيتم مرةً حديث نعمة يقلب الاغنياءَ والامراء؟ هل نظرتموه مرتجفًا مرتبكًا غريبًا في قصره وبين ضيوفه حتى وفي ثيابه؟ فكما يلقّب من ينام فقيرًا ويصبح غنيًا «حديث النعمة» يُلقّب من يدفع بغتةً من ظلمة القرون الوسطى الى نور العلم العصرى «حديث العلم» و «حديث التمدن» و «حديث الرقي»

ان كل ما نأتيه يجيء ناقصًا، متقلقلاً، مرتجفًا. ذلك لاننا حديثو العهد في هذه المدنية الغربية التي طمى سيلها علينا فاضطررنا الى قبولها دون استعداد نحن حديثو العهد في هذه المدنية وحداثة عهدنا تظهر في كل مظهر من مظاهر حياتنا. في حياتنا السياسية وحياتنا العلمية وحياتنا الفنية. وقبل كل شيء نحن حديثو العهد في حياتنا الاقتصادية والبلاءُ العميم هو ان مجموعنا يجهل ذلك، فهو اذا تألم من الانحطاط الملم بنا يحوّل وجههُ شطر الحياة السياسية والحرية السياسية ناسيًا ان الحرية الاقتصادية هي الاصل وما بقي فهو الفرع لو كان لنا حياة اقتصادية لوقفنا بنفوذنا امام العالم المتمدن وقلنا نريد او لا نريد. لو كان لنا كيان اقتصادي لكان لنا كيان سياسي. ولو كان لنا كيان سياسي لما قضينا كل هذه القرون ونحن جسر يمرّ عليه الفاتحون ذهابًا وايابًا

قلت جسرًا لا وربي! الجسر شيء قويّ يتعهدهُ من يمرّ عليه بالعناية حتى لا ينكسر بعد مروره فينقطع عليهِ خط الرجوع! نحن طنفسة «والتعبير مولّم» على باب هذا الشرق داستنا منذ القدم اقدام الغزاة والفاتحين والمتاجرين

نحن لم نفهم مرةً معنى الحياة ومعنى الكيان فعشنا حياةً شخصيةً فردية لا يهمّ الفرد منا اذا عاشت الامة او ماتت. نعم اننا عشنا كتجار مستقلين تنحصر حياتهم في صندوقهم فكانت هذه العلامة من ادلة انحطاطنا واى انحطاط اكبر من فقد التضامن والتكافل بين ابناء البلد الواحد

ان لهذا الانحطاط اسبابًا لن اتوسّع في البحث فيها كي لا اتعدّى دائرة بحثي. على ان اكبرها هو كوننا عشنا في بلادنا غرباءَ لا نشعر بالوطنية ولا بالقومية. فكيف يُسأل من لا عقار له عن تعهّدِ عقارهِ؟ اما نتائج انحطاطنا فواضحة عمّ بلاؤُها سوريا ولبنان في الحرب وبعد الحرب فرأَى العالم مبلغ فهمنا للحياة ومبلغ تقديرنا للقومية وللحياة القومية

انحطاطنا اساسي لا يزيله جلاءُ «الاتراك» ولا الاحتلال الانكليزى ولا الفرنسي حتى ولا احتلال الملائكة! ان حريتنا الاقتصادية هي الاساس الذى تبنى عليه بناية الوطن فاين المشتغلون في هذه البناء! اين الدوائر الاقتصادية تأتينا بالاحصآت عن حركة الصادر والوارد؟ اين هذه الدوائر تظهر لمجموعنا بالارقام ان البلاد التي تصدّر الى الخارج ا وتستورد ٦ مصيرها الخراب لقد اوجدت لنا المفوضية العليا (دائرة افتصادية) ولكن هذه الدائرة مهما قيل فيها فقد انشئت بجهاد الفرنسيين واجتهادهم. هذه الدائرة هي ككل المشاريع في بلادنا — اجنبية. هي كشركة الترام والماء والمرفأ والخطوط الحديدية وكل شيء هذه الدائرة أُنشئت لان الفرنسيين شعروا بالحاجة اليها. الذى يحسّ بالحاجه الى اى امر من الامور ربما يكون قد تعوّد على استعماله. وبما اننا ما شعرنا الى اليوم بضرورة دخول التجارة من ابوابها فنحن لم نزل اطفالاً فيها

سيقول بعضهم ما هذا الادعاء؟ ألا يوجد عندنا تجار؟ وفلان وفلان وفلان؟ من اين جمعوا هذه الثروة

جوابي على هذا ان التاجر الذى يشتغل لنفسهِ ليس بتاجر. التاجر الحقيقي هو الذى يشتغل لنفسه وللامة. التاجر الحقيقي يحسب ان الذى لا ينبع يفرغ وان الامة التي تدفع لاوربا — مثلا — ستة ملايين وتقبض منها مليون واحد ستفلس بعد سنين معدودة. وما ربح التجار المعدودين المشتغلين ببيع البضائع الاوربية الا كربح القرد الذى كان يلحس المبرد متوهمًا ان فيهِ الحياة وهو بالحقيقة لم يكن يلحس الا دماء قلبه

لا ازال اذكر يوم انتهت الحرب كيف كان فرح الناس يوم بدأُوا ينظرون جبال البضائع الاوربية مكدّسة في الجمارك. انهم فرحوا لدرجة جعلتني اعتقد انها تأتينا مجانًا! وانني اقابل الآن بين تأخرنا وتقدم الاوربي عند ما اقرأ اسبوعيًا في التلغرافات الفرنسية هذه العبارة:

«استوردت فرنسا في الشهر الماضي كذا وكذا من المواد الاولية الفلانية اى بنقص كذا عن الشهر الذى مثلهُ من العام الماضي»

ولقد قامت انكلترا وقعدت يوم اعتصب المعدّنون واضطرت الحكومة الى شراء الفحم من الخارج فكان العالم يتتبع اخبار ذلك الاعتصاب الاسود بنفس الاهمية التي كان يتتبع بها اخبار الحرب

لقد مات منا في الحرب جوعًا مئة وثمانون الفًا، فلو كنا نفهم ماهية الاقتصاديات في حياة الامم لفكرنا يومًا ان قوام الاقتصاديات هو الانتاج وان الانتاج يرتكز على اليد العاملة وان موت اليد العاملة هو نذير الموت لمن لم يمت!

لو كنا نفهم معنى القوة الاقتصادية لحولنا اهتمامنا بعد الهدنة الى وضع الاسس المالية لحياتنا المقبلة، ولانصرفنا عن الاهتمام بالسياسيات — هذه السياسيات التي لا افتكر بها الا واغرب في الضحك وهو ضحك كالبكاء — واسسنا الاحزاب الاقتصادية بدل الاحزاب السياسية

نعم لو اننا نعرف ماهية الحياة لدخلناها من ابوابها وبدلاً من تأليفنا الوفود للاحتجاج على تعيين هذا الحاكم وعلى تأليف تلك الادارة وذلك النظام كنا نرسل الوفود الى اوربا للتوسل اليها بانهاء المسألة الشرقية التي بانتهائها تنتهي الحرب، وبانتهائها تعود العصابات الى السكينة، وبانتهائها يستبدل المدفع في سهولنا بالالات الزراعية

لو كنا نعرف ماهية الحياة لعملنا مجتمعين على احياء موسم الاصطياف وحوّلنا نصف رؤوس اموالنا التي تذهب وتسمن صناديق الاوربيين الى صناديق شركات وطنية تشتغل لتسمّن جيوب الامة

يقولون ان التجارة واقفة! نعم انها واقفة لان المشترى هو الزارع والصانع وهذان — اذا وجدا — لا يشتريان لانهما لم ينتجا شيئًا واذا انتجا فثمن ما ينتجانه زهيد امام ثمن البضائع الاوربية التي زادت

اثمانها كثيرًا بسبب نقص اليد العاملة التجارة واقفة لان الاهالي مفلسون ولا يعود دولاب التجارة الى حركة طبيعية الا اذَا تساوت في البلاد حركة الصادر والوارد. لتقف هذه التجارة! هذه التجارة التي تغطينا بمنسوجات الغربيين! لتقف هذه التجارة الى ان يشعر الشعب انهُ بحاجة الى الانتاج فيحوّل قواه الى ما يدرّ عليهِ المال. ولا حياة ولا حرية ولا استقلال بغير المال

٣

لماذا نحن متأخرون؟

ولماذا تتحكم الامم في رقابنا؟

ولماذا نحن عبيد للغرب والنسبة بيننا وبينه لا تستلزم وجود مثل هذا الفرق؟

ولماذا ظُلمنا فقدّر علينا ان ندفع ثمن هفوات كل الاجيال التي تقدمتنا، وهذه تركيا واحدة منها؟

كثيرون يتساءلون، وربما تمضي السنون فتطوينا الارض ويظلّ احفادنا واحفاد احفادنا يردّدون «لماذا»؟

* * *

على ان الوقت حَرِج، حرِجٌ جدًّا لمن يفهم معنى القوّة

الوقت حرج ولا يرفع الاحمال عن اكتافنا سوى تقدمنا الاقتصادي. البلاد غارقة بالدين وهذا المدُّ لا يزال يعلو رويدًا رويدًا وعما قليل يأخذ بخناقنا. ونحن لاهون بالكلام نقضي اوقاتنا بالانتقاد ضمن جدران بيوتنا، وبالاستبشار بتقلص ظل الحكم الفلاني لنستبدلهُ بالحكم الفلاني. كأَن في امكان الغريب — ولو كان من سكان السماء — ان يعاملنا كما يعامل نفسهُ، او ان يبدل بقوة سحرية هذه الحالة التي اوجدتنا فيها هفوات الذين تقدمونا

قضى التاريخ بان تنفصل بلادنا عن تركيا. وما حوادث التاريخ سوى اعمال حسابية ذات قواعد مقررة لا سبيل الى الخطأ فيها

فكما نقول ان الارقام الفلانية تعطي المجموع الفلاني هكذا يمكننا ان نقول ان مجموع الحوادث — البعيدة والقريبة — التي توالت على الدولة التركية قضت بفصلنا نهائيًا عن جسم هذه الدولة، فانفصلنا، ولكننا لم نزل نحمل فوق اكتافنا قسمًا مهمًا من هفوات تركيا ومن ديونها

وقد رافق هذا الانفصال حوادث سياسية مشومة قضت بوجود جيش احتلال سندفع نفاقته المادية والادبية عاجلاً او آجلاً اما النفقات المادية فهي الملايين التي يقوم لها البرلمان الفرنسوي ويقعد. واما النفقات الادبية فهي دماء ابناء السين، فكلما رفعنا رأسنا بطلب حق — والنفس طلاّبة — يهيب بنا هاتف في داخلنا فيقول (انظروا الى الدماء انها لا تزال طريّة!)

لو علم بعض الذين اندفعوا من اهل البلاد لتمثيل تلك الفاجعة ان روايتهم ستترك لنا هذه النتيجة لفضلوا ان يمشوا على الجمر قبل ان يلعبوا ادوارها. اقول هذا لانني متيقنة ان الكثيرين من الذين ساروا مع التيار انما ساروا عن طيب قلب وصفاء نيّة.

اقرأ من حين الى آخر في الجرائد السيارة فصولاً عن ميزانية لبنان الكبير وعند ما اصل الى الانتقادات على بعض النفقات، التي لو جمعت كلها لما بلغت المليونين يتيه فكري في عالم الحقائق فارى هذين المليونين قطعًا ذهبية تؤلف كومة صغيرة، وارى بجانبها جبلاً عظيمًا هو ذلك المليار!

ذلك المليار يجب ان نضع حدًا لانفاقه. يجب ان تجتمع كلمة السوريين واللبنانيين الموجودين في اقطار الارض حول امر واحد وهو ان يطلبوا من الذين بيدهم زمام العالم ان يشفقوا على هذا القطيع الصغير

فيكفوا عنه هذه المناورات الحربية ليتخلص من نفقات الحملة الحاضرة ومن ويلات كل حملة

هذا ما يجب عمله اولا

وبعد، يجب على الامة ان تتعلم شيئًا غير الكلام الفارغ فتهتم بامر حيوى هو ايجاد نسبة بين الصادرات والواردات. يجب على الامة ان تنتج فلا ترسل مليونًا الى اوربا الا بعد ان تصدر من الحاصلات ما توازى قيمته المليون

الاهتمام بالانتاج ايها الوطنيون اهم من الاهتمام بحذق النفقات من ميزانيه العدلية — مثلا .

الانتاج قبل السياسة الخارجية وتتبع المناوشات في لندن وباريس ووشنطن

الانتاج قبل قراءة اسعار القطن لان البلاد التي تستخرج حاجتها من اكل وشرب ولبس لا يمكنها ان تتأثر من سقوط الفرنك وارتفاع الدولار لان الانتاج فوق كليهما

الانتاج مصدر العزّ، فبدلا من ان نقضي حياتنا بالتذلل امام الاسواق الاوربية نصبح سادة في اسواق بلادنا

* * *

قرأت امس خبرًا في جريدة مآله ان اهالى مقاطعة كولومبيا بدأوا يضطهدون السوريين وحجتهم ان السورى يزاحم الوطني على خيرات البلاد. وهذه الحركة ضد السوريين ليست بالجديدة فقد سبقها اخوات لها في اماكن كثيرة

ان الاميركي لا يضطهد المهاجر الايطالي ولا المهاجر الالماني فلماذا يضطهد السورى واللبناني؟ ليس في هذا سرّ عميق والمسألة بسيطة:

يذهب الايطالي الى اميركا فلا ينقطع الى التجارة — شأن السوري — بل يشتغل في الارض فيستخرج كنوزها وهو بهذا يساعد اهل البلاد التي يستظل بظلّ علمها على زيادة ثروة البلاد اى تكثير الصادرات خلافاً للسوري الذى يتاجر بالاصناف الاوربية فيأخذ من امرأة الفلاح الكولومبي في اسبوع واحد ما حصله زوجها في عدة اشهر وانما اوردت هذا المثال البسيط لاظهر اننا شعب خسرنا مزيّة اولية اساسية لكل امة تريد النجاح . وهذه المزية هي الانتاج والعمل ضمن بلادنا

من الغريب ان اتناول هذه الابحاث وانا امرأة ولكنّ عذري حبّ بلادى فهو يدفعني الى ولوج هذا الباب الذى ما سبق لنساء البلاد ان دخلنَهُ . . .

وهنا يقف قلمي لأتامل بالالوف المؤلفة من ابناء وطني الضاربين في كل بقعة من بقاع الارض ركضًا وراءَ الرغيف . والرغيف هنا في قلب هذه البلاد .

الثروة هنا وليس من يمدّ يديه ليتناولها

يعترض المهاجر بان البلاد فقيرة لا تقوم بسكانها !

وليس من فقر الا في قلوبنا وفي نفوسنا

النفوس الفقيرة تأبى الجهاد والنفوس الغنية تجاهد الى ان تحيا حياة حرّة او تموت !

والحرية يا اهل الوطن هي ان يحصل كل انسان على ما يكفيه دون ان يحمّل الناس اثقاله

Современная арабская литература представляет живой и развивающийся организм. Составление и печатание хрестоматии шло довольно медленным темпом; в это самое время постепенное восстановление связи с востоком позволяло иногда получать новые издания прежних авторов, а нередко приносило интересные произведения даже неизвестных раньше писателей. Немногое удалось использовать в ходе работы, но большую часть приходилось безжалостно откладывать, чтобы не нарушать установленного плана и состава, хотя новый материал делал его иногда устарелым к самому моменту появления в свет. В хрестоматии современной литературы едва-ли может быть иначе и, если бы тем же самым лицам пришлось ее составлять в 1928 году, то конечно и состав, и план вероятно был бы не такой, как принятый ими в 1926 году.

Настоящая хрестоматия представляет первое после войны издание с таким большим количеством сплошного арабского текста в Ленинграде. Если его оказалось возможным осуществить, то особенной благодарности заслуживает за это Ленинградский Восточный Институт имени А. С. Енукидзе, предоставивший финансовые возможности, и директор Государственной Академической типографии В. В. Нордгейм, не мало помогший своими техническими указаниями и непосредственным, как всегда внимательным и вдумчивым, наблюдением над печатанием. Вторую часть издания составит специальный словарь к хрестоматии, который в настоящее время готов к печати.

Выпуская в свет свой общий труд, составители хотели бы надеяться, что он пробудит в нашей стране интерес к изучению современной арабской литературы и покажет, что арабы — народ не только со славным прошедшим, но и светлым будущим.

И. Крачковский.

Ленинград
Январь 1928.

права, доказывая, что спасение не в эмиграции и бегстве с родины, а в умелом подходе к ее неиспользованным богатствам.

III.

Таков состав настоящей хрестоматии. Главные недостатки его объясняются тем обстоятельством, что работа была начата еще в те годы, когда отсутствовала возможность сколько-нибудь регулярных сношений с востоком и приходилось расчитывать только на материал, доступный в Ленинграде. Трудности встретились в этом направлении не малые. Достаточно сказать, что к моменту завершения рукописи ни в одной из академических библиотек Ленинграда не было ни одного из изданий, откуда взят материал; он весь был основан на средствах одной частной библиотеки, без которой издание даже и в таких размерах нельзя было бы осуществить. С возобновлением сношений, на помощь пришли некоторые местные деятели арабского востока, в особенности египетский писатель Махмӯд Теймӯр, с готовностью откликавшийся на все просьбы о справках. Не всегда, однако, даже его усилия увенчивались успехом: несмотря на ряд обращений, не удалось установить, например, дат рождений некоторых из современных писателей, относительно других показания расходились и выбор надо было основывать на чисто случайных признаках. При установлении текста также было не мало затруднений. Никаких критических изданий писателей у арабов до сих пор не существует; приходится руководствоваться тем, что доступно в данный момент, не всегда имея даже возможность сличать существующие издания. Явные опечатки, конечно, исправлялись, но непоследовательность передачи, часто у одного и того же автора (например, в собственных европейских именах) приходилось сохранять и в хрестоматии. Возможно, что некоторые неясности или недоразумения в тексте объясняются неудовлетворительностью тех изданий, которые надо было класть в основу принятого текста.

подлежащих обсуждению сюжетов, но в то же время подчеркивает, что женщина-писательница не должна теперь посвящать все свое внимание этой стороне, на основании того довода, что она — женщина; время разграничения между темами мужскими и женскими прошло безвозвратно. На своем примере она доказывает, что о всяких темах имеет теперь право судить писательница, притом нисколько не отказываясь ни от высокой литературной формы, ни от безукоризненного языка. Все ее произведения, помещенные в хрестоматии, относятся к последним годам, все посвящены Сирии, с трудом залечивающей свои послевоенные раны. В рассказе «История ал-Хайфā из Дейра» (стр. 238—242) проходит перед нами трагедия молодой ливанской женщины, жизнь которой разбита социальными условностями еще больше, чем последствиями войны.[1] «Вавилон в Сирии» (стр. 243—245) дает нам представление о тех запутанных политических условиях, среди которых живет Сирия, с бесчисленными партиями, внутренним разделением и раздорами.[2] В речи «На память об арабском языке» (стр. 245—248), произнесенной в «Женском обществе», она справедливо доказывает, что пока не переменятся социальные и политические условия, трудно думать о средствах к поднятию роли арабского языка в школах и в обществе.[3] «Наша экономическая жизнь» (стр. 248—258) начинается с остроумного рассуждения о том, имеет-ли право женщина рассуждать о не-женских вопросах и может ли существовать на логических основаниях такая классификация.[4] Характеристика экономических факторов Сирии и необходимость уделять им больше внимания в интересах самостоятельного развития страны очень напоминают те мысли, которые высказывал относительно Египта на 30 лет раньше Неджиб ал-Хаддад: Сельма Са'иг

---

[1] Текст дается по изданию النسمات بقلم سلمى صائغ جمع جرجى نقولا زيدان, Бейрут, 1923 г., стр. 43—48.

[2] Там же, стр. 83—85.

[3] Там же, стр. 163—167.

[4] Там же, стр. 110—121.

лась в Назарете, получила свое образование на Ливане и в Бейруте, но живет преимущественно в Египте. Несмотря на сравнительную молодость, она быстро приобрела большое имя целым рядом отдельных сборников, в которых объединяет свои статьи, лекции и стихотворения в прозе. Кругозор ее произведений значительно шире, чем у М. Х. Нāсыф; в области разбора литературных явлений и подхода к ним она обнаруживает дарования и критика, и историка литературы. Ее первое крупное произведение, напечатанное в 1920 году, было посвящено анализу творчества «Исследовательницы из пустыни»; оно представляет одну из лучших историко-литературных монографий в области ново-арабской литературы. Статья ее «Лоти, отошедший, оставшийся» (стр. 219—224) характеризует современное отношение арабов к европейским писателям, далекое уже от того слепого поклонения, с которого начинали первые представители ново-арабской литературы, и наоборот проникнутое духом здоровой критики.[1] Для представления о ее стихотворениях в прозе взяты предисловия к трем частям ее сборника «Мрак и лучи» (стр. 224—227)[2] и два произведения из него: «Песнь реки ас-Ṣафā» (стр. 227—231) и «У ног сфинкса» (стр. 232—237).[3]

Не столько в сторону чистой литературной формы и историко-литературных изысканий, сколько в область социально-экономических отношений влекут интересы современную сирийскую писательницу Сельму Ṣā'иг.[4] Она не уклоняется от рассмотрения женского вопроса, поскольку он входит в общий круг

сборников ее статей имеется заметка L. Massignon в Revue du Monde Musulman, т. LXII, 1925 г., стр. 210.

[1] Текст взят из ее сборника الصحائف بقلم ميّ, Каир, 1924 г., стр. 94—103.

[2] В основу положено издание الظلمات واشعة بقلم ميّ نشرته مجلة الهلال, Каир, 1923 г., стр. 3, 47, 98.

[3] Текст там же, стр. 15—23 и 147—157.

[4] Несколько замечаний о ней, с ее портретом, в упомянутой книге K. T. Khaïrallah, «La Syrie», стр. 112—113.

тогда, когда самой жизнью этот вопрос стал разрешаться в сторону раскрепощения женщины во всех отношениях. Одной из первых писательниц, выступления которой привлекли всеобщее внимание, была Мелек Хыфни Нāсыф (1886–1918), писавшая обыкновенно под псевдонимом «Исследовательница из пустыни».[1] Она была дочерью довольно известного египетского литератора, одно время профессора Египетского Университета в Каире; обстоятельства ее личной жизни сложились неудачно, и может быть это и явилось причиной того, что большинство ее произведений посвящено вопросам, связанным с положением женщины в мусульманском мире, в частности в Египте. Много внимания она уделяла педагогическим темам, так как и сама была одно время учительницей, но основную борьбу она ведет по той же линии, как известный «Освободитель женщины» — Қāсим Амūн (1865—1908);[2] в своих выводах она является обыкновенно более сдержанной. Обе статьи, помещенные в хрестоматии взяты из ее первого сборника статей «Женское»[3] и трактуют о «Брачном возрасте» (стр. 210—214) и «Недостатках мужчин» (стр. 214—218).[4]

Ее духовной ученицей является наиболее популярная современная писательница Марьям Зийāде (род. ок. 1895 г.), пишущая под псевдонимом Мейй.[5] Она дочь журналиста, роди-

---

[1] О первом ее выступлении см. у меня в упомянутом предисловии, стр. XV.

[2] Отсутствие его произведений в хрестоматии объясняется тем, что одна его книга переведена целиком на русский язык (Қāсим Амūн. Новая женщина. Перевод со 2-го арабского издания и предисловие Н. Ю. Крачковского. СПб. 1912 г.); представление о его стиле могут дать те отрывки, которые помещены в «Начальной арабской хрестоматии» К. В. Оде-Васильевой (Л. 1926 г. стр. 10—14 и 23—24).

[3] С некоторыми сокращениями сборник переведен на немецкий язык O. Rescher'ом (Über die ägyptische Frauenfrage. Aufsätze von Melek Hifni Nâçif. Aus dem Arabischen übersetzt. Konstantinopel, 1926).

[4] Текст дан по ее первому сборнику النسائيات مجموعة مقالات نشرت في الجريدة في موضوع المرأة المصرية بقلم باحثة البادية الجزء الاول, Каир, 1910 г., стр. 31—35 и 61—65. Перевод в упомянутом издании Rescher'a стр. 43—50 и 87—94.

[5] Ее общая характеристика дана E. Rossi в статье «Una scrittrice araba cattolica Mayy» (Oriente Moderno, т. V, 1925 г., стр. 604—613). Об одном из

сдвиг в этой области, позволяющий надеяться, что скоро и драматическая литература займет достойное место в арабском мире, избавившись от оков слепой подражательности. Муḥаммед Теймӯр является и первым серьезным театральным критиком и историком арабского театра. Из этой области взята помещенная в хрестоматии статья «ʿAзӣз ʿЫд», (стр. 194—200), которая дает характеристику одного из наиболее выдающихся современных арабских артистов и режиссеров.[1] Младший брат, Маḥмӯд Теймӯр, сосредоточился на новеллистике и выпустил уже три тома мелких рассказов.[2] К своей задаче он подходит сознательно и вдумчиво: в теоретических предисловиях он старается обосновать свои взгляды и смотрит на свою литературную миссию, как на выполнение долга перед народом. Все его рассказы бытового типа, с сюжетами, взятыми из жизни различных слоев египетского населения. Одним из таких является и помещаемый в хрестоматии рассказ «Путешественник» (стр. 201—209).[3]

Последний отдел хрестоматии посвящен современным арабским писательницам. Выступление женщин на арену литературной деятельности началось, конечно, раньше того периода, который захватывает хрестоматия, но обыкновенно они оставались в области поэзии или специфически «женских» сюжетов.[4] Женский вопрос всегда стоял очень остро на арабском востоке, преимущественно он приковывал внимание женщин и, понятно, что расширение круга их сюжетов могло произойти только

---

1 Перепечатывается по тексту во втором томе посмертного собрания его сочинений مؤلفات محمد تيمور الجزء الثانى حياتنا التمثيلية, Каир, 1922 г., стр. 159—167.

2 О двух первых сборниках см. заметку G. Kampffmeyer'a в Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen, XXVIII, 2, 1925 г., стр. 306—308. Один рассказ переведен на итальянский язык C. A. Nallino «Maḥmūd Bey Taymūr. ʿAmmi Mitwalli» (Oriente Moderno, т. VII, 1927 г., стр. 391—400). О третьем сборнике статья G. Kampffmeyer'a в Mitteillungen des Seminars für Orientalische Sprachen, XXIX, 2, 1926 г., стр. 251—256.

3 Текст взят из первого тома его рассказов الشيخ جمعه وقصص اخرى, Каир, 1925 г., стр. 126—137.

4 О начале этого движения см. в моем предисловии к переводу книги Кāсима Амӣна «Новая женщина», СПб., 1912 г., стр. III—IV.

стов.[1] Обладая тонким юмором и легким, изящным слогом, он любит часто от сюжетов литературных обращаться к темам этико-социальным, облекая свои мысли в форму небольших новелл-фантазий. Таковы оба напечатанные в сборнике произведения — «Покой» (стр. 169—171)[2] и «Сила воли» (стр. 171—176).[3]

Вообще, первую четверть XX века можно считать периодом, когда в арабской литературе особенное внимание начинают привлекать мелкие формы новеллы — повесть и рассказ. Появляется ряд писателей, посвящающих свое творчество этой области; появляются попытки разобраться в теоретических вопросах и постепенно создаются произведения, которые можно считать оригинальными; этот род литературы получает надлежащее место. Наиболее интенсивно это движение замечается в Египте. Одним из писателей, искавших новых путей, был умерший уже ʿЫсā ʿУбейд. Его «Дневник Ḫикмет Хānум» (стр. 177—193) интересен и литературными достоинствами, и тем, что он живо рисует переживания египетской женщины, постепенно выходящей из стен своего дома на широкую общественную арену, в связи с событиями политической жизни в Египте в апреле 1919 года, когда женщины впервые открыто стали принимать участие в политическом движении и демонстрациях.[4]

Большие заслуги перед новой литературой имеют братья Теймӯры — безвременно умерший Муḥаммед (1892—1921) и продолжающий действовать Махмӯд (род. в 1894 г.). Первый пробовал свои силы в различных областях — и поэзии, и новеллистики, где создал некоторые заслуживающие внимания образцы, но в конце концов сосредоточился на театре. Ему принадлежат лучшие бытовые комедии и драмы, которые знаменуют сильный

---

[1] О двух его сборниках писал G. Kampffmeyer в Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen, XXIX, 2, 1926 г., стр. 241—242.

[2] Текст взят из сборника الادباء الخمس جمعه اسمعيل عبد الحميد, Каир, без года, стр. 109—111.

[3] Текст там же, стр. 130—136.

[4] Текст взят из сборника его произведений مجموعة قصص احسان هانم مصرية عصرية تاليف عيسى عبيد, Каир, 1921 г., стр. 72—90.

Martin Sprengling, "Michael Naimy & the Syrian Americans in Modern Arabic Literature" The New Orient: I. The Near East (Chicago 1933) 313-24

Letter in Eng. from Nu'aima for Na'ima I — XVIII — to Krachkovskii with introd. & notes, Biog. data & literary ideals Die Welt des Islams (Jan. 1952)

Хаддад. В живой и остроумной сценке «В доме покойника» (стр. 158—162) он рисует те условности и церемонии, от которых современные арабы не могут освободиться даже в самые тяжелые минуты жизни, даже находясь в странах европейской культуры.[1] В Америке живет и писатель-поэт Михаил На'ыма, приобретающий за последние годы особенную известность как литературный критик, который не боится выступать иногда против общепризнанных авторитетов, как он показал в связи с юбилеем современного поэта Ахмеда Шауки.[2] Может быть не лишне отметить, что На'ыма получил образование в русских школах Бискинты (на Ливане) и Назарета, а затем кончил курс полтавского учительского института.[3] Из России он переехал в Америку, где занимался юриспруденцией в Вашингтонском университете, получив диплом в 1916 году. В сборнике помещено предисловие к его драме «Отцы и дети» (стр. 163—168), которое не дает точного представления о самом произведении, но очень важно по принципиальным, затронутым в нем вопросам о развитии театрального дела у арабов, о разговорном и литературном языке на сцене и т. д.[4]

born 22.xi.89

influence above all Dostoyevsky

early poems in Russian

1911 in Walla Walla

1916 A.B. Univ. of Washington

1918 US Army in France

poems in NY Times

1920 Arabic Press. Naimy Secy

'Аббас Махмуд ал-'Аккад (род. в 1889 г.) считается в современном Египте одним из популярных критиков и публици-

---

[1] Текст взят из сборника произведений арабско-американских писателей ما وراء البحار او النبوغ العربى فى العالم الجديد عنى بجمعه ونشره توفيق الرافعى, Каир, 1922 г., стр. 178—186.

[2] Об этом юбилее см. статью M. Guidi «Le onoranze al poeta Egiziano Shawqī ed i loro significato politico» в журнале Oriente Moderno, т. VII, 1927 г., стр. 346—353.

[3] Об отношении арабов к России и русской литературе см. мои статьи «Русские писатели в арабской литературе» (Вестник Иностранной Литературы, 1910 г., декабрь, стр. 39—41), «Арабские переводы басен Крылова» (Библиографические Листы Русского Библиографического Общества, Лист I, 1922 г., январь, стр. 6—8), «Ризкаллах Хассун (1825—1880), переводчик басен Крылова на арабский язык» (Восточный Сборник, I, 1926 г., стр. 13—36), «Арабский вопрос и русские симпатии» (С.-Петербургские Ведомости, 1909 г., № 146, 3 июля), «В Каире» (Петроградские Ведомости, 1915 г., № 198, 4 сентября).

[4] Текст взят из сборника его критических статей الغربال مجموعة مقالات نقدية بقلم مخائيل نعيمه, Каир, 1923 г., стр. 30—37.

The Sieve

(стр. 139—142)[1] и «Исцели меня, богиня долины» (стр. 142—145).[2]

Эмигрантом является и второй, почти столь же популярный писатель арабской современности, Джебрāн Джебрāн (род. в 1883 г.). Сириец по происхождению, он провел годы юности частью в Нью-Йорке, частью в Париже, где занимался живописью, которой и теперь посвящает не меньшее время, чем литературе, часто иллюстрируя свои собственные произведения.[3] Последние годы он живет главным образом в Нью-Йорке, где стоит во главе основанного им кружка «Писательский союз», объединяющего арабских литераторов в Соединенных Штатах. Его первыми произведениями были небольшие рассказы, изданные двумя сборниками, и повесть «Сломанные крылья» с сюжетами из сирийской, частью прошлой, частью современной жизни. Из последней повести, которая одинаково интересна и бытовыми подробностями с освещением женского вопроса, и картинами природы, в хрестоматию включены две главы: «Рука судьбы» (стр. 146—149) и «Между Астартой и Христом» (стр. 149—154).[4] Впоследствии Джебрāн перешел от повестей к стихотворениям в прозе и этюдам, как и ар-Рейḥāнī: из этого периода в хрестоматию включен набросок: «Люблю в людях крайности» (стр. 154—158).[5]

Беллетристом по преимуществу является другой «американский» писатель сирийского происхождения, ʿАбд ал-Масīḥ

---

[1] Оно переведено мною (вместе с другим стихотворением в прозе) в журнале Восток, книга I, 1922 г., стр. 48—54. Текст в сборнике الريحانيات وهى مجموعة مقالات وخطب وشعر منثور تاليف امين الريحانى, Бейрут 1910 г., ч. II, стр. 183—185.

[2] Оно переведено в упомянутой книжке «Амин Рейхани. Избранные произведения», П. 1917, стр. 115—118. Текст в упомянутом сборнике, стр. 193—196.

[3] Снимок с его автопортрета в молодые годы воспроизведен в книге K. T. Khairallah, «La Syrie», Paris, 1912, при стр. 108.

[4] Текст взят по изданию الاجنحة المتكسرة تاليف جبران خليل جبران, Нью-Йорк, 1912 г., стр. 12—18 и 106—116.

[5] Впервые он помещен в каирском журнале الهلال за октябрь 1925 года, стр. 35—37, откуда и взят текст.

наших современников, в большинстве случаев действующих и теперь. Двенадцатилетним мальчиком покинул ар-Рейḥāнī свою родину Сирию для Соединенных Штатов, в Америке он начал литературную деятельность — сперва по английски, затем уже по арабски. Его излюбленной формой являются, с одной стороны, мелкие статьи — наброски на самые разнообразные темы — и этические, и литературные, и политические, а с другой стороны, впервые в широком объеме создаваемые стихотворения в прозе, в которых он объявляет себя находящимся под влиянием Walt Whitman'a.[1] Трудно сказать, чем он больше является в этих произведениях — арабом или европейцем, но уже турецкая революция, а особенно мировая война произвела сильный сдвиг в его миросозерцании. Он окончательно вернулся на родину, совершил большое путешествие по Египту, Аравии и Месопотамии, в результате чего появилось двухтомное описание Аравийского полуострова, под названием «Арабские цари»;[2] в настоящее время он готовит историю Неджда и ваххабитов. Предисловие к его путешествию, включенное в хрестоматию (стр. 125—139), не только дает блестящий образец стиля и хорошее представление о самой книге, но в то же время очень важно по автобиографическим признаниям автора, характерным и для него самого, и для всего поколения литераторов — эмигрантов.[3] Из его стихотворений в прозе взяты два, типичных для более раннего периода его творчества до 1910 г.: «Революция»

---

[1] В моей книжке «Амин Рейхани. Избранные произведения», II. 1917, дана характеристика его творчества до войны и переведен ряд его произведений. Его портрет, снятый около 1910 г., воспроизведен в книге K. T. Khairallah, «La Syrie», Paris, 1912, при стр. 111. В 1914 году общую оценку его литературной деятельности дал M. Hartmann в статье Nadschafī und Rīḥānī (Die Welt des Islams, II, 1914, 287—292).

[2] Отзыв о нем дал G. Kampffmeyer в Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen, XXVIII, 2, 1925 г., стр. 298—303 и J. Schacht в Orientalistische Literaturzeitung, XXX, 1927, стр. 968—970.

[3] Текст в издании ملوك العرب تاليف امين الريحانى, Бейрут, 1924 г., т. I, стр. 6—20 (с пропуском некоторых примечаний).

предрассудками на почве своеобразного понимания религии;[1] «Босфор в одну из зимних ночей» (стр. 113—116) переносит нас в обстановку Абдулхамидовского режима, обрисованную с драматизмом, для которого надо не только обладать литературным талантом, но и на себе испытать все ужасы этой эпохи.[2]

Истым сыном Египта был Мустафа ал-Манфалути (1876—1924), пример той высоты, до которой может подняться представитель мусульманского мира, оставаясь на почве правоверия. Он не владел ни одним из европейских языков, но это не мешало ему быть основательно знакомым с европейской литературой (между прочим, и с Толстым).[3] Его стиль — превосходный образец строго классического языка пуриста, с легкостью удовлетворяющего всем запросам современности. Ал-Манфалути был тонким знатоком и ценителем не только старой, но и новой арабской литературы: его афористические характеристики современных писателей, с разделением их по манерам стиля, являются примером острого и вдумчивого анализа.[4] Все свойства его творчества объединяет помещенная в хрестоматии характеристика Зейдана (стр. 117—124):[5] она интересна еще и тем, что дает представление о той идеологической борьбе, которая с самого начала ново-арабской литературы чувствовалась в отношении мусульманской части к писателям из арабов-христиан.[6]

С наиболее популярным современным арабским писателем Амином Рейханн (род. в 1879 г.) хрестоматия вводит в среду

---

[1] Текст в сборнике جمعه اسمعيل عبد الحميد الادباء الخمس, Каир, без года, стр. 82—85.

[2] Текст там же, стр. 97—100.

[3] Некоторые из его обработок европейских произведений перечислены G. Kampffmeyer'ом в Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen, XXIX, 2, 1926 г., стр. 246—248.

[4] Об одном из его сборников см. в моей статье «Из арабской печати Египта» (Мир Ислама, т. I, 1912 г., стр. 504).

[5] Текст взят из четвертого издания третьего тома его статей النظرات بقلم مصطفى لطفى المنفلوطى الجزء الثالث Каир, 1923 г., стр. 131—145.

[6] Об одном из периодов этой борьбы, связанном с работами Зейдана см. в той-же моей статье, стр. 503—504.

Farah Antūn, Ibn Rushd wa-falsafatuhu (Alex. 1903) 227 pp.
٢٢٧ - ٨٥ ردود الاستاذ على الجامعة واجوبة الجامعة

истории мусульманской культуры. В последние годы жизни он мечтал о поднятии драматического искусства и действовал без особого успеха на поприще драматурга. Среди его романов первым произведением является «Новый Иерусалим»; [1] в хрестоматию включена глава первая, рисующая настроение местного населения перед арабским завоеванием (стр. 93—99), и глава девятнадцатая, описывающая встречу халифа Омара и патриарха Софрония при сдаче Иерусалима (стр. 99—105).[2]

Вали ад-дин Йекун (1873—1921) представляет не редкий тип писателя не чисто арабского происхождения, для которого Египет стал родной страной.[3] Член знатного турецкого рода, он провел молодые годы в Стамбуле и за деятельное участие в работе младо-турков был осужден на долголетнюю ссылку в Сивас. Его освободила только турецкая революция 1908 г., после которой он жил преимущественно в Каире, стремясь найти пути единения между турками и арабами. Поэт и публицист, он остается поэтом и в своих публицистических выступлениях. Стиль его в высшей степени индивидуален, насыщен эмоцией и горячей нервностью. Его картины до-революционной Турции по своему литературному достоинству принадлежат к лучшему, что написано на арабском языке. Он показывает «Как умирают литераторы на востоке» (стр. 106—110), лишенные поддержки окружающей их среды, потому что общество, проникнутое внешним европеизмом, не доразвилось до понимания ценности родной литературы.[4] «Ночь могущества» (стр. 110—113) — картинка из жизни мусульманских народов, подавленных суевериями и

---

[1] Оценка его — там же, стр. 27.

[2] В основу положено первое издание романа اوروشليم الجديدة او فتح العرب بيت المقدس والرجل المريض والاسرائيلية الجميلة فيها. Александрия, 1904 г., стр. 4—8 и 124—128 (опущены примечания автора).

[3] О другом таком писателе у меня идет речь в статье «Шейх Абу Наддара основатель арабской сатирической прессы в Египте (1839—1912)», помещенной в журнале Восток, книга 4, 1924 г., стр. 165—168.

[4] Текст взят из сборника его статей مجموعة مقالات التجاريب وهى اجتماعيّة ولى الدين يكن, Александрия, 1913, стр. 51—59.

и журналист, твердо шедший своим путем и основавший журнал, который продолжает успешно развиваться и после его смерти.[1] Из его многочисленных романов выбраны по возможности такие, которые касаются различных периодов арабской истории. Глава 19 из романа «Египтянка Армануосса» (стр. 75—86) рисует завоевание Египта арабами, с характеристикой предшествующего положения,[2] глава 22 из романа «ал-ʿАббāса сестра ар-Рашīда» (стр. 86—90) переносит в эпоху расцвета аббасидского халифата, когда жизнь при дворе не имела уже ничего общего со скромной жизнью героев первых веков ислама.[3] Третий роман «Пленник ал-Махдī» относится ко второй серии произведений Зейдāна, сюжет которых взят из истории XVIII—XIX в. Он посвящен восстанию суданского Махди против англичан и Египта в 80—90-х г. прошлого века; глава 44 (стр. 90—92) обрисовывает ту среду, где это восстание происходило, и впечатление, производимое ал-Махди на его приверженцев.[4]

Не меньшей разносторонностью, чем Зейдāн, отличался третий представленный в хрестоматии романист — Фарах Антūн (1873—1922); деятельность его была проникнута большей нервностью и неуравновешенностью, в противоположность первому.[5] Как и Зейдāн, он был журналистом, но ему пришлось кочевать со своим журналом из Александрии в Каир, оттуда в Америку и обратно. Одно время большое внимание в арабском мире вызвала его полемика с Мухаммедом ʿАбдо по вопросам

---

[1] Общая характеристика его личности и произведений до 1911 г. дана мною в упомянутой статье, стр. 17—25.

[2] Текст взят из второго издания романа ارمانوسة المصرية, Каир, 1898 г., стр. 114—128.

[3] Печатается по первому изданию العباسة آخت الرشيد, Каир, 1906 г., стр. 56—58 (опущены ссылки на источники). Этот роман переведен на французский язык с несколько измененным заглавием «La soeur du Khalife», под редакцией Claude Farrère.

[4] Текст дан по второму изданию اسير المتمهدى, Каир, 1901 г., стр. 175—177.

[5] Общая его характеристика до 1911 г. в упомянутой статье, стр. 25—27.

в Сирии.[1] Ал-Бустани имел возможность ознакомиться с жизнью арабов не только в странах арабского языка, но и в Америке; он был почти свидетелем первых шагов арабской колонии там, в Америке он и умер уже тогда, когда эта колония стала оказывать сильное влияние на все литературное движение своей метрополии. Данная им характеристика эмиграции приобрела теперь, после сильных изменений в арабских странах, значение исторического документа первостепенной важности.

За серией публицистов старшего поколения идет в хрестоматии ряд романистов, которых можно считать основоположниками исторического романа — единственной формы повествовательной прозы, которая заняла прочное место в новой арабской литературе и вызвала к жизни несколько заслуживающих внимания произведений.[2] Извлечения из романов сделаны с таким расчетом, чтобы они могли характеризовать не только индивидуальность автора, но и взгляд современных арабских писателей на некоторые основные моменты и важные периоды их истории. Первый из этих писателей, Джемиль ал-Мудаувар (1862—1907), пользуется известностью как автор романа-хроники в письмах из эпохи Харуна ар-Рашида;[3] в хрестоматии помещена часть восьмого письма (стр. 59—74), повествующая о посольстве героя повести к императору Франков, с описанием его путешествия через Сирию и подробным рассказом про Дамаск с его знаменитой омейядской мечетью.[4] Джирджи Зейдан (1861—1914) — одна из крупнейших фигур новой арабской литературы: не только романист, но историк, историк литературы

---

[1] Текст приводится по первому изданию его книги عبرة وذكرى او الدولة العثمانيّة قبل الدستور وبعده, Каир, 1908 г., стр. 105—125.

[2] Возникновение и развитие исторического романа у арабов освещено мной в упоминавшейся статье «Исторический роман в современной арабской литературе». СПб. 1911. Нужно иметь в виду, что она написана 18 лет тому-назад и с той поры материал сильно увеличился.

[3] Содержание его изложено в упомянутой статье, стр. 14—16.

[4] Печатается по второму изданию хроники حضارة الاسلام فى دار السلام Каир, 1905 г., стр. 265—288. (В хрестоматии опущены приводимые автором ссылки на источники).

деятельность связана с Египтом, где он прожил почти всю свою жизнь, и падает на тот период, когда после первых моментов прямой борьбы с английской оккупацией, усилия арабского общества стали устремляться на внутреннее развитие народа. В его статьях не звучит уже тот революционный тон, которым проникнуты все произведения Исḫāḳа, самый их стиль значительно более спокоен и «академичен». Сторонником эволюции и работы над собой он является и в помещенных произведениях «Какова бывает самостоятельность»? (стр. 32—35) и «Вы работаете на службу англичанам» (стр. 36—42). В последней особенного внимания заслуживает характеристика современной ему египетской прессы.[1]

На сорок лет пережил своего современника Адība Исḫāḳа другой знаменитый уроженец Сирии, Сулейман ал-Бустāнī (1856—1925); хотя они начали свою работу одновременно, в одном и том же литературном обществе в Бейруте, пути их жизни оказались так же различны, как и сроки самой жизни. Ал-Бустāнī является одной из наиболее, разносторонних фигур новой арабской литературы и жизни.[2] Государственный деятель, администратор и финансист, с другой стороны — публицист, тонкий знаток старой и новой арабской поэзии и переводчик Илиады на свой родной язык[3] — он прожил богатую внутренним содержанием жизнь и в разных областях оставил свой след. В хрестоматию включена одна глава из его книги «Турция до конституции и после нее», выпущенной в связи с избранием его депутатом турецкого парламента. Глава эта названа «Конституция и эмиграция» (стр. 43—58) и может служить хорошим введением в изучение вопроса об эмиграции, который с 90-х г. начинает играть очень важную роль в арабских странах, особенно

---

[1] Текст дан на основании посмертного переиздания его статей منتخبات المرحوم الشيخ نجيب الحداد... Александрия, 1903 г., стр. 188—192 и 200—209.

[2] О нем см. мою статью «Сулейман аль-Бустāнī», Киев, 1927 г. (Отд. отт. из Юбилейного Сборника в честь акад. Д. И. Багалия).

[3] Об этом переводе существует моя статья «Арабский перевод Илиады» (Гермес, 1909 г., № 2, стр. 37—42).

основателем и нового публицистического стиля — нервного, живого, зажигательного, представляющего как бы печатную речь. Для хрестоматии выбрана данная им характеристика Джемāл-ад-дīна Афганского (стр. 18—21), который не нашел своего отражения в настоящем сборнике личными произведениями. Как и многие политические деятели и руководители общественного движения, Джемāл-ад-дīн Афганский оставил после себя мало произведений: арабский язык для него не был родным и часть его работ только переведена его учениками. Гораздо лучше, чем в этих произведениях, он отражается в статье А. Исḥāḳа, написанной под живым впечатлением общения с ним в Египте после высылки его в Индию.[1] Второе произведение Исḥāḳа взято тоже из газетных статей и посвящено «Востоку», (стр. 21—27), в частности арабскому миру и отношению его к европейской политике.[2] Две последних небольших статьи «Счастие после мученичества» (стр. 27—28) и «Европа и восток» (стр. 28—31) были помещены в газете «Каир», издававшейся им в Париже в 1880 г., когда талант его сформировался и стиль принял определенно выраженный индивидуальный характер.[3] В последней статье особый интерес может представить формулировка его взглядов на политическую роль России в эту эпоху.

Из сирийской среды вышел очень популярный до наших дней писатель Неджīб ал-Ḥаддāд, (1867—1899), бывший в близкой родственной связи с семьей ал-Йāзыджī, которая выдвинула много деятелей арабского литературного возрождения. Особенно он известен как драматург; его пьесы и переводные, и подражательные до сих пор не сходят со сцены.[4] Его публицистическая

---

[1] Текст дается на основании последнего издания его статей под редакцией его брата ʿАунī Исḥāḳа الدرر وهى منتخبات ... المرحوم اديب اسحق, Бейрут, 1909 г., стр. 220—223.

[2] Там же, стр. 197—203.

[3] Текст взят из того же издания, стр. 143—144 и 144—147.

[4] Общие сведения об этой стороне его деятельности даны мной в упомянутой статье «Исторический роман в современной арабской литературе», стр. 12—13.

сторонником эволюции, то скорее революционером был его современник, менее известный и не оцененный ал-Кавākиби (1849—1903). Уроженец Алеппо, подвергнутый преследованиям абдул-хамидовского режима за публицистическую деятельность, он вынужден был покинуть родину и провел всю свою жизнь в скитаниях по самым разнообразным областям мусульманского мира, вплоть до Индии и центральной Африки. Умер он в Каире в полном одиночестве и только после смерти были оценены две основные его работы: «Природа деспотизма» и «Мать городов (Мекка)». Первая представляет интересный этюд по государственному праву и его преломлениям в мусульманском мире, вторая — своеобразную утопию, протоколы никогда не происходившего в Мекке всемусульманского съезда.[1] В оба произведения автором вложено богатое и всестороннее знание не только арабских, но и вообще всех мусульманских стран, освещенное сильной и идущей до крайних выводов мыслью. Его произведения могут дать хороший ключ к пониманию чаяний лучших представителей мусульманского мира на склоне XIX в. Помещаемый отрывок «Деспотизм и наука» (стр. 13—17) представляет одну главу из произведения «Природа деспотизма».[2]

كواكبي
see Antonius, Arab Awakenm 95-9

Революционером не только по настроению, но и по стилю, является уроженец Дамаска, Адīб Исḥāḳ (1856—1885), который умер, не завершив даже трех десятков лет своей жизни.[3] Обязанный своим мировоззрением отчасти сирийской среде, главным образом кружку Бутруса ал-Бустāни, он все же должен быть отнесен скорее к духовным ученикам Джемāл-ад-дīна Афганского; его политическая деятельность связана преимущественно с Египтом. Талантливый оратор типа трибуна, он явился

[1] Книга составлена настолько умело, что целый ряд исследователей был введен в заблуждение и предполагал, что в 1898 г. в Мекке фактически состоялся мусульманский конгрес. (См. L. Massignon, Annuaire du Monde Musulman, Seconde édition, 1925, стр. 385).

[2] Текст дан по изданию طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد, Каир, без года, стр. 32—39.

[3] Некоторые сведения о нем имеются в книге K. T. Khairallah, La Syrie, Paris, 1912, стр. 72—76.

меду ʿАбдо (1849—1905),[1] кончившему жизнь муфтием Египта.[2] Будучи ближайшим учеником и сподвижником одного из крупнейших общественно-политических деятелей ислама во 2-й половине XIX в., Джемāл-ад-дīна Афганского (1839—1897),[3] он принял участие в национально-освободительном движении ʿАраби паши в Египте и, в результате английской оккупации, был на несколько лет лишен права въезда на родину. Ко времени его пребывания в Бейруте в 80-х г. и относится помещаемая «Записка», которая очень хорошо характеризует состояние Сирии в эту эпоху и может послужить вообще полезным введением в изучение периода, представленного в хрестоматии.[4] Стиль Мухаммеда ʿАбдо пользуется заслуженной известностью в арабском мире, хотя о нем обыкновенно судят по более поздним произведениям, когда его интересы сосредоточивались преимущественно на религиозной стороне ислама. Его роль в этой области может считаться достаточно хорошо освещенной, благодаря новым европейским работам;[5] в Ташкенте недавно переиздано интересное и остроумное описание его путешествия в Сицилию.[6]

Если Мухаммед ʿАбдо в своих общественно-политических взглядах, особенно во вторую половину деятельности, является

---

[1] В арабском тексте (стр. 1,2) мною указан на основании некоторых восточных источников 1842 г.; повидимому, вернее 1849 г., принятый в последнее время европейской наукой.

[2] О другом представителе модернистского течения среди мусульман Индии см. мою заметку в журнале Восток, книга 4, 1924 г., стр. 193—194.

[3] Общий очерк его жизни и деятельности (с указанием литературы) дал I. Goldziher в Enzyklopaedie des Islām, т. I, 1913 г., стр. 1052—1054.

[4] Текст ее дан на основании посмертного издания сочинений М. ʿАбдо تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده т. II, Каир, 1324 г. хиджры, стр. 354—363.

[5] I. Goldziher, Die Richtungen der islamischen Koranauslegung, Leiden 1920, стр. 322—344. Другая литература указана в книге Cheikh Mohammed Abdou, Rissalat al-tawhid, traduite de l'arabe avec une introduction sur la vie et les idées du Cheikh Mohammed Abdou par B. Michel et le Cheikh Moustapha Abdel Razik. Paris, 1925.

[6] Палермо — Сицилия. Путевые заметки шейха Мухаммеда ʿАбду с предисловием проф. А. Э. Шмидт. Ташкент, 1927 г. (Стеклография).

женщины-писательницы, и т. д.). Даже и при невыдержанности принципа распределения, хрестоматия в настоящем виде может дать известное представление об историческом развитии литературы с 80-х г. прошлого столетия до 20-х настоящего. От педагогического приема распределения произведений по трудности при таких условиях пришлось, конечно, отказаться; выбор в этом направлении надо предоставить или непосредственному ощущению работающего, или руководству преподавателя.

II.

Общего пособия, которое могло бы помочь при ознакомлении с авторами, включенными в хрестоматию, не существует: очерк ново-арабской литературы еще не написан[1] и вероятно не скоро будет написан при слабом интересе к этой области в западноевропейском востоковедении. Чтобы дать хоть некоторую руководящую нить, я ограничусь лишь несколькими общими замечаниями об отдельных авторах, с указанием европейской литературы о них, если таковая существует.[2] Арабских источников я не касаюсь, так как это потребовало бы составления особой библиографии, для которой может найтись место только в специальной истории ново-арабской литературы.

Сборник открывается «Второй запиской о реформах в сирийском округе» (стр. 1—12), принадлежащей одному из основателей модернистского течения в современном исламе, Мухам-

---

[1] Статья Г. А. Муркоса, Новейшая литература арабов (Всеобщая История Литературы под редакцией В. Ф. Корша, том второй, выпуск XIII—XIV. СПб. 1882 г., стр. 374—380), совершенно устарела и захватывает только период до 70-х годов.

[2] Общим введением может послужить заметка А. Е. Крымского «Возрождение арабской литературы в XIX в.» (Новый Энциклопедический Словарь Брокгауза и Ефрона, т. III, стр. 282—283); основные линии движения за XIX—XX в. характеризует моя статья «Возникновение и развитие ново-арабской литературы» (Восток, книга 1, 1922 г., стр. 67—73). Отношение новой литературы к предшествующим периодам обрисовано в соответствующих отделах моих статей «Арабская литература» (Литература Востока, выпуск первый, П. 1919 г., стр. 24—33) и «Арабская поэзия» (Восток, книга 4, 1924 г., стр. 97—112).

не нашла себе места, но о положении театрального дела можно судить по характеристике одного из крупнейших арабских артистов и режиссеров (ʿА. ʿЫд), или по предисловию к одной из драм нового направления (М. Наʿы̄ма). Вся общественно-политическая жизнь Сирии и Египта, начиная с 80-х г. имеет свое отражение в хрестоматии: различные группировки сирийских организаций в 80-х г., история эмиграционного движения, Египет после английской оккупации, первые шаги турецкой конституции, взаимоотношения между турками и арабами и т. д. Современности уделено не меньшее место, вплоть до характеристики различных политических объединений в Аравии наших дней или экономического состояния Сирии после войны. Особенное внимание посвящено женскому движению, которое представлено не только освещающими его беллетристическими произведениями, но и статьями виднейших деятельниц. Можно надеяться, что такой состав сборника будет не лишней иллюстрацией к истории арабской литературы и общественности в новое время, особенно если принять во внимание, что в западной Европе, откуда мы привыкли черпать наши сведения в затруднительных случаях, аналогичного материала нет.

Начальная дата материала, который должен был составить хрестоматию, — 80-е годы, определилась без труда, так как именно с этого времени начинается новый период арабской литературы XIX в., с отчетливо выраженными чертами почти во всех отраслях. Найти принцип для распределения этого материала оказалось труднее: систематическую группировку по отделам едва-ли можно было провести полностью, в виду некоторой неопределенности содержания отдельных произведений и возможности отнести их к различным категориям. Более целесообразным оказался хронологический принцип по годам рождения авторов; выдержать его вполне не удалось, так как не всегда можно было установить с уверенностью хронологические даты. В исключительных случаях материалом подсказывалась внутренняя, более мелкая группировка (исторический роман, литература в Америке,

ных произведений тех же самых авторов. Нельзя забывать и того, что одной из наиболее излюбленных форм современной арабской литературы являются мелкие этюды и наброски, которые даже не поддаются ближайшей классификации, но вместе с тем играют очень большую роль и в повседневной газетно-журнальной прессе, и в высших сферах литературы. Понятно, что они должны были найти в настоящей хрестоматии достаточное отражение. В противоположность им, читатель не встретит здесь образцов драматической литературы. Театр занимает видное место в современной арабской жизни, но театральные произведения представляют или простые переводы-переделки с европейских языков или подражания им, не всегда достигающие высокого литературного уровня.[1] Едва-ли не единственным исключением могут считаться бытовые комедии и драмы безвременно умершего Муḥаммеда Теймӯра (1892—1921), но они написаны в значительной мере на египетском диалекте и не могут быть включены в сборник произведений на литературном языке.

Если при включении в хрестоматию отдельных произведений основным критерием была их «литературность», то есть принадлежность к высокой категории литературного стиля, то в выборе их играла роль не только форма, но и содержание. Хрестоматия должна характеризовать не одну литературу, но и жизнь арабских стран за соответствующий период. Из области критики взяты поэтому такие статьи, которые иногда дают оценку автора, вошедшего в хрестоматию (Дж. Зейдāн), иногда такого деятеля, который не представлен в хрестоматии, но оказал влияние на ряд упомянутых здесь писателей (Джемāл-ад-дӣн Афганский), иногда характеризуют отношение к современной европейской литературе (П. Лоти). Драматическая литература в хрестоматии

---

[1] Общие сведения об арабской драме в XIX в. можно найти в моей статье «Исторический роман в современной арабской литературе» (СПб. 1911 г. Отд. отт. из Журнала Министерства Народного Просвещения), стр 11—13. Ср. еще Curt Prüfer, «Drama (arabic)» в издании Encyklopaedia of Religion and Ethiks, т. IV, 1911, стр. 876—878.

произведений двадцати одного автора дают достаточный материал для этого и тот, кто основательно проработает хотя бы часть его, может смело подходить к сочинениям любого современного писателя, не боясь оказаться в беспомощном положении, как бывает иногда с изучавшими произведения только классической литературы.

Знакомство с языком основная, но не единственная цель хрестоматии: она должна дать некоторое представление о литературе и вообще о всей культурно-общественной жизни арабов на протяжении последнего полувека. Этой задачей обусловлен выбор как самих авторов, так и их произведений. Дать характеристику всей ново-арабской литературы со времени ее возникновения на пространстве одного тома невозможно. Кроме того, первый период, более примыкающий к древности, чем к новому времени, не столь важен для изучающего современность;[1] начальным пунктом для включения в хрестоматию взяты поэтому 80-е годы прошлого столетия, когда известные события в Египте дали новый толчок общественной жизни почти всех арабских стран и вызвали то движение, с которым связана современность уже непосредственными нитями. Ограничить внимание одной изящной литературой за этот период было бы неосновательно: арабы и в XX веке остаются такими же поклонниками слова и формы, какими они были в X-м, и до высокой степени литературности у них поднимается не только беллетристика, но и критика, и публицистика. Иногда последним категориям приходится даже отдавать преимущество: в то время, как собственно литература (в частности, например, новелла и драма) очень долгое время продолжает итти подражательным путем, не выдвигая выдающихся оригинальных произведений, публицистика уже с 80-х годов прошлого столетия создает безукоризненные по форме образцы, влияние которых и на общество, и на литературу иногда сильнее чисто литератур-

[1] Хорошим образцом этого периода могут служить произведения Н. ал-Йāзыджй (1800—1871), перевод одного из которых помещен мною в журнале Восток, книга 2, 1923 г., стр. 31—34.

удобным для целей преподавания. Единственная попытка помочь в этом направлении принадлежит E. Harder'у, который в своей хрестоматии,[1] помимо образцов газетных отделов, поместил довольно много журнальных статей по различным вопросам. Выбор был ограничен египетскими журналами, которые не всегда типичны для других арабских стран в их современном положении; кроме того, этот род литературы является одним из наиболее эфемерных по самому характеру арабской прессы, и понятно, что при таком составе материал хрестоматии Harder'а, несмотря на довольно значительный объем, уже несколько устарел. Из крупных литературных имен у него привлечен только один автор; все это, конечно, не может дать никакого представления ни о характере развития арабской литературы за последние десятилетия, ни об индивидуальном слоге отдельных писателей и языке их эпохи.[2]

Настоящая хрестоматия и ставит своей задачей несколько заполнить пробел в указанных направлениях. Основная ее цель — служить пособием для тех лиц, которые желают ознакомиться с современным литературным языком у прозаиков.[3] Объем хрестоматии достаточно велик, так как на протяжении тех четырех десятилетий, которые представлены в сборнике, встречались различные типы стиля, начиная от строго выдержанного подражания классическому и кончая свободной, живой манерой, стоящей под влиянием европейских литератур и ораторской или разговорной речи. Все направления имеют своих более или менее талантливых представителей в арабской современности и со всеми должен быть знаком тот деятель, который хочет понять жизнь нового востока или путем общения с его представителями или через посредство их писателей. Думается, что более сорока

---

[1] Arabische Chrestomathie, Heidelberg, 1911.

[2] Ср. рецензию C. H. Becker'a на хрестоматию Harder'а в журнале Der Islam, т. II за 1911 г., стр. 407—408.

[3] Новая арабская поэзия по своему богатству требует самостоятельной хрестоматии, составление которой при бедности пособиями в других областях едва-ли может быть поставлено на первую очередь.

отразился конечно в оффициальной и частной переписке, особенно в ее терминологии; в известной части устарелым является теперь и тот материал, который собран около 20 лет тому-назад А. Хащабом.[1] Важным преимуществом этого сборника, сравнительно с работой Washington-Serruys, остается то, что он дает документы в их оригинальной рукописной форме, а не печатной транскрипции. Оба этих издания и являются основными наличными пособиями при изучении современного газетно-оффициального языка.[2] Другие сборники менее значительны по своему объему и подбору текстов: небольшая хрестоматия J. Harfouch'a[3] ограничивается только образцами торговой корреспонденции и объявлений.[4] Во всяком случае, комбинация всех перечисленных пособий дает возможность достаточно хорошо ознакомиться с представленными в них категориями стиля, конечно всегда с учетом тех больших изменений, которые произошли в арабских странах за последнюю четверть века. В этом отношении могут несколько помочь отдельные правительственные акты и оффициальные документы современного арабского мира, которые в последнее время издавались Берлинским Семинарием Восточных Языков в его органе с соответствующими комментариями.[5]

Значительно хуже дело обстоит с литературой в собственном смысле, для изучения которой и теперь приходится обращаться к восточным изданиям отдельных авторов, не всегда доступным и

---

[1] Образцы современной арабской письменности. СПб. 1908.

[2] Полезной остается и работа L. Cheikho, Spécimens d'écritures arabes (Beyrouth, 2 éd., 1888), хотя она ставит главной целью ознакомление с почерками, а тексты выбирает иногда из области классического языка.

[3] L'arabe dialectal de Syrie. Beyrouth. 1904 (2-е изд. 1914).

[4] Конечно, они составлены на обычном литературном языке и заглавие книжки, относящееся к другим отделам, не должно вводить в заблуждение.

[5] См. в особенности G. Kampffmeyer, Das heutige Aegypten. Arabische Texte mit Erläuterungen als Einführung in ein quellenmässiges Studium der Gegenwartsverhältnisse des ägyptischen Volkes. Erstes Stück. (Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen zu Berlin, XXVIII, 2, 1925 г., стр. 1—91); он же, Arabische Technologie der Gegenwart. I. Aus dem heutigen Wirtschaftsleben Ägyptens (указ. изд., XXIX, 2, 1926 г., стр. 1—98); он же, Urkunden und Berichte zur Gegenwartsgeschichte des arabischen Orients (там же, стр. 207—223).

ПРЕДИСЛОВИЕ.

I.

Появление настоящей хрестоматии вызвано полным отсутствием пособий по изучению современного арабского литературного языка, как у нас, так и на западе. В области грамматики, конечно, любой учебник арабского языка в его классической форме может быть достаточным руководством, так как грамматические различия между современным литературным и классическим языком ничтожны (за исключением в некоторых случаях синтаксиса). Что же касается стиля и особенно лексики (не говоря уже о сюжетах), различия оказываются очень серьезными и нередко даже хорошее знание классического языка позволяет их преодолеть только с большим трудом, если нет предварительного знакомства с соответствующими категориями образцов.

Недостаток таких пособий ощущался давно и попытки восполнить его делались неоднократно, но направлялись они почти исключительно на газетный и оффициально-деловой язык. Первый опыт в этом направлении — сборник Washington-Serruys[1] остается полезным и до сих пор, благодаря специальному словарю. Однако, рост общественной жизни на арабском востоке за последние 30 лет делает словарь недостаточным, а самый подбор образцов значительно устарелым. Не менее сильный сдвиг

---

[1] L'arabe moderne, étudié dans les journaux et les pièces officielles. Beyrouth. 1897.

Ленинградский Областлит № 40798. — 18 1/8 печ. л. — Тираж 1000.

Государственная Академическая Типография. В. О., 9 линия 12.

ЦИК СССР
ЛЕНИНГРАДСКИЙ ВОСТОЧНЫЙ ИНСТИТУТ
ИМЕНИ А. С. ЕНУКИДЗЕ

25

К. В. Оде-Васильева

ОБРАЗЦЫ
НОВО-АРАБСКОЙ ЛИТЕРАТУРЫ

(1880—1925)

I
ТЕКСТ

ПОД РЕДАКЦИЕЙ И С ПРЕДИСЛОВИЕМ

И. Ю. Крачковского

ЛЕНИНГРАД
ИЗДАНИЕ ЛЕНИНГРАДСКОГО ВОСТОЧНОГО ИНСТИТУТА
ИМЕНИ А. С. ЕНУКИДЗЕ
1928

ИЗДАНИЯ ЛЕНИНГРАДСКОГО ВОСТОЧНОГО ИНСТИТУТА ИМЕНИ А. С. ЕНУКИДЗЕ.

1. **Марр Н. Я.** К изучению современного грузинского языка. 1922 г. 22 стран. 40 к.
2. **Марр Н. Я.** Чем живет яфетическое языкознание (на грузинском языке и в яфет-транскрипции). 1923 г. 80 стран. 1 р. 50 к.
3. **Тубянский М. И.** Образцы бенгальской литературы. 1922 г. 132 стран. 2 р.
4. **Самойлович А. Н.** Несколько дополнений к классификации турецких языков. 1922 г. 16 стран. 40 к.
5. **Справочные сведения** по Петроградскому Институту Живых Восточных Языков (1920—1923 гг.). 1924 г. 87 стран. *Разошлось.*
6. **Ромаскевич А. А.** Современная персидская пресса в образцах. 1924 г. 268 стран. 5 р. *Разошлось.*
7. **Бартольд В. В.** История изучения Востока в Европе и России. 1925 г. 318 стран. 2 р. 25 к.
8. **Труды яфетического семинария. II. — Марр Н. Я.** Пособие к лекциям по практическому изучению живого грузинского языка. 1926 г. VIII + 99 стран.
9. **Справочные сведения** по Ленинградскому Институту Живых Восточных Языков (1924—1925 гг.). 98 стран.
10. **Самойлович А. Н.** Краткая учебная грамматика современного османско-турецкого языка. 1925 г. 156 стран. 2 р. 50 к.
11. **Владимирцов Б. Я.** Образцы монгольской народной словесности. (С.-З. Монголия). 1926 г. XI + 202 стран. 4 р. 50 к.
12. **Труды яфетического семинария. I. — Марр Н. Я.** Абхазский аналитический алфавит. 1926 г. 52 стран. 1 р.
13. **Труды туркологического семинария. I. — Иностранцев К. А.** Хунну и Гунны. 1926 г. IV + 152 стран. 2 р.
14. **Г. Бюлер.** Руководство к элементарному курсу санскритского языка. Перевод под редакцией акад. Ф. И. Щербатского. 1923 г. 157 стр. 2 р. 50 к.
15. **Бертельс Е. Э.** Бахтиар-Наме. Персидск. текст и словарь. 1926 г. 90 стр. 2 р. 50 к.
16. **Оде-Васильева К. В.** Начальная арабская хрестоматия, с предисловием акад. И. Ю. Крачковского. 1926 г. 44 стран. 1 р.
17. **Баранников А. П.** Краткая грамматика Хиндустани (Урду). 1926 г. 112 стран. 2 р. 50 к.
18. **Конрад Н. И.** Японская литература в очерках и образцах. 1927 г. 552 стран. 7 р. 50 к.
19. **Бертельс Е. Э.** Грамматика персидского языка. 1926. 126 стран. 2 р. 50.
20. **Лауфер Б.** Очерк монгольской литературы. Перевод под редакцией и с предисловием Б. Я. Владимирцова. 1927. XXI + 95 стран. 1 р. 50 к.
22. **Емельянов А. И.** Грамматика вотяцкого языка. 1927. 160 стран. 2 р. 50 к.
23. **Дембо Л. И.** Земельный строй Востока. 1927 г. 117 стран. 1 р. 75 к.
24. **Баранников А. П.** Образцы современной прозы Хиндустани. 1927 г. 115 стр. 2 р.

ЛЕНИНГРАДСКИЙ ВОСТОЧНЫЙ ИНСТИТУТ ИМЕНИ А. С. ЕНУКИДЗЕ И ЕГО ИЗДАТЕЛЬСТВО ПОМЕЩАЮТСЯ: МАКСИМИЛИАНОВСКИЙ ПЕР. 7; ТЕЛЕФ. 157-41, 124-89. ДЛЯ ТЕЛЕГРАММ: ЛЕНИНГРАД, ЛИЖВЯ.

ЦИК СССР
ЛЕНИНГРАДСКИЙ ВОСТОЧНЫЙ ИНСТИТУТ
ИМЕНИ А. С. ЕНУКИДЗЕ

25

К. В. Оде-Васильева

ОБРАЗЦЫ
НОВО-АРАБСКОЙ ЛИТЕРАТУРЫ

(1880—1925)

I

ТЕКСТ

ПОД РЕДАКЦИЕЙ И С ПРЕДИСЛОВИЕМ

И. Ю. Крачковского

ЛЕНИНГРАД
ИЗДАНИЕ ЛЕНИНГРАДСКОГО ВОСТОЧНОГО ИНСТИТУТА
ИМЕНИ А. С. ЕНУКИДЗЕ
1928

ARTHUR PROBSTHAIN,
Oriental Bookseller
41 Gt. Russell Street,
British Museum,
LONDON. W.C.